8030

شاقل

الكاتب ٨٨

للثقافة الانسانية والتقدم

العدد
الثامن والثمانون
آب - ١٩٨٧

- المأزق الفلسطيني.القيود ، والفرص
- واقع التعليم في العالم العربي"دراسة نقدية من زاوية ديموقراطيةالتعليم"
- مقاطعة المنظمات الاميركية التطوعية الخاصة في المناطق المحتلة ، هي الكفيلة باحباط الدور المشبوه الذى تحاول ان تلعبه .
- ساندينو بطل نيكاراغوا الوطني الخالد.
- المعضلات العالمية وتقدم البشرية اجتماعيا.
- ناجي العلي.. انت في القلب .. وجراحك جراح جيلنا
- الانسان السوفييتي .. من هو .. وكيف هو ؟
- بعض من التفكير النمطي في الادب العبرى
- الحكواتي في "كفر شما" سياحة في مواضع الحنين

شركة كهرباء محافظة القدس
بعد عشرين عاماً من الاحتلال

Digitized by Birzeit University Library

الكاتب

للثقافة الانسانية والتقدم

صاحب الامتياز ـ المراسلون
أسعد الأسعد
القدس

AL KATEB

For human culture and progress.

Editor
Asa'd Al-Asa`d
P.O.Box 20489
Jerusalem
Tel.856931

رئيس التحرير

أسعد الأسعد

مدير التحرير : نظام غطايا

مجلس التحرير

بسّام الصالحي — تيسير العاروري

جميل السلحوت — د. سمير عبدالله

فضل البورنو — محمد البطراوي

محمود الشيخ

صف ومونتاج : جمير أبو غوش

الاشتراكات :

بالبريد ـ أو مايعادلها سنة واحدة

محليا ٢٥ دولار

بلدان أخرى ٦٠ دولار

المؤسسات

المحلية ٥٠ دولار

بلدان أخرى ١٠٠ دولار

ترتيب المواد في هذا العدد يخضع لضرورات فنية .
لا ترد المواد لمرسليها اذا لم تنشر .

المراسلات :

الكاتب ـ ص.ب: ٢٠٤٨٩ القدس
تلفون ٨٥٦٩٣١

Digitized by Birzeit University Library

المحتويات

العدد الخامس والثمانون السنة الثامنة آب - ١٩٨٧ .

أبحاث ومداخلات ، متابعـــات

٢ شركة كهرباء محافظة القدس بعد عشرين عاما من الاحتلال . مركز ابحاث الكاتب

٢٦ المأزق الفلسطيني القيود ،والفرص . د. نصير العاروري

٣٨ واقع التعليم في العالم العربي " دراسة نقدية من زاوية ديمقراطية التعليم" د. نعيم حبيب جعاينيي

٥٢ مقاطعة المنظمات الاميركية التطوعية الخاصة في المناطق المحتلة، هي الكفيلة باحباط الدور المشبوه الذى تحاول ان تلعبه . عيسى سامي

٥٩ ساندينو . بطل نيكاراغوا الوطني الخالد . كارلوس فونسيكا
ترجمة : محمد البطراوي

٦٩ المعضلات العالمية وتقدم البشرية اجتماعيا . فاديم زغلادين

٨٨ ناجي العلي : انت في القلب .. وجراحك جراح جيلنا اسعد الاسعد

٩٠ الانسان السوفييتي من هو .. وكيف هو ؟ جيرار ستريف

أدب ونقـــد

٩٣ بعض من التفكير النمطي في الادب العبرى رياض بيدس

مســـرح

٩٧ الحكواتي في "كفر شما " سياحة في مواضع الحنين

قصـــة قصيـــرة

١٠٧ فصل من رواية " أيام لا تنسى " للاديب جمال بنورة " جمال بنـــورة

١١٤ الكوفية البيضـــاء د.ابراهيم العلم

١١٨ الصديـــق الحـــق وضـــاح السعـــد

١٢١ بيـــت الراحـــة باســم النبريـــص

الاراء المنشورة لا تعبّر بالضرورة عن وجهـة نظـر مجلـس التحريـــر .

Digitized by Birzeit University Library

شعـــــر

١٢٣ وقـت سمـاع المذيـاع — روبـرت روجديستفنسكي ترجمة :مالـك قطينة

١٢٥ أغنيـة للـدار — جميـل مكحـل

١٢٧ نحـو الشمـس — عبد الحليم حسـن

Digitized by Birzeit University Library

شركة كهرباء محافظة القدس
بعد عشرين عاماً من الاحتلال

مركز ابحاث الكاتب

دخلت ازمة شركة الكهرباء مرحلة تتميز عن سابقاتها بكونها الاشد خطورة من حيث كونها تمس مصير هذه المؤسسة والعاملين فيها ، ومن حيث انها تعكس الاهداف السياسية لسلطات الاحتلال من وراء سعيها لتصفيتها ـ الامر الذي تؤكده النقاشات الجارية بين قطبي الحكومة الاسرائيلية . ففي حين يرى وزير الطاقة (من حزب العمل) ان مشروعه القاضي بتقليص امتياز الشركة العربية ومنحها امتياز جديد وبشروط جديدة على المناطق العربية فقط يهدف الى تكريس السيادة القومية الاسرائيلية على القدس برمتها ، يرى وزراء الليكود بأن الغاء امتياز الشركة العربية في القدس الشرقية يعني استعدادا من قبل حزب العمل للمساومة على مكانة القدس ووحدتها والسيادة الاسرائيلية عليها .

وفي هذه الايام نشهد مرحلة تم توزيع الادوار فيها بشكل متقن فوزير الطاقة يقر بان سلطات الاحتلال عرقلت تطور الشركة ويؤكد الطابع السياسي للازمة ، والاردن تؤيد مشروع شاحال ويهدد بالزعل اذا ماطبقت خطة الليكود لتصفية المؤسسة ، وزارة الخارجية الامريكية تعرب عن عدم استعدادها للدفاع عن اسرائيل اذا ماتمت تصفية الشركة وتؤيد ايضا مشروع شاحال ، ومجلس الادارة لا يحرك ساكنا ويترقب قرار الحكومة الاسرائيلية وفي الجلسات الخاصة لاعضائه وكبار مسؤولي الشركة يتم الاعراب عن تأييد مشروع شاحال .

كل هذا السيناريو هدفه امتصاص النقمة الشعبية على المخطط الاسرائيلي لانتزاع جزء من امتياز الشركة والذي يفسح المجال للتصفية على مراحل .

وقد رأينا تضمين هذا الملف لمحة عن تاريخ الشركة ومراحل تطورها ووضعها الفني والمالي واستعراضا لمراحل تطور ازمتها ومسبباتها والقوى المحركة لها ومواقف مختلف الاطراف المعنية سواء الجانبين الاردني والاسرائيلي او على الادارة ونقابة العمال ..

Digitized by Birzeit University Library

ومرد هذا الاهتمام لا يعود فقط للاهمية الوطنية لهذه المؤسسة وانما ايضا لاهميتها الاقتصادية والمخاطر التي تنتظر الاقتصاد الوطني في حالة تمرير المخططات الاسرائيلية تجاهها ، وانعكاسات ذلك على الجماهير الشعبية في منطقة الامتياز .

مسيـــرة الشركـــة :

في عهد الانتداب :

بتاريخ ٢٧/ كانون ثاني عام ١٩١٤ منحت الدولة العثمانية المواطن اليوناني بوربيدس مفروماتس امتياز لتوليد الطاقة الكهربائية وتوزيعها في منطقة القدس .

وفي بداية الانتداب البريطاني حاول بنحاس روتنبرغ وهو مهندس روسي الاصل ، انتزاع حق الامتياز من المواطن اليوناني ، الا ان الحكومة اليونانية استصدرت قرارا من محكمة العدل الدولية في لاهاى يقر بشرعية امتياز مواطنها ...

ونتيجة لهذا القرار وقع مندوبو الحكومة البريطانية في فلسطين عام ١٩٢٦ مع مفروماتس ، اتفاقية يتنازل بموجبها عن امتيازه العثماني ، مقابل حصوله على امتياز جديد يسمح له بتوليد الطاقة الكهربائية في جزء من القدس ضمن دائرة نصف قطرها ٢٠ كم مركزها قبة كنيسة القيامة .

وبموجب هذه الاتفاقية شكل مافروماتس شركة كهرباء القدس المحدودة تبدأ العمل من الاول من كانون ثاني عام ١٩٢٨ . وحدد امتيازها مدة العمل ٤٤ عاما قابلة للتجديد لمدة ١٦ عاما اخرى .

وبعد عشرين عاما من العمل وقعت الشركة مع حكومة الانتداب اتفاقية جديدة ، تتنازل فيها عن بعض امتيازها في القدس الغربية لصالح شركة كهرباء فلسطين " مشروع روتنبرغ " مقابل تمديد امتيازها حتى الاول من كانون الثاني ١٩٨٨ واطلق على شركة كهرباء فلسطين اسم شركة الكهرباء القطرية الاسرائيلية .

وهكذا اصبحت مدينة القدس تزود بالكهرباء من قبل شركتين احداها اسرائيلية واخرى عربية .

فـي عهد النظـام الاردنـي :

واصلت الشركة تزويد الاحياء العربية بالقدس بالتيار الكهربائي حتى اعيد تسجيلها وفق القوانين الاردنية عام ١٩٥٣ وحملت اسم " شركة كهرباء القدس الاردنية المحدودة الضمان ، وفي عام ١٩٥٦ قامت كل من بلديات القدس ، رام الله ، بيت لحم بيت جالا ، وبيت ساحور ، بتسجيلها كشركة مساهمة محدودة تحمل اسم " شركة كهرباء محافظة القدس الاردنية المساهمة المحدودة " .

وقد حدد ذلك في بند أ من المادة ٣ من عقد التأسيس والنظام الداخلي للشركة .

وفي عام ١٩٦١ وقع اتفاق بين الحكومة الاردنية والشركة شملت خدمات الشركة بموجبه كافة المناطق التي كانت ضمن محافظة القدس حسب التقسيم الاداري الاردني في ذلك الوقت ، وفي

Digitized by Birzeit University Library

الكاتب

عام ١٩٦١ طالبت الشركة بتوسيع امتيازها ليشمل منطقة الخليل ، الا ان الحكومة الاردنية لم تبت في ذلك قبل حرب عام ١٩٦٧ .

في ظل الاحتلال الاسرائيلي :

ساهمت حرب عام ١٩٦٧ في تدمير قسم كبير من شبكات وتجهيزات الشركة العربية ، الا انه بارادة وتصميم العاملين فيها تم اصلاح الشبكات واعادة التيار الكهربائي في فترة قصيرة . وبعد صدور القرار الاسرائيلي بضم القدس في ٢٨ حزيران عام ١٩٦٧ سجلت الشركة تلقائيا كشركة اسرائيلية واصبحت خاضعة للقوانين الاسرائيلية .

وفي آذار عام ٦٨ صادرت السلطات الاسرائيلية اسهم امانة القدس في الشركة البالغة ٨ر٢ في المائة من مجموع الاسهم وفي عام ١٩٧١ عينت عضوين في مجلس الادارة كممثلين لبلدية القدس مما ادى ذلك الى انسحاب ممثلي بلديتي رام الله والبيرة ، وفي عام ١٩٧٢ اضطرت الشركة الى ربط بعض شبكاتها بالشركة القطرية الاسرائيلية من اجل تغطية منطقة امتيازها بالتيار الكهربائي التي اخذت في التوسع .

وفي بداية عام ١٩٦٩ قامت الشركة القطرية الاسرائيلية بتمديد خطوطها لتغذية مناطق رامات شكول ومبيعات همفتار وجزء من منطقة تلبيوت ، ولما كانت هذه المناطق ضمن منطقة الحرام ولم تكن ضمن امتياز الشركة الاسرائيلية بل جزء من امتياز الشركة العربية ، رفعت ادارة الشركة قضية لدى محكمة العدل العليا الاسرائيلية طالبت بضمان حقها في تزويد هذه الاحياء وقد كسبتها وقامت بشراء كافة التجهيزات والخطوط التي تم تركيبها من قبل الشركة القطرية .

وبعد عام ١٩٧٣ ومع تزايد وتائر الاستيطان حول مدينة القدس واضطرار الشركة لتزويدها بالتيار الكهربائي انطلاقا من كون هذه المناطق هي جزء من امتيازها ازداد اعتماد الشركة العربية على الشركة القطرية في شراء التيار الكهربائي لكي تستطيع الايفاء بالتزاماتها تجاه الشركة العربية (الامر الذي سنلقي الضوء عليه في مكان آخر من هذه الدراسة توضيح ابعاده على مسيرة الشركة) .

وقد ترتب على الشركة القيام بانشاءات كبيرة لتزويد هذه المستوطنات ، وقد حقق تنفيذ هذه المشاريع بعض الارباح ساهمت الى حد ما في تغطية الخسارة الناجمة عن التعرفة الجائرة في البيع والشراء ، ومع تقلص هذه المشاريع حتى نهاية السبعينات بدأت تتراكم الديون على الشركة حتى وصلت ذروتها في عام ١٩٧٩ ، حيث حاول مجلس الادارة في ذلك الوقت الخروج من الازمة من خلال بيع (او تأجير) امتياز المستوطنات ، ومن خلال الاستمرار في اضطهاد الطبقة العاملة داخل المؤسسة وعدم إرفع الرواتب المتدنية في تلك الفترة الا ان الاضراب الذي قادته نقابة عمال وموظفي الشركة واستمر اكثر من ٢٠ يوم ، والذي لقي تأييد وتعاطف اوسع الفئات الشعبية والجماهيرية ومؤسساتها وعلى رأسها الاتحاد العام للنقابات ، ساهم في افشال هذه الخطة ، وحمل

Digitized by Birzeit University Library

اللجنة المشتركة (والتي كان يدعي اليأس، فربح بأنه اعطى الضوء الاخضر منها لتنفيذ خطته) على التراجع واستطاع عمال الشركة من تحقيق مجموعة من المكاسب ساهمت في تحسين رواتبهم وظروفهم المعيشية وادت بالتالي الى ازدياد عطائهم وانتاجهم .

العلاقة مع اللجنة المشتركة والنظام الاردني

وفي هذه الفترة بدأت قضية الشركة مع اللجنة المشتركة الاردنية ـ الفلسطينية والتي كان النظام الاردني يلعب الدور الرئيسي فيها، فمقابل تسديد الديون التي بلغت ٤٠ الف دينار وضعت اللجنة مجموعة شروط كان ابرزها تعيين المرحوم انورنسيبة رئيسا لمجلس الادارة واقالة الرئيس السابق والمدير العام للشركة وكذلك تم توقيع اتفاقية تقوم الشركة بموجبها بايصال التيار الكهربائي لاكثر من ١٣٠ قرية عربية في منطقة الامتياز وتقوم اللجنة المشتركة بتمويلها ..

وفي الوقت الذي رأت فيه الاوساط النقابية والوطنية داخل المؤسسة بأن عملية تزويد القوى ستساهم في انعاش الشركة والتخفيف من معاناة ابنا شعبنا في ظل الاحتلال وعاملا من عوامل الصمود رأت اللجنة المشتركة والنظام الاردني في دعم هذه المشاريع وسيلة للسيطرة على هذه الشركة وتسديد الحساب مع الطبقة العاملة ونقابتها ذلك لان اضراب عام ١٩٧٩ كان بمثابة ناقوس الخطر بالنسبة لمواقع البرجوازية الكبيرة في المناطق المحتلة حيث افرز هذا الاضراب نهجين نهج الطبقة العاملة المتمسك بالحقوق الوطنية ونهج البرجوازية المستعد للمساومة مع الاحتلال حفاظاً على مواقعه الطبقية .

ولم يكن صدفة ان يكون برنامج اللجنة المشتركة في السنوات اللاحقة موجها لدعم مواقع البرجوازية الكبيرة واضعاف الطبقة العاملة وحركتها النقابية وقد استخدم الدعم المالي للنقابة كوسيلة لترويضها وجذبها الى فلك السياسة الاردنية (تميزت نقابة عمال وموظفي الشركة عن بقية النقابات وحتى عن الاتحاد العام للنقابات بضخامة المخصصات المالية حيث تلعب في حوالي ٦٥٠٠ دينار سنويا) . ولما فشلت سياسة الجزرة بدأوا باستخدام العصا، حيث اخذ زلم النظام الاردني يحرضون ضد الهيئة الادارية للنقابة وخاصة في انتخابات كانون ثاني سنة ١٩٨٥ الامر الذي تم توضيحه في بيان لكتلة التحالف الديموقراطي العمالية في شهر شباط : ٨٥ بعد الانتخابات، حيث ورد ما يلي :

" لقد جرت هذه الانتخابات في ظروف اتسمت بتصاعد حملات التحريض والتشويه ضد مجموعة من النقابيين ذوي المصداقية نقابيا ووطنيا . وشاركت في هذه الحملة مجموعة قوى يجمعها العداء للنهج الوطني التقدمي للنقابة بهدف تزييف ارادة الطبقة العاملة والانقضاض على مكتسباتها وانجازاتها التي تحققت خلال مسيرتها النضالية .

وقد استخدمت في هذه الحملة مجموعة من الاسلحة القديمة ـ الجديدة كان ابرزها : السلاح

Digitized by Birzeit University Library

المادي واستغلال الدين الحنيف لاغراض غير شريفة بالاضافة الى التشهير الشخصي واستغلال كبار المسؤولين في الشركة لمراكزهم للتأثير على مسار الحملة الانتخابية ، فقد هدد العديد منهم بان انتخاب هيئة ادارية مماثلة للهيئة السابقة سوف يحرم العمال من استلام رواتب الشهر الثالث عشر والرابع عشر وسينقطع الدعم المالي عن الشركة بالاضافة الى تضمين بياناتهم الصفراء والبيضاء الاغراءات والوعود المالية المتعلقة بمشروع الاسكان والتأمين الصحي وتخفيض الضرائب وتأمين التعويضات مستغلين طيبة عمالنا وحرصهم على استمرار مصدر رزقهم .

لقد ارادوا من خلال هذه الحملة اخفاء جوهر الصراع الدائر على الصعيدين السياسي والنقابي ونقل الخلافات والمهاترات الى داخل هذه المؤسسة ، في وقت هي امس الحاجة لترسيخ اوسع وحدة صف وطني لمواجهة مخاطر تهويدها وتصفيتها من قبل الاحتلال .

ولقد رأينا ان الواجب الوطني يحتم علينا توضيح الامور ووضع النقاط على الحروف من خلال هذا البيان حتى لا تضيع الحقائق في خضم المهاترات والاشاعات المغرضة .

لقد كان العامل الاساسي وراء الهجوم على الهيئة الادارية السابقة هو محاولات البعض لتحويل النقابة الى الصف المعادي لحقوق شعبنا الوطنية في العودة وتقرير لمصير واقامة الدولة الوطنية المستقلة ، بالاضافة الى وضع الشركة والصراع مع الاحتلال حول تطورها ومستقبلها . ولقد تبين في الاونة الاخيرة ان من يقود الهيئة الادارية حاليا كان على علم بما يجرى وراء الكواليس من مفاوضات حول امتياز الشركة ضمن معادلة سياسية ، كما ورد في توجيهات وزير شؤون الارض المحتلة الذي اصدر تعليماته بضرورة تغيير الهيئة الادارية السابقة .

فلماذا يتم تصوير الامور وكأن الهيئة الادارية السابقة كانت عائقا امام تدفق اموال الصمود ؟ اليس في هذا خداع وتضليل للعمال ؟ .

- الم يكن المطلوب تفصيل هيئة ادارية مناسبة لما يتناسب مع توجيهات معالي الوزير ؟.
- وبماذا يفسر تدخل البعض من كبار الموظفين ، وبشكل مباشر ، في الحملة الانتخابية ؟.

وخلال فترة ٧٩ ــ ٨٣ ، اخذت اللجنة المشتركة ووزارة شؤون الارض المحتلة تتدخل في الامور الداخلية للشركة وتملي اوامرها بخصوص التوظيفات وبخصوص اولويات تنفيذ مشاريع القرى وقبل تسليم الشركة آخر قسط من المشاريع اشترطت تعيين المدير العام الحالي للشركة . وفي الوقت الذي كان يجرى فيه تنفيذ المشاريع الجديدة سواءا في القرى العربية او المستوطنات والمناطق الصناعية الاسرائيلية كان يزداد الاعتماد على الشركة القطرية في شراء التيار الكهربائي ، ولم يكن في برنامج اللجنة المشتركة مكانا لدعم استقلالية الشركة من خلال توسيع القدرة التوليدية ومرة اخرى ساهمت المبالغ المالية التي استلمتها الشركة مقابل تنفيذ مشاريع اكثر من ١٢٠ قرية في فترة لا تتجاوز الخمس سنوات ، ساهمت في تغطية العجز المالي الناجم عن التعرفة الخاسرة . ومع انتهاء المشاريع تفجرت الازمة من جديد في صيف عام ١٩٨٥ ولكن بصورة مأساوية اكثر منها عام ١٩٧٩ .

Digitized by Birzeit University Library

الوضع الفني وخدمات الشركة والتعرفة

تقدم الشركة حاليا خدماتها لاكثر من ١١٠ الاف مشترك ، ٣٢ ٪ منهم يهود ، يستهلكون حوالي ٥٥ / من مجموع الوحدات المباعة .

واقد اعتمدت الشركة منذ البداية محركات الديزل لتوليد الطاقة الكهربائية والتي تعمل على الوقود الثقيل ، وكانت هذه المحركات اقتصادية في ظل احتياجات محدودة وتوفر صيانة دورية وتحميل مناسب . الا ان زيادة الاستهلاك وعدم سماح السلطات بتجديد المحطة المركزية تسبب في زيادة تحميل هذه المحركات اكبر من طاقتها بحيث اصبح انتاجها يتضاءل .

ففي الوقت الذى كانت فيه القدرة الاسمية للمحطة المركزية ٢١٧٦٠ (ك . ف . أ) فان القدرة الفعلية لم تتجاوز في بداية الثمانينات نسبة الـ ٦٠ / من القدرة الاسمية وذلك بسبب تقادم هذه المحركات

ويوضح الجدول التالي اهم المؤشرات لتطور الشركة الفني ففي حين هناك زيادة سنوية في الاستهلاك بنسبة ١٥ ٪ كانت نسبة مساهمة التوليد من خلال المحطة المركزية في تقلص مستمر حتى انها لم تتجاوز في السنوات الاخيرة نسبة الـ (٢ — ٥ ٪)

السنة	الوحدات المولدة والمشتراه مليون ك وس	الوحدات المولدة مليون ك و س	نسبة الوحدات المولدة والمشتراة ٪	الحمل الاقصى ميغاواط	عدد المشتركين (الف مشترك)
٦٦	٣ ر ٣١	٣ ر ٣١	١٠ ٪		٣١
٦٧	٧ ر ٢٧	٧ ر ٢٧	١٠ ٪		٢٤١ ر ١٩
٦٨	٢ ر ٣٢	٢ ر ٣٢	١٠٠ ٪		١٠٨ ر ٢١
٧٢	٣ ر ٧٥	٣ ر ٧٥	١ /		٣٢ ٠٠٠
٧٣	٣ ر ٩٢	٤٨	٥٢ /		٣٦١ ٧
٧٥	٦ ر ١٢٥	٦٤	٥١ ٪		٤٤٦٠٥
٧٦	٦ ر ١٤٦	٨٦	٥٨ /		٤٨٥٨٩
٨٠	٢٣٥	٨٦	٤ ر ٣٥ ٪	٥٧	٦٦ ر ٠٠٠
٨٤	٣٠ ر ٣٥٥	٤١	٦ ر ١١ ٪	٧٤٧ ر ٧٨	٤٠٢ ر ٩٥
٨٥	٥٣ ر ٣٩٣	٢٩	٧ ٪	١٣٦ ر ٨٨	١٤٩ ر ١٠١
٨٦	١ ر ٤٤٩	١٥	٣ ر ٣ ٪	٥٥ ر ٩٨	١٠٥ ر ٠٠٠
٧ شهور					
٨٧				١٠٦	١١٠ ر ٠٠٠

Digitized by Birzeit University Library

ويلاحظ انه خلال العشر سنوات الاولى بعد الاحتلال تزايد عدد المشتركين بنسبة ١٣٠ ٪ وخلال العشر سنوات الثانية تزايد العدد بنسبة ٢٣٠ ٪ ويعود ذلك الى تزويد القرى العربية ومشاريع الاسكان الاسرائيلي .

ويلاحظ نمو الاحمال بنسبة كبيرة خاصة في السنوات الاخيرة الامر الذي تطلب زيادة طاقة الربط مع الشركة القطرية وتعداد نقاط الربط .

وتشترى الشركة الطاقة الكهربائية من الشركة الاسرائيلية حسب تعرفة مجموعة المستهلكين المحدودين بتجارى عام وهي من الناحية النظرية يجب ان تؤمن ربح بنسبة ٨ ٪ الا ان الواقع العملي يظهر ان هناك خسارة للشركة بنسبة ١٣ ٪ من مبيعاتها ويعود ذلك الى الفقدان في الشبكات والذي يتراوح بين ١٣ – ١٥ ٪ والى الفقدان نتيجة سرقات التيار والى المصاريف الادارية والخسارة الناجمة عن التوليد

ومن هنا جاءت مطالبة ادارة الشركة بتخفيف تعرفة الشرا بنسبة ٢٠ ٪ حتى يتسنى توفير ربح معقول لتغطية النفقات .

واذا ما اخذنا بعين الاعتبار وجود بعض المشتركين الذين يتمتعون بتعرفة مخفضة (مثل مضخات المياه ، معسكرات الجيش، المستوطنات الزراعية) تضطر الشركة لبيعهم بتعرفة اقل بحوالي ١٠ ٪ عما تشترى من الشركة القطرية بدون اى دعم مقابل هذه التخفيضات فان الخسائر تتراكم وتضاف اليها فروقات العملة والفوائد ورسوم المحاكم حتى اصبحت الديون الحالية تتجاوز الـ ٧ ملايين دينار .

وقبل البدء في تحليل عوامل الازمة والقوى المحركة لها لا بد ن العودة الى المحاولات الاسرائيلية ومنذ العام ١٩٨٠ لانهاء امتياز الشركة ودخول الشركة في دوامة القضاء الاسرائيلي :

ففي بداية عام ١٩٨٠ اصدر وزير الطاقة الاسرائيلي في تلك الفترة اسحق موادعي قرارا ينوى بموجبه تصفية الشركة في بداية عام ١٩٨١ ، وحينها اتخذ مجلس الادارة قرارا بالتوجه لمحكمة العدل العليا الاسرائيلية وبعد المداولات وعلى مدى عدة جلسات اتخذت المحكمة قرارا في شباط / ٨١ بشقين الاول بخصوص امتياز منطقة القدس اعطت بموجبه الصلاحية لوزير الطاقة لتحويله الى الشركة القطرية الاسرائيلية ، والثاني بخصوص امتياز الضفة الغربية حيث اعطت الصلاحية للحاكم العكرى لتحديد مصيرة ، ونصح القرار الطرفين بالتفاوض حول الامتياز .

ومنذ تلك الفترة بات واضحا المستقبل الذى ترسمه السلطات الاسرائيلية للشركة، فمن ناحية تم تشديد الرقابة على كافة المشاريع الجديدة التي تنفذها الشركة وخاصة خطوط النقل ، حيث تم وباستمرار تعديل مسار هذه الخطوط بشكل ينسجم مع المخططات الاسرائيلية في هذا المجال اضافة الى تجزئة مناطق الامتياز من خلال تعداد نقاط الربط، حيث تم زيادة نقاط الربط الى اكثر من ٩ نقاط (النبي صموئيل (٢) الثورى ، جيلو (٢) ، مخماس ، مستوطنة هاردار ، مستوطنة افرات

Digitized by Birzeit University Library

اضافة الى المحطة المركزية في شعفاط (٢) ، ويمكن القول ان السلطات الاسرائيلية ومن خلال وزارة الطاقة مهدت لاستيعاب امتياز الشركة الاسرائيلية وذلك من خلال :-

١) الاعتدا على امتيازالشركة في عدة مناطق ابرزها :- رنتيس، اللبن ، افرات ، حوسان ، العوجا ، بيت حنينا ، النبي يعقوب ، هداسا ، النبي صموئيل واخيرا الخان الاحمر .

٢) زيادة نقاط الربط ومحدودية طاقتها كما ورد اعلاه .

٣) منع الشركة من تشغيل المولدات الجديدة التي استوردتها (٥ مولدات) ، ٤ منها ذات قدرة اسمية ٣ ميغاواط لكل واحد والخامس ذات قدرة اسمية ٥ ميغاواط ،اي بقدرة اسمية اجمالية ١٢ ميغاواط، وذلك بهدف اغلاق محطة التوليد المركزية في شعفاط بحجة الطريقة البدائية في التوليد وتلويث البيئة .

٤) مطالبة الشركة بتعيين موظفين اسرائيليين بحجة ايجاد جو من الثقة والتفاهم بين الشركة والمستوطنين ، وقد رفضت النقابة في تلك الفترة ، واضطر مجلس الادارة لعدم القبول به لان الخطورة كما ورد في بيان كتلة التحالف الديموقراطي في اواسط ايار ٨٥) لا تكمن فقط في كونها محاولة لتجريد هذه المؤسسة من هويتها الوطنية وانما ايضا في كونها بداية لكي تجد شركة الكهرباء الاسرائيلية موطئ قدم لها في الشركة تمهيدا للاستيلاء عليها .

والان نعودالى تفجرالازمة في صيف عام ١٩٨٥ ، حيث هددت الشركة القطرية بقطع التيار عن نقاط الربط بسبب تراكم الديون حيث وصلت الى ما يقارب المليون دينار اردني ، وكان واضحا ان هذا التهديد كان بداية مرحلة الضغوطات المالية والقضائية تمهيدا لتصفية الشركة سواءا على مراحل او مرة واحدة .

وفي تلك الفترة توجه وفد من مجلس الادارة لعمان للتباحث مع اللجنة المشتركة في سبل الخروج من ازمة الديون ،وكان المدير العام قد سبق الوفد بارسال تقرير حول وضع الشركة حيث كشف التقرير في الخسارة الشهرية للشركة ٣٥٠،٠٠٠ دينار (سببها الخسارة من التعرفة، الخسارة في التوليد ، فوائد الديون ، رسوم المحاكم ، المصاريف الادارية) .

وعليه تمت مواجهة الوفد بالشروط الاردنية لدعم الشركة لسداد الديون حيث تمثلت في البداية بتقليص النفقات والاصلاحات الادارية (تخفيض الرواتب ٣٠ ٪ ، تخفيض عدد العمال ١٠ ٪ ، الغاء عدد من العلاوات وكذلك راتب الثالث والرابع عشر) ، وقد كانت كتلة التحالف الديموقراطي محقة حينما ذكرت، في بيانها بتاريخ ٨٥/١٢/١٨ ان الوعود التي حملها الوفد كانت مقابل شروط موجهة بالاساس ضد العمال وحقوقهم .

بعد ذلك اخذت السلطات الاسرائيلية تصعد من اجراءاتها ضد الشركة، حيث استصدرت الشركة القطرية الاسرائيلية من المحكمة قرارا بتاريخ ٨٥/١٠/١٧ يلزم كافة البنوك والفنادق والمؤسسات الكبيرة في منطقة القدس بتسديد الفواتير في صندوق المحكمة ،وفي حينه شكلت المبالغ التي حجز عليها حوالي ٧٠ / من مبيعات الشركة للتيار وتكاليف المشاريع التي تسدد بموجب شيكات بنكية . ومن ثم استصدرت قرارات اخرى بالحجز على كافة ممتلكات الشركة وعقاراتها .

Digitized by Birzeit University Library

وفي اوائل عام ٨٦ اوفدت ادارة الشركة مندوبا الى عمان ، كانت نتيجة زيارته ان حمل شروطا تصعيدية تمثلت في :

١) اغلاق المحطة المركزية .
٢) تخفيض رواتب الموظفين الى النصف .
٣) التوقف (التنازل) عن تزويد المستوطنات .
٤) تسريح ٢٠٠ ــ ٢٥٠ عامل .
٥) تمديد الامتياز .
٦) تخفيض التعرفة .

وبعد زيارة اخرى استملت ادارة الشركة كتابا موقعا من وزير شؤون الارض المحتلة في ذلك الوقت طاهر كنعان يؤكد فيه استعداد الحكومة الاردنية المساعدة في الحصول على قروض من البنوك في حالة تخفيض التعرفة وتمديد الامتياز ، وقامت ادارة الشركة بدورها بارسـاله الى وزارة الطاقة الاسرائيلية .

ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة التي تتم فيها المراسلات والاتصالات المباشرة وغير المباشرة بين السلطات الاسرائيلية والاردنية بخصوص قضية الشركة ، فقد كشفت وسائل الاعلام في اوائل عام ٨٦ عن اجتماعات بين ضباط اسرائيليين واردنيين على الجسور لدراسة امكانية تزويد الشركة بالطاقة الكهربائية من الاردن ، وكذلك الوساطات المتكررة التي قامت بها السفارة الامريكية واخيرا تناول قضية شركة الكهرباء من قبل نائب الرئيس الامريكي بوش في زيارته الاخيرة للاردن واسرائيل (قبل حوالي عام) .

وفي شهر ايار / ٨٦ اصدرت المحكمة الاسرائيلية قرارا بالحجز على صندوق الشركة ويقضي بعدم صرف اي مبلغ ولو كان بسيطا الا بعد موافقة مأمور الاجراء ومدير الشركة الاسرائيلية في القدس وكان واضحا بأن وسائل الضغط اخذت توجه الى عمال الشركة ونقابتهم لتيئيسهم وفرض الامر الواقع عليهم . ومع نهاية شهر ايار كانت ادارة الشركة عاجزة عن توفير رواتب العمال مما اضطر النقابة الى اعلان الاضراب لمدة اربعة ايام مما اضطر الشركة القطرية ووزارة الطاقة رفع الحجز والسماح بصرف الرواتب بعد تهديد النقابة بأخذ زمام الامور وجمع الاموال وصرف الرواتب ، وقد كان لهذا الاضراب دورا كبيرا في تصلب موقف النقابة ، الذي طالما سعى محامي الشركة توسيا كوهين ومن خلال محامي النقابة الضغط باتجاه تليينه .

وقد عكس هذا الاضراب قوة الطبقة العاملة وقيادتها النقابية وساهم في توضيح موقف النقابة حيث لخصته في بيانها بتاريخ ٥ حزيران /٨٦، ومما جاء في هذا البيان :

لقد كانت الاربعة ايام الماضية بمثابة تجربة (وان كانت ليست بالجديدة علينا) تستحق الوقوف امامها وتقييمها بايجابياتها وسلبياتها .

كما تعلمون فقدكان اضرابنا نتيجة للاوضاع السيئة التي آلت اليها الشركة والتي كان لها انعكاسا سلبيا على اوضاعنا النفسية واصبحت تشكل خطرا ليس فقد على استلامنا رواتبنا وانما ايضا

Digitized by Birzeit University Library

على مصيرنا وكافة حقوقنا العمالية من استمرارية حقنا في العمل او تعويضاتنا والتي لا ضمانة لها الا في ديمومة عطاء هذه المؤسسة العربية في قلب القدس ـ عاصمة الدولة الفلسطينية العتيدة .

لقد كان تقييم الهيئات الادارية السابقة وعلى مدى الخمس سنوات الماضية بان قضيتنا قضية سياسية في جوهرها تاخذ طابعا اقتصاديا في شكلها ولعل زملاؤنا القدامى الذين عاصروا تطور الشركة يذكرون الظروف العصيبة التي عملوا بها في بداية الاحتلال ، حيث بدأ الاحتلال ومنذ عام ١٩٦٧ يضع العراقيل امامها في محاولة لخنقها وتهويدها نظرا لاهميتها في دعم الاقتصاد الوطني المستقل اولا ولكونها المؤسسة الوحيدة التي تربط القدس بالضفة الغربية ثانيا ولتواجد قاعدة عمالية كبيرة فيها مؤطرة في نقابة عمالية عريقة تمتد جذورها الى اكثر من ثلاثين عام ثالثا . وفي السبعينات استمرت الضغوطات على شركتنا من خلال عدم السماح لها بزيادة قدرتها التوليدية والاعتداء على امتيازها في عدة اماكن وحملها على شراء التيار من الشركة القطرية بشروط جائرة واخضاع كافة انشاءاتها ومخططاتها لموافقة الحكم العسكري ، خاصة في مناطق الضفة الغربية . من هنا فان جذور الازمة موجودة منذ بداية السبعينات ، وللاسف فان مجلس الادارة طوال هذه الفترة لم يكن لديه اي برنامج وقائي لتفادي هذا الوضع المزري ، ، بل على العكس من ذلك كانت لدى بعض الاوساط فيه خطة في عام ١٩٧٩ للخروج من الازمة من خلال بيع جزء من الامتياز ولقد كان لاعتصامكم وتعاضد الجماهير الشعبية معكم آنذاك دورا اساسيا في افشال هذه المحاولة وتحسين الاجور ، وظروف العمل . بعدها بدأ مسلسل العلاقة مع اللجنة المشتركة والاردن ، حيث قامت الشركة باثارة اكثر من ١٣٠ قرية عربية خلال اقل من ٦ سنوات ، الامر الذي تطلب زيادة الطاقم الفني والذي يطالبون الان بتقليصه الى النصف ، وكانت المبالغ التي دفعت هي مقابل هذه المشاريع في حين كانت الاحاديث والاقاويل تدور عن دعم شركة الكهرباء وعن البحبوحة التي يعيشها الموظفون متناسين ان ما وصلنا اليه هو ثمرة نضال النقابة على امتداد اكثر من ٢٥ سنة .

وقد حقق النظام الاردني من ذلك ليس الكسب الاعلامي فحسب وانما ايضا الولاءات السياسية المعادية لشعبنا بمختلف وغيرهم . بعدها اخذت هذه اللجنة تبسط سيطرتها على الشركة وتفرض شروطها والتي اخذت في نهاية المطاف طابعا مكشوفا في معاداته للعمال في محاولة لتحميلهم مسؤولية الوضع الذي آلت اليه الشركة ، وان كنا لسنا بصدد تكرار هذه الشروط ، فهي معروفة لديكم ، الا ان تطابقها مع الشروط الاسرائيلية يجعلنا نؤكد بان هناك صفقة سياسية بخصوص هذه المؤسسة ستكون ضحيتها اذا ما لم نتصدى لها حفاظا على حقوقنا ومكتسباتنا ، ولقد طرحت النقابة ومن خلال قرارات الهيئة العامة البديل الوطني للشروط الاردنية من خلال التمسك بهذه المؤسسة الوطنية ودعمها بدلا من التآمر لتصفيتها والتمسك بحقوق عمالها موظفيها استنادا الى الدعم الجماهيري (الامر الذي لمسناه في اضرابنا الاخيرة ، اننا بالقدر الذي نتمسك فيه بشركتنا بالقدر الذي نرفض فيه تحميلنا مسؤولية تدهور وضع الشركة ، في وقت يتم اعفاء مجلس الادارة وامتداداتهم الطبقية داخل وخارج المناطق المحتلة من مسؤوليتهم الاساسية ، الامر الذي نؤكد ممارساتهم ولا مبالاتهم في الفترة الاخيرة . اننا نعتبر ان معيار الوطنية لاي حل لقضية الشركة هو في المدى الذي يتم من خلاله الحفاظ على عمال الشركة وحقوقهم ، لا معاداتهم .

Digitized by Birzeit University Library

أيها الرملاء ،

لقد اثبتت تجربتنا الكفاحية ان طريق نيل الحق هو في التمسك به والدفاع عنه بصلابة ، فمع ادراكنا للطبيعة السياسية لقضية الشركة ، فان الكثير يعتمد على موقف النقابة وعمالها . فلقد ادركت الهيئة الادارية منذ بداية تضييق الخناق على الشركة ورفض صرف الرواتب ان الهدف من ذلك هوالضغط علينا بهدف تجويعنا ودفعنا للخنوع والاستسلام ، بعبارة اخرى ، لقد ارادوا تحويل ما رفضناه مرارا ، مطلبا عماليا ، وبالتالي يتم تحميلنا مسؤولية ضياع الشركة واعطاء من تآمر وينآمر عليها صك البراءة .

ومن هنا فقد قوتم بوحدتكم وصمودكم والتفافكم حول نقابتكم الفرص على من اراد الاصطياد في المياه العكرة ، فهناك من طرح علينا التوجه الى محكمة العمل ورفع قضية على الشركة لاستلام الرواتب ، وسواءا كان هذا الطرح بحسن النية او بسوئها ، فان نتيجة ذلك ستضعنا في تناقض مع ما اكدنا عليه مرارا بان هذه المو سسة هي لعمالها قبل ان تكون لاى طرف آخر .

بعد ذلك اتبعت السلطات الاسرائيلية اسلوب الاطالة في الاجرا ات القضائية بهدف تشديد الخناق اكثر فاكثر على الشركة وعمالها ، فقد تم تأجيل جلسة محكمة العدل العليا المكرسة للنظر في القضية التي رفعتها الشركة بخصوص التعرفة عدة مرات وكذلك ردت محكمة الاستئناف العليا التماس الشركة بالغا قرارات الحجز في النصف الثاني من شهر حزيران ٨٧ .

وفي ٨٧/٧/٩ صدر قرار عن المحكمة اكد على الحجز على جميع ممتلكات الشركة واموالها .
وفي نفس الفترة قام المدير العام للشركة بزيارة لعمان ، ولم يحمل معه سوى نفس الشروط الاردنية السابقة ، اى عدم الحديث عن دعم الشركة الا بعد تمديد الامتياز في حين كان وزير الطاقة يؤكد عدم استعداده للبحث في قضايا الشركة المتعلقة بالتعرفة والامتياز الا بعد سداد الديون ، بعبارة اخرى اصبحت الشركة بين المطرقة الاسرائيلية والسندان الاردني .
وفي شهر آب ١٩٨٦ طرح رئيس المجلس اقتراحا على وزير الطاقة يقضي بالتنازل عن الامتياز في ٣ مستوطنات اقيمت في المنطقة الواقعة ضمن خط الهدنة (عام ٤٩) ومنطقة الحرام ، وفي حينه ضمنت الهيئة الادارية للنقابة موقفها تجاه هذا الاقتراح والاسس التي استندت اليها في تمديد هذا الموقف في مذكرة بعثت بها لمجلس الادارة في اواخر شهر آب /٨٦ ومن ابرز ما ورد في هذه المذكرة :
خلال فترة الخمس سنوات الاخيرة ترسخت لدى الهيئة العامة والهيئات الادارية للنقابة مجموعة ثوابت كانت بمثابة البوصلة التي توجه تحركاتنا للحفاظ على وطنية هذه المو سسة وبالتالي حقوقنا ومكتسباتنا سواءالحق في العمل اوالتعويضات في ارتباط عضوى .

وهذه الثوابت هي :

١) الحفاظ على عروبة ووطنية هذه المؤسسة .
٢) الحفاظ على وحدة وترابط كافة مناطق الامتياز والتصدىلاى محاولة للانتقاض منها وتجزئتها .
٣) ضمان الحق في العمل لكافة العمال والموظفيـن .

Digitized by Birzeit University Library

٤) عدم تقليص الرواتب او اى من المكتسبات العمالية .

٥) استمرارية توليد الطاقة الكهربائية باعتبارها الاساس والرمز لبقاء الشركة وتطورهـا .

٦) رفض اى نوع من المشاركة مع الاسرائيليين سواء في الادارة او التوظيف .

ومن هذا المنطلق ،فاننا لا نرى فيما طرحه السيد رئيس مجلس الادارة حول استعداده للتنازل عن مناطق امتياز المستوطنات الواقعة ضمن خط الهدنة ومنطقة الحرام وتركيب عدادات مركزية لمستوطنات " شرفات "و" النبي يعقوب" مقابل الغاء الديون وتخفيض التعرفة ، وتمديد الامتياز لا نرى في ذلك انسجاما مع الثوابت التي حكمت تحركاتنا ومواقفنا المشتركة ، ان هذا الموقف تدعمه مجموعة حقائق اهمها :

١) ان لهذه الخطوة ابعادا سياسية خطيرة تعطي المصداقية للواقع الذى يريد الاحتلال فرضه ، وخاصة شرعية المستوطنات وضم القدس .

٢) ان القبول بمبدأ التنازل عن الجزء سيفتح شهيته الطرف الاخر لانتزاز المزيد من التنازلات ، سواء بخصوص مناطق الامتياز او بخصوص استقلالية وتطور الشركة ، ويؤكد ذلك عدم قبوله ببعض المستوطنات ومطالبته بها جميعا ، وجاءت عملية الاقتحام الاخيرة كأداة ضغط في هذا الاتجاه. وهناك في تاريخ القضية الفلسطينية من الوقائع العملية ما يؤكد عدم وجود حد لاطماع المحتلين ، وتجدر الاشارة الى ان تزويد شركتنا لهذه المستوطنات بالتيار الكهربائي ، جاء بعد رفع قضية من قبل الشركة عام ١٩٧٠ ضد وزير الدفاع الاسرائيلي في ذلك الوقت حيث كان الحكم لصالحها (اى الشركة) .

٣) ان تركيب عدادات رئيسية لمستوطنات " شرفات " و"النبي يعقوب" سيؤدى لنفس نتيجة التنازل عنها للشركة القطرية لعدة اسباب اهمها :

أ) سيؤدى لذلك الى تجزئة الامتياز وعدم استطاعة الشركة الاستفادة من الانشاءات والتجهيزات القائمة فيها وخاصة في عملية التحويلات لضمان مرونة واستقرار/ الشبكة .

ب) سيحرم الشركة القيام بمشاريع التمديدات المربحة .

ج) ان ضخامة هذه المستوطنات والتي تعتبر مدن ، تتطلب جهة لها الخبرة والامكانيات لتأمين عمليات الصيانة والطوارئ والجباية وهذا بالطبع وحسب القانون الاسرائيلي سيفتح الطريق امام الشركة القطرية للقيام بهذه المهام ، الامر الذى يضفي خطورة اضافية خاصة وان للشركة القطرية خطوط ضغط عالي تمر بالقرب من هاتين المستوطنتين ،ومن الممكن في هذه الحالة ربطها على هذه الخطوط كما حدث في مستشفى هداسا .

٤) ان تقليص منطقة الامتياز وعدد المشتركين سيؤدى الى تقليص جهاز العاملين بنفس النسبة ، وهذا ما لا يمكن القبول به .

وهنا قد يطرح تساؤل عن البديل للخروج من الازمة ؟ ان الاجابة على هذا التساؤل تنبع من طبيعة الازمة وسيباتها ، وكونها جزء من القضية الوطنية ، وهنا نتساءل : ماذا سيحصل لقضيتنا الوطنية فيما لو تم تعميم هذا الاسلوب على كافة المؤسسة الوطنية ؟ بعبارة اخرى ، فاننا لا نرى من بديل سوى البديل الوطني الكفاحي .

وفي تصعيد خطير داهمت قوات كبيرة من الشرطة وحرس الحدود مكاتب الشركة الرئيسية

Digitized by Birzeit University Library

بتاريخ ٨٦/٨/١٩ (اثناء عطلة عيد الاضحى) مستغلين غياب معظم العمال والموظفين ، ورغم احتجاج ادارة الشركة على عدم قانونية هذا الاجراء ، قاموا باقتحام المكاتب وتفتيشها والعبث بها على مدى اربع ساعات واستولوا على مجموعة من الملفات وكسروا خزنة الشركة ، وقد دعت النقابة الى الاضراب في اليوم التالي استنكارا لهذه الخطوة ، وربطت بينها وبين المفاوضات التي كانت دائرة حول الامتياز بين مجلس الادارة ووزارة الطاقة في محاولة لابتزاز التنازلات بخصوص امتياز المستوطنات (بيان النقابة ٨٧/٨/١١) .

وفي تلك الفترة ايضا رفعت الشركة القطرية قضية امام محكمة الصلح ضد رئيس المجلس والمدير العام والمحاسب العام وأمين الصندوق بسبب تصرفهم بالاموال وصرف الرواتب دون اذن مسبق من الشركة القطرية وطالبتهم بدفع غرامة بقيمة ٦٠٠ الف دينار ، وكان واضحا أن هذه القضية لم تكن سوى اداة ضغط اضافية بنفس اتجاه الادوات السابقة .

وبتاريخ ٨٦/١١/٥ عقدت المحكمة العليا الاسرائيلية جلسة للنظر في الدعوى التي رفعتها الشركة سابقا ضد وزارة الطاقة والشركة الاسرائيلية بخصوص موضوع التعرفة .

وبعد مداولات استمرت اكثر من ٤ ساعات كانت صيغة القرار على النحو التالي :

" اذا تصرفت الشركة العربية بتنفيذ خطة نجاعة في الادارة او اقترحت خطة نجاعة في مجال التوليد الذاتي وتقليص العمال وما شابه من عمليات النجاعة بعد / ذلك تقدم طلبا لوزير الطاقة طالبة مساعدته لها سواء بتغيير تعرفة البيع او الشراء او تقديم دعم مباشر او غير مباشر لها يدرس الوزير معنى النجاعة حسبما نفذت او خطط لها ثم يبت في الموضوع وفقا للمعطيات الدقيقة الصادقة التي امامـــه " .

وفي تلك الفترة (تشرين ثاني ٨٦) حدثت مجموعة تغيرات على مجلس الادارة فبعد تعيين لجان بلدية لكل من رام الله والبيرة ، استبدل الاعضاء المنتخبين باعضاء من هذه اللجان المعينة ، وتوفي انور نسيبة ، وبدأت ملامح توجهات مجلس الادارة تبدو اكثر وضوحا وتتوجت بالتوقيع على الاتفاق المبدئي مع وزارة الطاقة بتاريخ ٨٦/١٢/١٩ والذي نص على التنازل عن امتياز المستوطنات مقابل تمديد الامتياز لمدة عشر سنوات وشطب الديون وعدا بدراسة الطلبات المالية لمجلس الادارة والتعرفة وقد صور رئيس المجلس هذا الاتفاق بانه ينسجم مع مصلحة المواطنين العرب وانه يهدف الى تعريب الشركة . وقد ردت نقابة عمال الشركة على الاتفاق بعقد اجتماع لجميع عمال الشركة صباح يوم ٨٧/١٢/٢٠ تبلور عنه موقف الهيئة العامة في البيان الذي عكسته الهيئة الادارية للنقابة في نفس اليوم وورد فيه ما يلي :

// طالعتنا وسائل الاعلام بأخبار الاتفاق المبدئي بين وزير الطاقة الاسرائيلي وممثلي مجلس ادارة الشركة بخصوص التنازل عن امتياز المستوطنات مقابل تمديد الامتياز عشر سنوات ، دون تحديد كيفية التخلص من الديون ومستقبل المحطة المركزية ، وبغض النظر عن التناقضات في تصريحات الطرفين ، فان الامر الثابت هو استعداد مجلس الادارة للتفريط بسيادة الشركة على مناطق امتيازها ان الهيئة الادارية للنقابة واذ تستنكر هذه الخطوة التي جاءت في تناقض مع الموقف الوطني

Digitized by Birzeit University Library

الكاتب

الذى طالما تم التأكيد عليه ، فانها ترى خطورتها ايضا في انعكاس ذلك على مصيرالعمال وحقوقهم وخاصة الحق في العمل .

فمن المعروف ان هذه التنازلات كانت تطرح في السابق على شكل شروط تضعها الادارة لانقاذ الشركة ، وفي حينها تم رفضها من قبل الهيئة العام بعد هذه الفترة بدأت سياسة الضغط والتيأيس على عمال الشركة وموظفيها لايصالهم الى مرحلة القبول بهذه التنازلات والتفريط بحقوقهم .

ان صيغة الاتفاق المذكور اعلاه تؤكد ما اكدت نقابتنا عليه مرارا بان ما يحاك ضد الشركة من مؤامرات هو جزء من المساومات السياسية بين الاردن واسرائيل في اطار ما يسمى بمشروع " التقاسم الوظيفي " .

وها نحن الان امام شعار " تحسين شروط المعيشة "في التطبيق العملي فالمطروح تسريح اكثر من ٢٥٠ عامل في ظروف اقتصادية صعبة تزداد سوءا يوما بعد يوم ، قد يقال بان ادارة الشركة تنوى تعويض كافة العمال والموظفين ، ونحن بدورنا نتساءل ماذا يمكن ان تجدى التعويضات اذا كان حوالي اكثر من نصف الموظفين تقل تعويضاتهم عن ٢٠٠٠ دينار للواحد (١٧٠ منهم تقل عن ١١ دينـار) .

ان الهيئة الادارية للنقابة تؤكد على مواقفها السابقة الرافضة لاى تنازل عن وحدة امتياز الشركة وبقاء كافة عمالها وموظفيها على رأس عملهم ، وهي في هذا الموقف تستند الى الامور التالية :-

١) ان شركة كهربا القدس مؤسسة وطنية ، مسؤولية اتخاذ القرار بخصوص مصيرها ليست من حق ادارتها لوحدها وانما من حق كافة القوى الوطنية الفلسطينية .

٢) بعد عام ١٩٦٧ لم يتم اى انتخاب لمجلس ادارة الشركة ، وكان هذا المجلس يستمد شرعيته من المصداقية الوطنية في اطار حفاظة على هذه المؤسسة وعمالها ، اما في حالة تقديم التنازلات فانه يفقد شرعيته ، ومن حقنا المطالبة بعقد الهيئة العامة للشركة ، وبو كد ذلك التركيبة الحالية للمجلس ، اذ كيف من الممكن الحفاظ على مؤسسة وطنية ، يضم مجلس ادارتها ممثلين لبلديات معينة فضلوا مصالحهم الذاتية على مصلحة شعبهم ووطنهم .

٣) ان موافقة وزارة الطاقة الاسرائيلية على تمديد الامتياز يعني اقرارا بان رفضها سابقا لهذه القضية كان بهدف الضغط للحصول على هذا الثمن السياسي وهو الحصول على امتياز مناطق المستوطنات .

٤) ان اللجوء للسلطات الاسرائيلية بطلب تمديد الامتياز سواءا لعشرات سنوات او حتى حل القضية الفلسطينية يعني ان مجلس الادارة قد تخلى عن مواقفة السابقة التي طالما اكدها المرحوم انور نسيبة حول ان الامتياز حق سيادى لا يمكن استجداوءه من سلطة غير شرعية

٥) ان اعطاء الحق للشركة القطرية بتزويد المستوطنات في منطقة الامتياز يعني تمهيد الطريق لسلطات الاحتلال بمصادرة مساحات واسعة من الاراضي ومنع البناء عليها . وشق الطرق بحجة مستلزمات التزويد بالطاقة الكهربائية وما يتطلبه ذلك من وسائل الوقاية .

٦) واذا كان رفضنا في السابق (ومعنا مجلس الادارة) لمحاولات فصل امتياز منطقة القدس عن

Digitized by Birzeit University Library

الضفة الغربية ينطلق من عدم اعطاء المصادقية والشرعية لواقع ضم القدس، فان ادارة الشركة بموافقتها على التنازل عن تزويد المستوطنات في الضفة الغربية، تكون قد سبقت سلطات الاحتلال في سعيها لضم الضفة الغربية لاسرائيل من خلال فسح المجال لخلق الارضية والمقدمات الاقتصادية لهذا الضم .

٧) ان سلخ المستوطنات عن امتياز الشركة، وعدم اشارة مصادر وزارة الطاقة الى كيفية ضمان عدم خسارة الشركة مستقبلا يجعلنا نجزم بان الخروج من هذه القضية سيتم على حساب الجماهير الشعبية من خلال السماح برفع اسعار البيع وبنسبة عالية ،وليست من خلال تخفيض التعرفة، وبالتالي يتم اعفاء السلطات المحتلة من تكاليف دعم الحفاظ على سقف معين للتعرفة .

٨) ان الموافقة على التنازل عن جزء من امتياز الشركة تعني الموافقة على تسريح اكثر من ٢٥٠ عامل وهذا ما لا نملك الحق به ذلك لاننا انتخبنا للحفاظ على العمال واستمرارية عملهم وحقوقهم لا لتسريحهـــم .

٩) ان هذا الاتفاق يعفي السلطات المحتلة من مسؤولياتهم عن مسببات ازمة الشركة، والتي تمثلت في منع الشركة من توسيع قدرتها التوليدية وخرق منطقة الامتياز والاعتداء عليها اضافة الى فرض التعرفة الخاسرة في الشراء

ويعزز ذلك ما صرح به وزير الطاقة الاسرائيلي شاحال بان المفاوضات بين الوزارة وادارة الشركة منال للتفاهم والتعايش بين الشعبين، فاي تعايش يتم بين القوى والضعيف ؟ بين المعتدى والضحية ؟ وهل نسينا ممارسات الاذلال والتبعية التي مورست على مدار العام الماضي بحق لشركة ؟ هل نسينا اقتحام قوات الشرطة وحرس الحدود لمكاتب الشركة وخلع خزنتها .

تساؤل اخر يطرح نفسه، هل يضمن الاتفاق شفاء الشركة من ازماتها ؟ وهل يضمن عدم تكرار الازمة بصورة اكثر مأساوية ؟ وهل يضمن الاستقلالية الاقتصادية للشركة عن الشركة القطرية ؟ .

لقد كان هناك اجماع على ان السبب الرئيسي لازمة الشركة هو عدم مقدرتها على توليد الطاقة التي توزعها ، فهل سيتم السماح للشركة ببناء محطة توليد جديدة ؟ في اعتقادنا ان الاسرائيليين ينظرون لهذا الاتفاق كخطوة ليست على طريق معافاة الشركة وانما على طريق تصفيتها

فمن يرى حل ازمة الديون عن طريق بيع ٣٠ بالمئة من الامتياز ، فبالتأكيد سيضطر مستقبلا لبيع الجزء الباقي في حالة وقوعه بازمة مالية، وهذا مايخطط الاحتلال لجعله مصيرا لكافة مؤسساتنا الوطنية، وهل من المعقول ان يفسح المجال لتطور الشركة بعد اعاقة تقدمها على مدى عشرين عاما .

وقد استقطب موقف النقابة تأييد مختلف المؤسسات والشخصيات الوطنية، وقد برز ذلك واضحا في حفل تأبين المرحوم انور نسيبة بمناسبة مرور ٤٠ يوم على وفاته في بداية كانون ثاني / ٨٧ ،حيث اجمع المتحدثون والبرقيات التي وصلت حفل التأبين على ضرورة التمسك بعروبة ووحدة امتياز الشركة .

وفي نفس الفترة سافر وفد مجلس الادارة الى عمان لاخذ المصادقية من الحكومة الاردنية، الا

Digitized by Birzeit University Library

ان المفاجأة كانت بالنسبة لهم في رفض رئيس الوزراء الاردني لهذه الخطوة ومطالبته لهم بعدم التنازل مع ان النظام الاردني في الفترة السابقة دفع ادارة الشركة بهذا الاتجاه ، وبعد عودة الوفد من عمان ، قرر المجلس التراجع عن هذا الاتفاق ووجه رسالة بهذا المضمون لوزير الطاقة .

وبعد هذه المرحلة دخلت قضية الشركة مرحلة جديدة من الضغوطات الاسرائيلية على ادارة الشركة وعمالها فبتاريخ ٨٧/٣/١٨ - اتخذ المجلس الوزارى المصغر قرارا بعدم تمديد امتياز الشركة بعد ٨٨/١/١، وعلى ضوءه تم توجيه كتاب لادارة الشركة من قبل وزير الطاقة يبلغها بالقرار ويطالبها بتشكيل لجنة منها لتسليمه كافة ممتلكات الشركة غير المحجوز عليها حتى نهاية شهر ايار : ٨٧.

وفي حينه اكد رئيس المجلس للهيئة الادارية للنقابة بانه يرفض هذا القرار ولن يشكل اللجنة وسيبعث برسالة بهذا المضمون للوزير وسيصدر بيانا للرأى العام ،ولكن شيئا من هذا القبيل لم يحدث ، وبدأت مرحلة جديدة من المفاوضات من خلال المحامي توسيا كوهين ، حيث طرحت صيغة لاخراج الاتفاق على صيغة اجرا اسرائيلي من طرف واحد مقابل سكوت مجلس الادارة والنقابة وعدم احتجاجهم على ذلك واستمراريتهم بامتياز يقتصر على المناطق العربية فقط، وفي حينه اوضحت الهيئة الادارية موقفها من خلال بيانها الصادر بتاريخ ٢٥ /٣ / ٨٧ والذى ورد فيه :-

تدور حاليا في اروقة شركة كهرباء القدس نقاشات حول كيفية الخروج من الازمة التي تمر بها هذه المؤسسة ، فالخيارات المطروحة، يجمعها قاسم مشترك يتمثل في الانتقاص من الامتياز وتقليص عدد العاملين وحقوق الباقين منهم ، فمن جهة تحاول اسلطات الاسرائيلية تنفيذ مخططا بموافقة الاطراف المعنية داخل الشركة (الادارة والنقابة) من خلال طرح الموضوع امام مجلس الادارة على الشكل التالي : هل هناك امكانية للموافقة على الاجراء الاسرائيلي والاستمرار في ادارة ما تبقى من الشركة بظروف تضمن تحسين التعرفة وتجديد الامتياز ؟ وفي حالة الرفض فان النتيجة ستكون الاستيلاء الكامل على الشركة ! بعبارة اخرى هل ترغب ادارة الشركة في ربط حبل المشنقة حول عنقها بنفسها ،ام ستقوم السلطات الاسرائيلية بهذه المهمة نيابة عنها ؟ .

ان هذا الطرح يهدف من ضمن ما يهدف اليه الى زعزعة ثقة العمال بمواقفهم المتمسكة بحقوقهم وبالتالي زرع الروح الفردية والذاتية لديهم وتفتيت وحدتهم .

ان الامر الثابت هو ان اى صيغة سيتم من خلالها تقليص امتياز الشركة سينجم عنها تقليص ما لا يقل عن ٢٠٠ عامل وموظف واذا كان هذا يجسد البعد العمالي للقضية فان البعد الوطني واضح وتم التطرق اليه مرارا ويتمثل في ترسيخ واقع سياسي يكرس شرعية الضم والالحاق ، ويقر واقع ضم القدس . بعبارة اخرى فانهم يحاولون الضغط على النقابة لانتزاع تنازل وطني ونقابي لتمرير الحل الاسرائيلي .

اننا لا نرى اى انفصال بين البعد الوطني والعمالي لقضية الشركة فاى محاولة للفصل بينهما ستؤدى حتما الى استنتاجات لها اثارها السلبية على مستقبل المؤسسة ومصير عمالها ومن هذا المنطلق اكدت الهيئة الادارية لرئيس المجلس موقفها الرافض لاى صيغة ستكون نتيجتها المساس بوضع الامتياز و (عروبة الشركة) ومصير العمال والموظفين ، ودعته (اى رئيس المجلس) الى الاستمرار في موقفه الرافض للاجراءات الاسرائيلية لانه لا خيار امام الادارة والنقابة

Digitized by Birzeit University Library

سوى التمسك بالحق لا المساومة عليه ، لانه لا يوجد حل وسط بين التمسك بالحق ومحاولات اغتصابه .

واذا كان البعض يسترشد بشعار " انقاذ ما يمكن انقاذه" ويطالب بالتخلي عن الجزء في سبيل المحافظة على ما سيتبقي فان مجرد كون هذا الشعار قد اثبت افلاسه على صعيد القضية الوطنية ككل متكامل فانه بالتأكيد سيؤدي الى افلاسه وفشله على صعيد الجزء (اي الشركة) ، فالتنازل عن " الجزء " سيقود الى التنازل تدريجيا عن الجزء المتبقي ، فاعطاء المصداقية لانتزاع امتياز المستوطنات القائمة سيشكل سابقة لانتزاع امتياز ما سيتم مصادرته من الاراضي واقامة مستوطنات جديدة عليها .

ومن هنا فان محاولات البعض ممن يسترشدون بهذا الشعار لاظهار التخاذل " بطولة وطنية" لتمرير المؤامرة لن تلقى التجاوب من قبل كافة القوى الوطنية والشرفاء من ابناء شعبنا .

ولتشديد الخناق على الشركة نشرت الصحف الاسرائيلية اعلانات موقعة من دائرة الاجراء في القدس وبناء على طلب من الشركة القطرية الاسرائيلية طرحت من خلا لها للبيع بالمزاد العلني مكاتب الشركة الرئيسية والاراضي المقامة عليها المحطة المركزية في شعفاط، وقد حذرت الهيئة الادارية للنقابة من خطورة هذه القضية وابعادها من خلال بيانها الصادر بتاريخ ٨٧/٥:٢٤ والذي ورد فيه :-

ان حرصنا على مصير شركتنا وطابعها العربي ومضمونها الوطني وعلى مصير حقوقنا العمالية وعلى رأسها التعويضات يجعلنا نجزم بان هذه الخطوة على غاية من الخطورة تستوجب منا مواجهتها بمستوى عال من المسؤولية بعيدا عن اشاعات المغرضين ومحاولاتهم التقليل منها والايحاء بن بأن كل شيء مرتب ومتفق عليه وحقوق العمال مضمونة وليست بحاجة الى اي تصدي ومواجهة، اننا ومن موقف المسؤولية نود الاشارة الى انه وبسبب ظروف الشركة الحرجة فانه لا ضمان للحفاظ. على حقنا وتأمين تعويضاتنا الا في تكاتفنا وتضالنا المثابر للحفاظ عليها ومصدرها (الشركة) . لقد طرح علينا مؤخرا من قبل ادارة الشركة (وهذه ليست المرة الاولى) ان نقوم برفع قضية على الشركة على اعتبار ان لنا تعويضات توازي قيمة العقارات المنوي طرحها للبيع بالمزاد العلني ، واخذت هذه الفكرة تتناقل بين بعض الموظفين في محاولة للضغط على النقابة للاقدام على هذه الخطوة .

لقد اكدت النقابة ومنذ اكثر من عام بانها لن تلجأ الى رفع قضية على الشركة لمجموعة اعتبارات ليس اقلها اهمية ان النتيجة ستكون تصفية الشركة ، وبالتالي يتم تحميل المسؤولية للنقابة والعمال واعطاء صك البراءة لبعض الاوساط المعنية بالتنازل عن امتياز المستوطنات اضافة الى انه في الحالة التي نحن بصددها (بيع العقارات) فان رفع القضية اذا ما افترضنا حسن النية لدى مقترحيها لن يوقف البيع بل يعجل فيه وربما يعجل في بيع ما تبقى من عقارات ، لقد توصلنا الى هذه الاستنتاجات بعد دراسة الموضوع مع محامي النقابة، وتجدر الاشارة الى ان اقتراح رفع القضية جاء من قبل محامي الشركة توسيا كوهين والذي كان يعرف منذ ٨٧/٤/١٧ عن طرح العقارات للبيع في المزاد العلني الامر الذي تأكدنا منه من دائرة الاجراء حيث اطلعنا على توقيعه على الامر وهنا يطرح تساؤل لماذا لم يقم بتخبير مجلس الادارة بهذا الامر في حينه ، حيث اننا

Digitized by Birzeit University Library

علمنا به بالصدفة وبتاريخ ١٩٠٥ من خلال الصحف الاسرائيلية. لقد تسربت اخبار بأن اتفاقا قد تم التوصل اليه من خلال المحامي مفاده سلخ امتياز المستوطنات مقابل استمرار الشركة في باقي المناطق بعدتقليص اكثر من ٢٥٠ عامل وموظف وتقليص رواتب الباقين " ان هذا كله يجعلنا نخرج باستنتاج بأن هذا الاجراء جزء من سيناريو تنفيذ الاتفاق وتبرئة موقعيه فيما لو اقدمت النقابة على رفض قضية على الشركة .

واننا نأمل من مجلس الادارة الخروج بالاستنتاجات السليمة بخصوص تصرفات المحامي وعدم الخوض في هذه اللعبة والتحرك سريعا من اجل احباط ما يحاك ضد الشركة . ومن جانبنا فقد اتصلنا بدائرة الاوقاف الاسلامية واطلعناها على خطورة البيع وطالبنا الادارة بارسال كتاب رسمي للاوقاف بهذا الخصوص، اضافة الى قيامنا بالتغطية الاعلامية لهذا التطور ".

ويؤكد استنتاجات الهيئةالادارية بأن هذه الخطوة جاءت في اطار الضغط على الشركة ان محامي الشركة استطاع تأجيل العرض للبيع اكثر من مرة ولمدة شهر مقابل ابداء حسن النيةمن قبل مجلس الادارة تجاه وزارة الطاقة بالبدأ في تسليم امتياز المستوطنات وتشكيل لجنة فنية مهمتها وكما اعلن جرد الموجودات في المستوطنات . وقد حذرت الهيئة الادارية للنقابة من هذه الخطوة وبينت ان مهمة اللجنة الفنية لا تختلف عن مهمة اللجنة التي طالب الوزير بتشكيلها في شهر آذار / ٨٧ والتي كان من المفروض انهاء مهامها قبل نهاية شهر ايار . وقد اصدرت الهيئة الادارية بيانا بتاريخ ٨٧/٦/٩ . جاء فيه بان ازمة الشركة قد دخلت مرحلة جديدة خرج فيها مجلس الادارة عما كان يؤكدعليه مرارا من مواقف حول وقوفه جنبا الى جنب مع النقابة في خندق الدفاع عن عروبة الشركة وهويتها الوطنية .

لقد انطلقت الهيئة الادارية للنقابة في تحديد موقفها الرافض لهذه الخطوة الخطيرة من كونها تناقض المصالح الوطنية والعمالية للعمال والموظفين الذين تمثلهم ، اضافة الى كونها تشكل تنازلا مجانيا بدون مقابل وحتى بدون اى ضمانات لتحقيق ما يروج له من مطالب تشمل تمديد الامتياز وتخفيض التعرفة والمبالغ اللازمة لتعويضات الموظفين ".

ان الموافقة على التنازل عنامتياز المستوطنات (او التوقف عن انارتها) يعنيفتح المجال امام السلطات المحتلة لتزويد المستوطنات الجديدة بالتيار الكهربائي وما يعنيه ذلك من اضافات كمية على صعيد مصادرة الاراضي وخنق البناء والتوسع العربي عدا عن كونه يجسد اعترافا بالسيادة الاسرائيلية عليها ، هذا على الصعيد الوطني ".

اما على الصعيد العمالي فان ما طرح على النقابةهو انه في حالة استجابة الجانب الاسرائيلي لمطالبمجلس الادارة فان الخطوة التالية هي البدء وبالتنسيق مع النقابة بتسريح ما يزيد عن ٢٥٠ عامل وموظف ، وهذا ما رفضته وترفضه الهيئة الادارية للنقابة، اذ انهاوكممثلة للعمال والموظفين مهمتها الحفاظ على مصدر رزقهم لا تسريحهم ".

وبناءا على ماتقدم وجهت الهيئة الادارية للنقابة كتابا الى رئيس مجلس الادارة ضمنته رفضها القاطع لهذه الخطوة الخطيرة وكذلك وجهت كتبا الى المهندسين اعضاء اللجنة الفنية التي تم تشكيلها تحتحجة جرد موجودات الشركة في المستوطنات ، وطلبت منهم عدم المشاركة في اى لجان

Digitized by Birzeit University Library

هدفها تسليم امتياز المستوطنات ،وعليهم الالتزام بقرارات الهيئة العامة للنقابة التي ترفض المشاركة في اى نوع من اللجان من شأنها ابداء التعاون في تسليم امتياز الشركة او جزء منه .

وبتاريخ ١٠ /٦/ ٨٧ بادر وزير الطاقة الاسرائيلي بتقديم اقتراح لرئيس الحكومة الاسرائيلية يقضي بتوزيع امتياز المستوطنات والاحياء اليهودية في منطقة القدس بين الشركة الاسرائيلية والشركة العربية مقابل خصم قسط من ديون الشركة وتمديد الامتياز لمدة عشرسنوات ، واستعداد وزارة المالية الاسرائيلية لتمويل تعويضات المستخدمين الذين سيتم فصلهم من الشركة العربية .

وقد دعت الهيئة الادارية جمع العمال والموظفين الى الاضراب صباح يوم ٦/١١ احتجاجا واستنكارا لهذا المشروع ، وقد تلا امين سر النقابة امام العمال بيانا وضح من خلاله موقف الهيئة الادرية للنقابة ورد على اتهامات رئيس المجلس لبعض الاوساط في النقابة" (ومن خلال الصحف) بمعرفتهم المسبقة ومواقفهم على هذا المشروع ، وقد ورد في البيان :

واذا ما اخذنا بعين الاعتبار تصريحات رئيس مجلس الادارة في الصحف يوم امس (٨٧/٦/١٠) فان خطوة وزير الطاقة جاءت لتؤكد الاتفاق مع مجلس الادارة على سلخ امتياز المستوطنات وخوفا من تراجع المجلس كما حصل في المرة السابقة (شهر ١٢/ ٨٦) وهذا بدوره يؤكد موقفنا تجاه خطوة المجلس بتعيين اللجنة النفية تجاوبا مع طلب وزارة الطاقة لوضع الترتيبات العملية لسلخ امتياز المستوطنات .

سواء كانت هذه الخطوة بالاتفاق مع المجلس او بدونه فانها تأتي في اطار مخططات الاحتلال لتصفية كافة المؤسسات الوطنية لتكريس واقع الاحتلال والضم. والاسباب الحقيقية لهذه الخطوة تكمن في كون هذه المؤسسة تقدم خدمات لجماهير شعبنا في القدس والضفة الغربية وتضم تجمعا عماليا كبيرا ، ومعلما بارزا من معالم مدينة القدس اضافة لكونها قاعدة للاقتصاد الوطني المستقل ، ولم يكن التذرع بالوضع المالي المتأزم الذى تتحمل السلطات الاسرائيلية مسؤوليته الاساسية سوى لاخفاء الاسباب والدوافع السياسية من وراء هذه الخطوة .

ولم تكن نرغب في ان تصل قضية شركتنا الى هذه الدرجة من الخطورة ونحن ومجلس الادارة على طرفي نقيض، فقد بذلنا جهدا كبيرا وتحلينا بنفس طويل في محاولاتنا ثني المجلس عن توجهه . وهذا ما تؤكده مذكراتنا ومراسلاتنا المتتالية مع مجلس الادارة ، عدا عن لقاءاتنا المباشرة والحوار الذى كان يعكس من جانبنا موقفا واضحا وصريحا بخصوص قضية الشركة ، الامر الذى تجاهلته تصريحات السيد حنا ناصر رئيس المجلس حول اطلاعنا على ما يجرى وموافقتنا عليه ، والتي تشكل خروجا عن الموضوعية التي طالبنا بالتحلي بها ولايتوخى فيها الحقائق . وسنترك الحكم لطبقتنا العاملة ولجماهير شعبنا على صدق مواقف وممارسات النقابة ومجلس الادارة .

والحقيقة الاساسية التي لم يتسطع رئيس المجلس انكارها هو استعداده للتخلي عن امتياز المستوطنات واصراره على تنفيذ خطة التقليصات تجاه العمال وحقوقهم ، وتحت حجة الحفاظ على عروبة الشركة وتقديم خدمات لنصف مليون عربي ، فهل تكون الخدمات على حساب التنازل عن الحق السيادى ؟ وهل يمكن تجزئة هذا الحق السيادى ؟ وهل يمكن ان تكون هذه الخدمات على حساب مصير ٤٥٠ عائلة تشكل هذه المؤسسة مصدر رزقها .

Digitized by Birzeit University Library

حقيقة اخرى لا يستطيع رئيس المجلس انكارها هو انه كان يخفي طبيعة الخطوات التي يتم الاتفاق عليها مع وزارة الطاقة من خلال المحامي ليس فقط عن الهيئة الادارية للنقابة وانما ايضا عن مجلس الادارة الامر الذي دفع عضوين من المجلس الى تجميد عضويتهم . وفي نفس الفترة قرر المجلس رفع المخصصات المالية للاعضاء بدل حضور الجلسات الى ثلاثين دينارا وباثر رجعي ، الا يتناقض هذا مع المقولة التي تساق دائما عند مطالبتنا بحقوقنا حول الوضع المالي الصعب الذي تمر به الشركة ؟ انه يعكس مستوى المسؤولية التي يتحلى بها المجلس عند اتخاذ قراراته ..

وكيف يفسر رئيس المجلس حقيقة معرفة المحامي المسبقة بقرار عرض عقارات الشركة للبيع بالمزاد العلني قبل نشر الصحافة بحوالي شهر ، فلماذا يتم خلط الامور وتلفيق الاتهامات لما اسماه باوساط من النقابة واظهارها بمظهر الموافق على الاتفاقية .

لقد سلمت النقابة بتاريخ ٨٧/٦/٣ كتابا رسميا لرئيس المجلس بينت من خلاله رفضها القاطع لتشكيل لجنة فنية لوضع ترتيبات التسليم ، وكان رد الرئيس ان هذا الكتاب جيد لانني سأعرضه على وزارة الطاقة ليشعروا بالضغط الذي تمارسونه علي ويدفعهم للموافقة على مطالبي " .

وفي نفس اليوم اجتمع رئيس المجلس مع العمال المضربين طرح عليهم رؤيته للخروج من ازمة الشركة وقد اوضح العمال لرئيس المجلس موقفهم الملتف حول نقابتهم واكدوا على تمسكهم بوحدة امتياز وعروبة شركتهم وطالبوه بعدم تقديم اي تنازل عن اي شبر من امتياز الشركة .

وفي جلسة مجلس الادارة بتاريخ ٨٧/٦/١٥ اتخذ قرار اعتبر الاضراب الاحتجاجي ضد مشروع وزير الطاقة غير قانوني وان ادعاءات النقابة باطلة وفي حالة تجاوب اي موظف مع دعوات النقابة للاضراب فانه سيعرض نفسه لاشد العقوبات ، وقد ثبت المدير العام للشركة هذا القرار بتعميم اداري اصدره بتاريخ ٨٧/٦/٢١ . وقد ردت الهيئة الادارية للنقابة على هذا القرار بالبيان التالي الذي اصدرته بتاريخ ٨٧/٦/٢٤ .

كان توقعنا في الهيئة الادارية للنقابة ان يأتي التهديد والوعيد باتخاذ العقوبات ضدنا وضد عمالنا من قبل السلطات الاسرائيلية ، وليس من قبل مجلس الادارة ، الذي كان في فترة من الفترات يطالبنا بالتنسيق في تنظيم الاجراءات الاحتجاجية ضد مخططات السلطات الاسرائيلية وضغوطاتها لتصفية الشركة ، بل احيانا طالبونا باتخاذ اجراءات اكثر تطرفا .

ويعزز توقعنا هذا ان الاضراب بتاريخ ٨٧/٦/١١ كان بالاساس موجها ضد وزارة الطاقة وليس ضد مجلس الادارة .

فما هي المستجدات التي املت على مجلس الادارة ان يتخذ قراره في جلسته بتاريخ ٦/١٥ والذي عممه المدير العام بتاريخ ٨٧/٦/٢١ وتهديده باتخاذ العقوبات في حالة تعبير النقابة عن موقفها المتمسك بامتياز الشركة وحقوق عمالها .

واذا كان اضرابنا غير قانوني فلماذا اجتمع رئيس المجلس مع العمال وناقشهم في تصوراته للخروج من ازمة الشركة ، في وقت اكدت فيه النقابة امامه وعبر وسائل الاعلام وعلى لسان امين السر بان الاضراب هو ضد اقتراح وزير الطاقة .

Digitized by Birzeit University Library

ان قرار مجلس الادارة بتاريخ ٨٧/٦/١٥ لا يمكن فهمه الا من زاوية انهم اعتبروا انفسهم مستهدفين من اضراب العمال ،وبالتالي فانهم وضعوا انفسهم في صف واحد مع وزارة الطاقة ضد العمال ، الامر الذى اشرنا اليه في بياناتنا الاخيرة من ان اقتراح وزير الطاقة الاخيرة هو بمثابة اتفاق تم التوصل اليه مع المجلس وبحاجة الى مصادقة الحكومة والكنيست .

وبأتي هذا القرار كرد فعل نزق على تمسك النقابة بعروبة الشركة وبحقوق عمالها ، في وقت لا يرى فيه المجلس من خيار امامه سوى التفريط بسيادة الشركة على كامل امتيازاتها ، وفي وقت يعرف فيه المجلس جيدا المواقف والثوابت التي اكدت عليها النقابة مرارا فما الجديد اذن ؟ في اعتقادنا بان قرار المجلس جاء تنفيذا لمطلب وزارة الطاقة ومن ضمن بنود الاتفاقية ، بهدف ترويض النقابة والعمال تمهيدا لتمرير الصفقة بدون ضجة ومقاومة ، وفي البداية من خلال المجلس ، واذا لم يفلح في ذلك يأتي دور الاجهزة القمعية الاحتلالية ، ويؤكد ذلك بان جريدة "دافار" نشرت قرار المجلس بتاريخ ٦/١٧ ، بعد يومين من اقراره وقبل تعميمه على العمال والموظفين ، الامر الذى يعكس رغبة المجلس في ابداء حسن النية لوزارة الطاقة كما ابداها من خلال تشكيل اللجنة الفنية للبدء في تسليم المستوطنات اخذا بنصيحة محامي الشركة توسيا كوهين .

ان الهيئة الادارية للنقابة وبعد دراستها لقرار مجلس الادارة الخطير لتؤكد على ما يلي :

أولا : ان مصير الشركة ووحدة امتيازها قضية ترتبط ارتباطا وثيقا بمصالح ومصير العمال والموظفين ، وهذه المقولة كانت ترد مرارا على لسان رئيس المجلس الحالي والمرحوم انور نسيبة ، وبالتالي كان التأكيد مرارا على وقوف النقابة والمجلس معا في خندق الدفاع عن عروبة الشركة .

وعليه فاننا نرى في قرار المجلس ومحاولاته تحجيم النقابة خروجا عن الثوابت التي حكمت العلاقة بينه وبين النقابة سابقا ، ومحاولة مرفوضة لتحييدنا عن الدفاع عن مصير شركتنا وحقوق عمالنا وننصحه بترك هذه المهمة لسلطات الاحتلال .

ثانيا : ان الهيئة الادارية للنقابة لا يوجد لديها ، ولم يكن لديها في السابق اى توجه للتدخل في صلاحيات المجلس المتعلقة بادارته لقضايا الشركة الداخلية ، اما عندما يتعلق الموضوع بمصير الشركة وهويتها الوطنية ومصير العمال فانها ليست بحاجة الى تصريح من احد لتأدية واجبها الوطني .

ثالثا : في الوقت الذى يعطي فيه المجلس الحق لنفسه بالتنازل عن جزء من امتياز الشركة ، لنا كل الحق في الدفاع عن مصير شركتنا وهويتها الوطنية ، وبدلا من استعراض العضلات امام العمال والموظفين ، كان الاجدى ابداء التصلب تجاه من يحاول تصفية الشركة من خلال ابتزاز التنازلات المتتالية ، والتحرك الجاد لاستنهاض كافة الامكانيات لانقاذ الشركة .

وعليه فان الهيئة الادارية تود احاطة الجميع علما بان قرار المجلس لن يرهبها ولن يرهب عمالها ولن يثنيهم عن التمسك بالموقف الوطني السليم ، وترفض قرار المجلس جملة وتفصيلا .

وتؤكد انها بنفس القدر من الجدية التي تطرح موقفها تجاه هذا الموضوع ، بنفس القدر الذى تؤكد فيه حرصها على عودة المجلس الى الموقف السليم ، وقبل فوات الاوان .

Digitized by Birzeit University Library

وفي نفس الفترة قامت الهيئة الادارية للنقابة باعداد وتوزيع اكثر من ٣٠٠ مذكرة للهيئات والشخصيات الوطنية في الضفة والقطاع بينت من خلالها الاسباب الحقيقية التي جعلت الشركة هدفا لمخططات الاحتلال وكذلك عوامل ومسببات الازمة (تم التطرق اليها سابقا) .

وبينت خطوة المرحلة من خلال استعداد مجلس الادارة للدخول في صفقة مع وزارة الطاقة على حساب الهوية الوطنية للمؤسسة وحقوق عمالها .

وقد بينت المذكرة انعكاسات ومخاطر الحل الاسرائيلي لازمة الشركة على النحو التالي :

ان الهيئة الادارية لنقابة عمال وموظفي شركة كهرباء القدس ترى بان الابعاد الخطيرة لهذه المؤامرة لا تنعكس سلبا فقط على عمالها وموظفيها وانما ايضا على قضيتنا الوطنية وعلى جماهير شعبنا في منطقة الامتياز ويؤكد ذلك ان مستقبل الخدمات الكهربائية في منطقة الامتياز في الضفة الغربية ستكون كما هي عليه في المدن الاخرى كالخليل ونابلس، حيث ان التعرفة هناك تعادل اكثر من ٢٥ في المئة من التعرفة الحالية والتي يتم محاسبة المشتركين بموجبها . اضافة الى ان الموافقة على التخلي عن امتياز المستوطنات القائمة تعني ايضا اعطاء امتياز تزويد المستوطنات المنوي اقامتها في الضفة الغربية للشركة القطرية الاسرائيلية وهذا بدوره يعني اعطاءها المجال لسحب خطوط نقل جديدة من شأنها اختراق الاراضي العربية وخنق عملية التوسع والبناء فيها والتمهيد لمصادرات جديدة، اضافة الى استغلال الطاقة الكهربائية كاداة ضغط على مختلف المؤسسات الاقتصادية الوطنيـــة .

وقد اكدت المذكرة على ضرورة ان يتبلور موقف وطني جمهيري واضح لمقاومة مخطط السلطات الاسرائيلية ويشكل اداة ضغط جماهيرية على مجلس الادارة للتراجع عن استعداده للتنازل عن جزء من امتياز الشركة وتسريح اكثر من نصف عمالها ، عبر مختلف الاشكال والاساليب كارسال مذكرات للمجلس او نشر اعلانات في الصحف تؤكد على الموقف الوطني ، او تنظيم حضور وفود للاجتماع مع رئيس المجلس والتعبير عن موقفها المتمسك بالحق الوطني والعمالي

وبالفعل فقد تم تنظيم اجتماع موسع في مجمع النقابات في بداية شهر تموز /٨٧ اكد فيه المجتمعون ومن خلال البيان الذي صدر عن اللجنة الاهلية على تضامنهم مع الشركة ونقابة عمالها واكدوا على الثوابت التي اكدت عليها النقابة مرارا وتم التطرق لها سابقا في هذا الملف .

وبتاريخ ٨٧/٧/٨ اقر المجلس الوزاري المصغر مشروع شاحال بخصوص ازمة الشركة ، وفي نفس اليوم اجتمعت الهيئة الادارية للنقابة وبحثت القرار من كافة جوانبه ، واتصلت مع رئيس المجلس للاستفسار عما اذا كان مشروع شاحال هو ترجمة لاتفاق مع المجلس وبمباركة اردنية خاصة بعد عودة مجلس الادارة من زيارته الاخيرة لعمان ، افاد بأنه ينتظر وصول النص الرسمي للقرار وتم تحديد لقاء معه في اليوم التالي (٨٧/٧/٩) وقدتم اللقاء واخبر الهيئة الادارية بأنه يرفض المشروع ، ولا وجود لاي اتفاق وسوف يحدد موقف علني بعد وصول النص الرسمي ودعوة مجلس الادارة للانعقاد . الا انه وللاسف الشديد لم يتم ولحد الان تحديد اي موقف ، وقد رهنت الهيئة الادارية للنقابة (وكما ورد في كلمة امين سر النقابة في المؤتمر العالمي التضامني مع الشركة يوم ٨٧/٧/٢٠ جدية موقف مجلس الادارة بالممارسة العملية اللاحقة والمتمثلة في تضيقين :

Digitized by Birzeit University Library

الاولى : عدم تهسيل تنفيذ القرار الاسرائيلي من خلال المساهمة في الترتيبات الفنية والادارية لتنفيذه .

والثانية . بوقف كافة الاتصالات مع وزارة الطاقة على اساس مشروع شاحال .

وبتاريخ ٨٧/٧/١٩ عرضت قضية الشركة في اجتماع الحكومة الاسرائيلية ولم يتم التوصل الى قرار بسبب الخلافات المزعومة بين المعراخ والليكود بخصوص تصفية الجزء او الكل .

خاتمـــــــــــة

==========

لقد تعمدنا الاستعراض التفصيلي والموثق لتطورات قضية شركة الكهرباء بهدف وضع الحقائق امام جماهير شعبنا حول مواقف مختلف الاطراف في داخل شركة الكهرباء وحتى تكون الحقائق دامغة في مواجهة البعض ممن يحاول المزاودة على موقف ونشاط نقابة العمال الكفاحي ووصفه مجرد الرغبة في تسجيل الموقف ، لتبرير موقف الادارة المهزوز والمستعد للتفريط بجزء من امتياز الشركة ضاربا عرض الحائط كافة الاعتبارات الوطنية .

ان التاريخ النضالي لعمال شركة الكهرباء ونقابتهم الكفاحية يؤكد اصالة وصدق انتمائهم لطبقتهم العاملة الفلسطينية وتمسكهم بموسستهم الوطنية في وقت تجاوز فيه ممثلوا البرجوازية كل الخطوط الحمراء واصبحوا يجاهرون بالاستعداد للتنازل عن جزء من امتياز الشركة تحت حجة " ابن البديل" مصورين " التنازل" بطوله قومية ووطنية .

واذا كان البعض يستغل الجدل الدائر بين قطبي الحكومة الاسرائيلية ويصوره وكأنه ازمة وزارية كما ورد في جريدة النهار بتاريخ ٨٧/٧/٢٤ ، ويخرج باستنتاج يناقض الحقائق ويقلب الواقع رأسا على عقب (من خلال اعتراف الوزير شاحال بالطبيعة السياسية لازمة الشركة) للاشارة الى اجحاف النقابة بحق مجلس الادارة فالاجدى بهذا البعض ان يطلع على مواقف النقابة من خلال وثائقها ويخرج بالاستنتاج الاصح وهو صحة تحليل النقابة لازمة الشركة ومسبباتها في وقت افرغ فيه مجلس الادارة ومن بدعمه شرقي النهر ازمة الشركة من محتواها السياسي الوطني ، الامر الذي ساهم في تخدير يقظة بعض الاوساط وتمييع موقفها .

ان المسؤولية الوطنية تحتم في هذه الفترة مراجعة المواقف والعودة الى الموقف السليم من قبل اصحاب الاوهام بامكانية الحفاظ على المؤسسات الوطنية من خلال السير على طريق التفريط بالحق الوطني مثلما ثبت على الصعيد الوطني العام بأن طريق الصفقات المنفردة والحلول الامريكية لن يؤدي الى احقاق الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني بل تصفية قضيته العادلة . وما قضية شركة الكهرباء الا نموذجا مصغرا لقضية شعبنا الوطنية .

وفي النهاية ستحدد الممارسة العملية لمختلف الاطراف صدق الانتماء الوطني لكل منها .

Digitized by Birzeit University Library

المأزق الفلسطيني
القيود ، والفرص

بقلم : د. نصير العاروري *

سوف نحاول في هذه الورقة القاء بعض الضوء على المستقبلات البديلة للشعب الفلسطيني، وسوف تكون احتمالات الوصول الى تسوية سلمية تمنح الشعب الفلسطيني، خلال العقد القادم وجودا ذا سيادة في شرق فلسطين (الضفة الغربية) وغزة، بما يتوافق مع اجماع الفلسطينيين والعرب في السنوات العشر الماضية، ذات اهمية مركزية في تقويمنا.

لقد وصل الشعب الفلسطيني، في الوقت الحاضر، الى مأزق في نضاله من اجل تحقيق اهداف الحد الادنى كما حددتها قرارات المجلس الوطني الفلسطيني العاشر في عام ١٩٧٧ ، والمتمثلة واقعا في دولة في الضفة الغربية وغزة . ومهما كانت الامال التي تم تعليقها على العمل الدبلوماسي في السبعينات ، فانها قد تحطمت بسبب كامب ديفيد ، والغزو الاسرائيلي للبنان ، وما اعقبهما من رحيل منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت وهو الرحيل الذى تبعه الانشقاق الخطير ، ان لم يكن التفتت ، في الحركة الوطنية الفلسطينية، وقد كشفت الاستراتيجية الاسرائيلية خلال السنوات القليلة المنصرمة، وبغض النظر عما اذا كان الليكود ام العمل في مركز القيادة، عن قدرة اسرائيل على المبادأة، بينما يتخذ العرب موقف رد الفعل . فهي دبلوماسيا ، تحاول التهوين من مشروعية منظمة التحرير الفلسطينية، في المنطقة. وهي تعمل ، اقتصاديا، من خلال مصادرة الاراضي ، والحرمان من المياه، وخلق حقائق لا بد ان تؤدي الى ضم فعلي ، لا رجعة عنه، للمناطق المحتلة، ثم انها تعمل، سياسيا، من خلال البحث عن اصوات بديلة، توصف لياقة بأنها لفلسطينيين معتدلين" ، يمكنها ان تفاوض على اساس الحكم الذاتي المحدود ،

(*) أستاذ العلوم السياسية بجامعة جنوب شرق ماساتشوستس - دارتموث الشمالية. ماساتشوستس - الولايات المتحدة الأمريكية.

Digitized by Birzeit University Library

والقيام بدور ثانوي

يتطلب هذا التقويم مسحا موجزا للظروف التي ادت الى هذا المأزق ، وكذلك وصف وتحليل العوامل البيئية ، القائمة محليا واقليميا وعالميا ، وذلك بقصد تحديد القيود التي تفرضها هذه العوامل على الامال الفلسطينية و / او على الفرص التي قد تقدمها .

اذا ما اعتبرنا الهيكل التنظيمي لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وهويتها العقائدية ، وعلاقاتها الاقليمية ، وكذلك طبيعة عدوها ، فانه يسهل الادعاء بأنها لم تطور خيارا عسكريا فعالا في مواجهة اسرائيل . فخلال الجزء الاكبر لوجودها الذي بلغ العشرين عاما ، كانت منظمة التحرير الفلسطينية منهمكة في نضال دبلوماسي ، اكثر منه عسكريا ، ضد اسرائيل ، وحين بلغ الكفاح الفلسطيني المسلح اوجه في اواخر الستينات ، كانت اسرائيل بالفعل ، مجمعا عسكريا صناعيا معقدا ، وقدرة على شن ضربات اجهاض ضد اى وجود فلسطيني مسلح في الوطن العربي ولم تكن هذه المقدرة ، بطبيعة الحال ، تحول دون شن حرب عصابات ناجحة ، مثلما اوضحت حروب تحرير وطنية عديدة خلال الخمسينات والستينات . وعلى اى حال ، فان الحركة الفلسطينية قد عوقتها القيود التي فرضتها الطريقة التي حددت بها علاقاتها مع المنظمات المكونة لها ، ومع المحيط العربي الذى يلزم ان تعمل خلاله .

ونظرا لان منظمة التحرير الفلسطينية قد نمت وهي تعتمد بشدة على الدعم الخارجي ، ونظرا لان مستقبلها قد ربط بطريقة لا انفصام لها بالاهتمامات المتقلبة للدول العربية ، فقد تقلصت فاعليتها فيما يتعلق بمحاولة تحقيق سبب وجودها المتمثل في تغيير الامر الواقع . وكما اوضحت التجارب مع الاردن في ١٩٧٠ ومع سوريا في ١٩٨٦ ، فان النظام العربي ، وبكل بساطة ، لن يسمح بأى تغيير للوضع الراهن يأتي مناقضا لمصالح هذا النظام . وقد كانت المساواة الفلسطينية لاى عنصر في النظام العربي ، الذى يأتلف الحكومات ، تأتي غالبا العقاب الذى تراوح بين وقف التمويل او انكار حق اللجوء او الحق في السلاح ، وبين توظيف مجموعة فلسطينية ضد اخرى ، او اتخاذ موقف المشاركة في الاعمال الحربية فيما يتعلق بالصراعات الفلسطينية الداخلية .

وفي اطار هذه القيود ، كان لا بد ان يعكس سلوك منظمة التحرير الفلسطينية ، في بعض الاحيان ، السياسات العربية الداخلية اكثر مما يعكس الاحتياجات الفلسطينية . وقد كانت المنظمة معرضة لخطر ان تكون اكثر استجابة للنظام العربي منها الى قواعدها الشعبية . فمع منتصف السبعينات ، كانت استراتيجية منظمة التحرير الفلسطينية وممارساتها قد بدأت تمثل توجهات الانظمة " التقدمية " العربية ، اكثر مما تمثل توجهات حركة مقاومة ثورية . وهكذا فان العجز الفلسطيني عن الانخراط في حرب تحرير دائمة ضد اسرائيل ، وعن تحدى الوضع الراهن العربي بما يتطابق وهذا الهدف ، قد اجبر منظمة التحرير الفلسطينية على ان تشارك الدولة العربية في حملة دبلوماسية من اجل تحقيق اهدافها . ولم تؤد هذه الحملة التي تم شنها بهمة في اعقاب الحرب العربية ـ الاسرائيلية في ١٩٧٣ الى الاقتراب

Digitized by Birzeit University Library

بالفلسطينيين من تحقيق اهدافهم . وقد كشف الغزو الاسرائيلي للبنان في ١٩٨٢ حقيقة ان النجاح الدبلوماسي لمنظمة التحرير الفلسطينية خلال السبعينات كان ذا اهمية محدودة فيما يتعلق بحصار بيروت، او بالنتيجة السياسية للمعركة

وقد كان الغزو الاسرائيلي للبنان في ١٩٨٢ ،الذي ادى الى المأزق الحالي، بمثابة الضربة الرئيسية الثانية التي تلقتها القوى العربية التي اعلنت،فيما بعد الحرب العالمية الثانية ،عن عزمها علىتحقيق الاستقلال السياسي، وانجاز التحولات الاجتماعية ـ الاقتصادية . وقد ازاح الهجوم الخطير الاول في ١٩٦٧ هذه القوى من الجبهة الامامية للسياسة العربية، وهيأ المسرح لنهوض جديد للهجمة الاسرائيلية ـ الامريكية ضد بقايا ، او فصائل ، او اتباع القومية العربية الثورية . وكانت الفترة اللاحقة فترة مواجهة للضغط الثوري في المنطقة من قبل الولايات المتحدة الامريكية واسرائيل، باستخدام القوة في بعض الاحيان ، وباستخدام الاجتياح والاحتواء في احيان اخرى .

ان هذه المرحلة يمكن تقسيمها الى فترات ثلاث : تمتد الفترة الاولى فيما بين ١٩٦٧ و ١٩٧٣، وتتميز بصعود التيار الثوري العربي وسقوطه . والفترة الثانية تمتد فيما بين ١٩٧٣ و ١٩٧٧ وتتميز بتصاعد الجهود الدبلوماسية العربية التي غذتها الثروة النفطية ،وظهور الشرعية الفلسطينية ، التي عجلت بدورها بعزلة اسرائيل . وشهدت الفترة الثالثة فيما بين ١٩٧٧، ١٩٨٢ هجوما اسرائيليا مضادا وشللا عربيا، واختلاطا في السبل عند الفلسطينيين .

١ ـ الطور الاول : ١٩٦٧/١٩٧٣

انتجت حرب ١٩٦٧ تيارين سياسيين في الوطن العربي . تيار التسوية وتقوده الدول النفطية الغنية في الخليج، والتيار الثوري ورأس الرمح في حركة المقاومة الفلسطينية . وقد مكنت هذه الحرب الولايات المتحدة الامريكية من ان تطور نظاما سياسيا عربيا يبحث عن التكامل مع الاقتصادالعالمي، ومع النظام الدولي . وكان تيار التسوية، الذي يمثل العمود الذي يقوم عليه هذا النظام ، متحدا في ذلك الحين في مواجهة التيار الثوري، كما ان " حربا باردة " عربية جديدة (١) كانت متأججة وقتئذ .

وقد اصطدمت المقاومة الفلسطينية بدول المواجهة العربية التي ركزت جهودها على استعادة الاراضي المحتلة بالوسائل السلمية . وشنت منظمة التحرير الفلسطينية حرب دعاية ضد مصر، وحروبا حقيقية ضد الاردن ، ولبنان وسوريا، فيما بين ١٩٦٩ و ١٩٧٦ . وكانت الدول العربية الاخرى (غير دول المواجهة) اما مستسلمة للهجوم على منظمة التحرير الفلسطينية واما مشاركة بالفعل في المعارك ضدهـــا

ومصر التي كانت طليعة النضال العربي القومي، علقت اهتماماتها المناصرة للعروبة، وركزت اهتمامها واعادت توحيد طاقاتها في اتجاه استعادة الاراضي المصرية المحتلة. ومن هنا كان قبولها بخطة روجرز في ١٩٦٩ (٢)، وكانت المناوشة الاولى لها مع المقاومة الفلسطينية . وعلى الوتيرة نفسها، تجرأ الاردن بسبب القرار المصرى، واجهض دور منظمة التحرير الفلسطينية، وتابع السير في طريق التسوية السلمية لاستعادة الضفة الغربية

Digitized by Birzeit University Library

وكانت النتيجة هجوم الاردن ضد المقاومة الفلسطينية في ايلول / سبتمبر ١٩٧٠ . وكانت سوريا ، تحت قيادة حافظ الاسد ، هي الدولة العربية الثالثة التي انشغلت باستعادة الارض ، وبمحاولة " ازالة آثار العدوان " (٣) .

وهكذا كان الوطن العربي في ١٩٧٠ ممزقا بين اتجاهين . فبينما كانت الدول النفطية ، مع مصر والاردن وسوريا ، تشارك في التسوية كوسيلة لاستعادة الارض العربية ، ولضمان نظام سياسي مستقر ، كان على حركة المقاومة الفلسطينية ، مع جماهير عربية غير مميزة ، ان تسقط هذا النظام . وقد كانت هذه الجماهير تعتقد ان الوضع الثوري الذي خلفته حرب ١٩٦٧ يوجب العودة الى الشروع في ثورة عربية من طراز " ما بعد عبد الناصر " ، لا من اجل تحرير فلسطين فقط ، وانما من اجل مواجهة الهيمنة الغربية ايضا ، ومن اجل ايجاد مجتمع عربي جديد ، مستقل سياسيا واجتماعيا واقتصاديا .

وقد كان الدور الفعال للمقاومة الفلسطينية ، في هذا التحول المنتظر ، هو العامل المساعد خلال الطور الاول للحرب الباردة العربية فيما بعد ١٩٦٧ . وكان المنقفون الثوريون ، واليسار العربي على وجه العموم ، يرون في المقاومة الفلسطينية طليعة جديدة في سبيلها الى ان تكون الثورة العربية الجديدة . وكان على هذه الثورة ان تنشأ في اطار الظروف الموضوعية التي نتجت عن حرب ١٩٦٧ . وكان لابد من ان يعاد فحص مسلمات الحقبة المنقضية في ضوء الحقائق العملية التي تمخضت عنها الحرب ، وكان لا بد من الاسراع في استبدالها بمجموعة اكثر اقناعا منها . وتكشف النماذج التالية من هذه المسلمات التي سندت النظام القديم مدى الهزال الذي كان عليه ذلك النظام : لا يمكن هزيمة اسرائيل الا عن طريق حرب تقليدية ـ تحرير فلسطين مسؤولية الجيوش العربية والدبلوماسية العربية والمساعي الدولية الحميدة ـ المثقف هو الطبقة الوسطى الجديدة من المهنيين والجنود الذين تصدروا مواقع السلطة نتيجة ثورة ١٩٥٢ في مصر ـ لا بد من ازالة مخلفات الاستعمار الاوروبي ووضع نهاية للاختراق السياسي والثقافي الغربي للوطن العربي .

لقد تحطمت هذه المسلمات في حرب الايام الستة في حزيران / يونيو ١٩٦٧ ، التي احتلت اسرائيل خلالها اراض عربية في بلدان عربية ثلاثة ، وفرضت عليها وقفا لاطلاق النار غير مشروط على امتداد خطوط تمثل جبهات طبيعية . انها لم تكن هزيمة للجيوش العربية النظامية فحسب ، ولكنها كانت ايضا هزيمة للايديولوجيات العربية ، وللاحزاب السياسية والمؤسسات الاخرى التي علقت عليها امال كبيرة منذ عام ١٩٤٨ . لقد كانت سقوط للاولياء والاوصياء الذين اخذوا على عاتقهم مسؤولية تحرير فلسطين من الاستعمار ، في وقت كان فيه هذا الاستعمار مرفوضا دوليا . وكان لا بد ان تنتهي الوصاية العربية ، وان يأخذ الفلسطينيون قدرهم في ايديهم . ان تبادل الادوار الذي ظهر في افق النظام العربي فيما بعد ١٩٦٧ كان نذير سوء ، حيث كان على الفلسطينيين ان يكونوا حراسا ، لا على فلسطين فقط ، وانما على الوطن العربي ايضا . وقد كان هذا التوجه تهديدا لصميم وجود الانظمة العربية وخطط الولايات المتحدة الامريكية واسرائيل من اجل

Digitized by Birzeit University Library

وطن عربي مطواع وخنوع . وبات الطرفان على طريق التصادم الذى بلغ اوجه في " ايلول الاسود " .

لقد كان النظام العربي في سبيله الى التماسك من جديد في السبعينات، واعادة تأكيد دوره، وتجاوز الاحساس بأنه في الموقف الدفاعي من جراء الهزيمة المذهلة في ١٩٦٧ والدرس الذى يجب استخلاصه من كل هذا كان يفيد ان التوقعات من الحركة الفلسطينية كانت مبالغا فيها ، وبخاصة عند وجودمناواة قوية تحول دون نجاحها ، وان الجيش الاردني لم يكن القوة الوحيدة المضادة للثورة التي حاربت الفلسطينيين . فقد كان الاسطول الامريكي السادس في حالة استنفار ، وكان الجيش الاسرائيلي يتلهف للتدخل .

لقد استفاق النظام العربي ، الذى تهاوى خلال فترة سنوات ثلاث من الاستكانة، من الصدمة، وواصل تخطيط اطار جديد لاستراتيجية عربية فيما بين ١٩٧٠ و ١٩٧٣ . وكانت عامة الشعب العربي، التي استمتعت بانتعاشة الكفاح الفلسطيني المسلح، قد طاب خاطرها بانتعاشة حرب تشرين الاول / اكتوبر وقد ثبت ان اوهام المتفائلين بأن النظام العربي قد جاء اجله كانت مضللة تماما . وكان يضارعها في التضليل الامل في ان تكون المقاومة الفلسطينية حامل الشعلة من اجل عالم جديد مقدام . ذلك ان حرب ١٩٦٧ بدلا من خلق هذا الوضع الثورى الذى طال انتظاره ، كانت الضربة الحاسمة الاولى التي جهزت مسرح الاحداث لما سماه سمير امين " عودة الكومبرادورية" الى الوطن العربي (٤) . لقد هيأت المسرح للطور الثاني من العلاقات الفلسطينية ـ العربية حيث حل التعاون والاجتباء محل استخدام القوة .

٢ ـ الطور الثاني: ١٩٧٣/١٩٧٧

آذنت حرب تشرين الاول / اكتوبر بمجيء نظام جديد وحقبة جديدة للعلاقات الفلسطينية ـ العربية . وكان على الفلسطينيين الذين تمثلهم منظمة التحرير الفلسطينية ان يتقدموا في صحبة نظام الدول العربية ليجنوا المكاسب التي جاءت بها الحرب العربية ـ الاسرائيلية المحدودة. لقد كانت هذه الحرب حرب مناورة تعاضد فيها القوة العسكرية المصرية ـ السورية مع سلاح النفط السعودى، للعمل على اساس من معادلة دبلوماسية .

ولقد بحثت منظمة التحرير الفلسطينية عن العلاج عن طريق الدبلوماسية العربية وفي دهاليز الامم المتحدة، نتيجة تجاهل الولايات المتحدة الامريكية لها ونكوصها عن الاعتراف بمركزية المسألة الفلسطينية بالنسبة لاى تسوية تفاوضية . وفي موتمر القمة العربي في الجزائر في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٧٣ ، وفي الرباط في العام التالي ، بدأت تتكشف استراتيجية موحدة للعمل الدبلوماسي تدعو الى مواءمة جديدة والى تسوية جديدة للعلاقات العربية ـ الفلسطينية .

وضع موتمر القمة في الرباط في عام ١٩٧٤ اطارى عمل للدول العربية، يتعلق اولهما بكيفية التعامل مع الولايات المتحدة الامريكية ، والثاني بكيفية التعامل مع الفلسطينيين . وقد عكس اتفاق سيناء في عام ١٩٧٥ ، وتدخل سوريا في لبنان، نمط تعاون فيما يتعلق بالولايات المتحدة. اما بحدود

Digitized by Birzeit University Library

الفلسطينيين فان مؤتمر الرباط قد اعتمد منظمة التحرير الفلسطينية ممثلا شرعيا وحيدا للشعب الفلسطيني ، وكان هذا الاعتراف يوحي ضمنا بالتزام لا بد أن تتعهد به منظمة التحرير الفلسطينية ، في المقابل ، من اجل تعزيز المصالح الواسعة المشتركة . ويشكل هذا الالتزام تضمين كفاح منظمة التحرير الفلسطينية من اجل فلسطين في الاستراتيجية الدبلوماسية العربية من اجل " ازالة اثار العدوان" ، والا وجد الطرفان نفسهما يسعيان الى اهداف متعارضة ، وقد يصطدمان ثانية .

ترافقت هذه المرحلة مع ظهور تحولات جذرية في برنامج منظمة التحرير وانتقالها من رفع شعار اقامة دولة ديموقراطية علمانية موحدة على مجمل الارض الفلسطينية الى الدعوة لانشاء دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة ، وهذا التحول ساعد على ظهور الاجماع العالمي بشأن الحقوق الفلسطينية ، اذ انتج انتصارات سياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية . وقد دعمت هذه الانتصارات حالة الاعتراف الفعلي بها كممثل لشعب محتل له حقوق اصيلة لاتقبل التصرف ، ولمواصلة المساعي من اجل تحقيق الاستقلال بجميع الوسائل الممكنة ، بما فيها النضال المسلح(٥) . وقد دعيت منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٧٤ لحضور الدورة التاسعة والعشرين للجمعية العامة للامم المتحدة ولتنتسب خلالها الى المنظمة الدولية بصفة " مراقب" (٦) . وقد عهد الى الامين العام رسميا باجراء الاتصالات مع منظمة التحرير الفلسطينية بشأن جميع المسائل المتعلقة بالمشكلة الفلسطينية . ومن الجلي ان قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ الذى تجاهل الاعتراف بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني ، كان قد تم اجهاضه بمثل هذا الاعتراف الذى عكس مواقف قطاع عريض من الرأى العام العالمي .

وقد صاحب هذا النجاح السياسي الضخم لمنظمة التحرير الفلسطينية وصعود الدبلوماسية العربية ، عزلة واضحة لاسرائيل بسبب معارضتها التيلا هوادة فيها للاجماع العالمي . وخلال الفترة الاخيرة من السبعينات كانت الدول التي تتعامل مع منظمة التحرير الفلسطينية اكثر من تلك التي تتعامل مع اسرائيل . وقد ادانت المنظمة الدولية اسرائيل بسبب خرقها لاتفاقيات جنيف لعام ١٩٤٩ بخصوص اوضاع الاراضي المحتلة ، وبسبب ارهاب الدولة المنظم الذى تمارسه وقد نظر الى الفلسطينيين باعتبارهم شعبا حرم من حقوقه الموروثة ويسعى للعودة الى وطنه ، من اجل توحيد مجتمعه المقسم ، وليس باعتبارهم عربا يهددون بالقاء اسرائيل في البحر .

وقد عزيت الانتصارات السياسية العظيمة لمنظمة التحرير الفلسطينية الى استثمار نظام الدول العربية لموارد اقتصادية ودبلوماسية ، في اطار حملته لتحقيق تسوية عن طريق التفاوض . وكان الحصول على قرار بشأن قضية فلسطين بمثابة الضمانة الاكيدة لهيمنة النظام العربي فيما بعد حرب تشرين الاول / اكتوبر . وهكذا فان العلاقة بين هذا النظام الذى كان مهادنا الى درجة كبيرة وبين ما يفترض انها حركة مجابهة فلسطينية ، كانت تتميز بكونها مشاركة اضداد حد الاتفاق الادنى فيها هو الحل السياسي للمشكلة الفلسطينية . ومن سخرية الاقدار ، الى حد ما ، ان مشكلة فلسطين قد بقيت باعتبارها الموضوع الرئيسي جدول الاعمال الدبلوماسي للدول العربية ،

Digitized by Birzeit University Library

في حين ان التيار الثورى (الفلسطيني في الاساس) كان قد تم احتواؤه بالفعل في عام ١٩٧٣ . وقد علق مراقب فطن على هذا التناقض بقوله : " واحدى دلالات الارتفاع بالمشكلة الفلسطينية الى هذا المستوى من الاهمية السياسية ان هذا كان " ثمنا " لاحتواء الثورة الاجتماعية العربية " (٧) وقد كان هذا اتفاقا غير مكتوب، حيث تحط منظمة التحرير الفلسطينية من وضعها الثورى في مقابل الخرق المالية والدبلوماسية العربية. وهكذا فان منظمة التحرير الفلسطينية سوف يتم تمكينها من " ازالة آثار العدوان" وهي مهمة اكثر احتراما ، وأسهل في الممارسة، من الاطاحة بالنظام العربي . ومن هنا كان العرض العربي للاعتراف بالمنظمة وممثلا شرعيا وحيدا " في الرباط .

وقد كان نجاح الاستراتيجية المشتركة للعرب ومنظمة التحرير الفلسطينية يتوقف على تعاون الولايات المتحدةالامريكية وموافقتها . وبعد فترة من التردد، عملت الولايات المتحدة الامريكية عرابا لكامب ديفيد ووجهت ضربة للاستراتيجية العربية . ان معاهدة سلام منفصل بين مصر واسرائيل يواكبها تصور مستقبلي بشأن كيان منقوص في الضفة الغربية، كان لا بد لها من اثر لا يسبر غوره في الوطن العربي . فالقبول العربي بكامب ديفيد لا يمكن ان يؤدى الى زيادة العداء لمنظمة التحرير الفلسطينية ونقص المشاركة في العمل معها . وهكذا فان كامب ديفيد ، وصعود الليكود في اسرائيل، قد جاءا ليعلنا صراحة انتهاء الطور الثاني الذى استمر من عام ١٩٧٣ الى عام ١٩٧٧ ، والذى كان بمثابة المقدمة لحقبة مظلمة من العلاقات السلميـــة .

٣ ـ الطور الثالث : ١٩٧٧/١٩٨٢

تميز الطور الثالث ، والاخير، الذى ر
في عام ١٩٧٧ بتغييرات اساسية محددة ر
سياسات كل من الولايات المتحدة الامريك
واسرائيل في الشرق الاوسط . فبعد فترة ر
التذبذب بين عناصر التسوية عن طري
التفاوض حاولت الولايات المتحدة ان تسي
على الامور عن طريق بناء علاقة خاصة ر
اسرائيل مع الحفاظ على علاقات الصداق
ما يسمى بالدول العربية المعتدلة . وقد تم
الرئيس كارتر عرابا لاتفاقات كامب ديفي
مهيئا المسرح لعلاقات اقوى مع اسرائيل
واستحدث ريغان وهيغ الاهتمام بالاج
الاستراتيجي ، ليضما كلا من الدول العر
واسرائيل ضمن سياسة احتواء جديدة. وقد ع
مبدأ كارتر ، الذى عدله ريغان ، عن التو
الامريكي تجاهالشرق الاوسط خلال هذا الط
الثالـــث .

وفي غضون ذلك كانت المشكلا
الداخلية في اسرائيل تتعقد بسبب عزل
التي نشأت عن الهجوم الدبلوماسي العر
وقد ساهمت هذه المشكلات بدورها في نج
الليكود في الانتخابات الاسرائيلية في ١٩٧٧
وقد الفتحكومة الليكود التي كان برأ
مناحم بيغن بسياسات حكومة العمل سياسا
حزب العمل . وبدأ الليكود كما لو انه قد
ليعكس الاتجاهاتالتي انطلقت منذ ١٩٧٣
ولكي يفسد النصر الدبلوماسي الذى حق
منظمة التحرير الفلسطينية ، ويزيل اى مثا
ودية تمكنت الحكومةالعربية من كسبها
واشنطن . وقدكان الاعتراف العالمي بمنظ
التحرير الفلسطينية ممثلا شرعيا للشع
الفلسطيني مثار ازعاج لقيادة الليكود، ك
من اى شيء آخر، مما ادى الى غزو لبنان
١٩٨٢ في نهاية الامر .

Digitized by Birzeit University Library

وعلى اى حال ، فان اسرائيل قد شاركت قبل الغزو في حملة ثلاثية المقاصد لتعكس مثل هذا التوجه ، ولكي تعوق خيار الاستقلال الفلسطيني الذى تولته الدول العربية ومنظمة التحرير الفلسطينية بالرعاية الفائقة وقد التمست اسرائيل هذا التعويق من خلال سل ثلاثة محددة ، اد روجت ، على المستوى الدبلوماسي ، للفكرة الغامضة التي تشير الى ان قيام الدولة الفلسطينية لا بد ان يكون له آثاره السلبية على مصالح الولايات المتحدة الامريكية في الشرق الاوسط ، وكذلك على الاستقرار الاقليمي ، وان مثل هذه الدولة لا بد ان ينظر اليها باعتبارها دولة تحرير وحدود ، ومصدرا للقلاقل ، ولا ضرورة لها ، كما ان مصيرها الغالب ان تكون قاعدة للقوى السوفياتية . وقد جربت اسرائيل التعويق العسكرى ، كمدخل ثان ، عن طريق تصعيد مستويات العنف في وثبات واسعة ، وذلك بقصف القواعد العسكرية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وتفجير القنابل في القيادات الفلسطينية . وفي المدخل الثالث كان تطبيق سياسة " القبضة الحديدية" في المناطق المحتلة ، والضم الفعلي للضفة الغربية من خلال تصعيد بناء المستوطنات ، واحداث تكامل اقتصادى بينها وبين اسرائيل .

وكان كامب ديفيد ، هو الاخر ، ضمن محاولات الليكود لهدم المشروعية الدولية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، ونقض النجاح الدبلوماسي لها . وقد ادى كامب ديفيد الى تحييد مصر واضعاف العرب المعتدلين ، كما ان انه قيدالاندفاعة الامريكية لتحقيق حل سلمي للصراع الفلسطيني ـ الاسرائيلي .

فقرار مصر المشؤوم بالانقطاع عن الوطن العربي والبحث عن ترتيبات ثنائية مع اسرائيل ، بينما فلسطين والجولان تحت السيطرة الاسرائيلية الفعلية ، كانت له اثار بعيدة المدى على تطورات الصراع العربي ـ الاسرائيلي . لقد ادى هذا القرار الى انقسام الوطن العربي ، ثم الى حدوث الاستقطاب فيه ، وبدأ العد التنازلي ، حتى ان الوطن العربي كان في حالة شلل كامل حين حدث الغزو الاسرائيلي للبنان في ١٩٨٢ ، كما كانت منظمة التحرير الفلسطينية ،التي حققت نصرا دبلوماسيا ملحوظا في السبعينات ، منفردة ومرتبكة الخطى . ان عدم التوازن الذى خلفه كامب ديفيد قد جعل الوطن العربي اكثر عرضة للعدوان الاسرائيلي ، الى حد ان العون الدبلوماسي والاقتصادى قد بات بغير فعالية . وقد سددت اسرائيل بالفعل عددا من الضربات الخطيرة للوطن العربي في اعقاب كامب ديفيد ، منها : الغزو الشامل لجنوب لبنان في ربيع ١٩٧٨ ، الاختراق الجرئ للمجال الجوى لبلدان عربية ثلاثة لكي تقصف المفاعل النووي قرب بغداد في ١٩٨١ ، والهجوم الجوى الوحشي على قلب بيروت في تموز / يوليو ١٩٨١ ، وضم مرتفعات الجولان في كانون الاول / ديسمبر ١٩٨١ ، والذى اتبعته بغزو لبنان في حزيران / يونيو ١٩٨٢ .

وقد قوبل الغزو اللبناني بالعجز العربي التام . فالعربية السعودية ، التي اشهرت سلاح النفط في ١٩٧٣ لدعم العمل العسكرى المصرى ـ السورى ، اعطت تأكيدات بأن الانتقام الاقتصادى غير وارد . والالتزام المصرى بمعاهدة السلام مع اسرائيل كان لا بد ان يبقى متماسكا . اما بقية الوطن العربي الذى اعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية في السبعينات فقد التزم الصمت .

Digitized by Birzeit University Library

لقد استهدف غزو ١٩٨٢، ضمن اشياء اخرى انهاء المأزق الذى ادى اليه كامب ديفيد، وخلق واقع جيوسياسي جديد في الشرق الاوسط تستطيع اسرائيل في اطاره ان تكون الشريك الاصغر في السلام الامريكي، اى ان تكون الهيمنة الاسرائيلية واسعة المدى. لقد كان الغزو، في جوهره، ردا على التهديد الاستراتيجي الذى مثله التوافق العربي – الامريكي في اعقاب حرب تشرين الاول / اكتوبر ١٩٧٣، وعلى بلوغ شرعية منظمة التحرير الفلسطينية اوجها في السبعينات، وعلى تذبذب الولايات المتحده الامريكيه.

لقد تم في الامم المتحدة، بالفعل، شطب مشكلة فلسطين كموضوع رئيسي في جدول اعمال الشرق الاوسط، كما ان منظمة التحرير الفلسطينية لم تعد تعتبر الممثل الشرعي الوحيد.

ويمثل "اتفاق" حسين – عرفات في ١١ شباط / فبراير ١٩٨٥ تنازلا جوهريا، يراه فلسطينيون كثيرون تهديدا لمبرر وجود منظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني الذى يسعى الى الاستقلال واقامة الدولة الفلسطينية. واذا ماتذكرنا ان هذه العناصر كانت تعامل باعتبارها الحد الادنى الذى لا يمكن تجاوزه في اطار الحملة الدبلوماسية الفلسطينية – العربية المشتركة خلال العقد الماضي، يستطيع المرء ان يستنتج ان الشعب الفلسطيني هو الان ابعد كثيرا عن اهدافه الدنيا، مما كان عليه منذ سنوات عشر خلت.

والسؤال الذى يطرح نفسه الان عما اذا كانت السنوات القليلة القادمة ستشهد مزيدا من تآكل وانحلال الموقف الفلسطيني او عودة المد والنهوض. وتعتمد الاجابة على هذ التساؤل والى حد كبير على نوعية ال الضغوطات التي تواجه الحركة ومقدار الفر المفتوحة امامها. كما انها تعتمد ايضا عل المدى الذى يمكن به تحويل تلك الضغوطا ، على المستويات المحلية والاقليمية والعالم الى فرص ممكنة.

ان اهم هذه الضغوطات المحلية كا بالطبع، عدم وحدة الحركة وانقسام منظ التحرير الفلسطينية. ذلك انه لا يمكن التغل من المأزق، وايجاد علاج للشلل، او خل تلاحم استراتيجي يقوم على استراتيج محددة وواضحة بدون تلك الوحدة. الا الذى يلغي كل امل في النجاح ويجعل سبي الخلاص والتقويم بعيدا.

ان الحكم على مدى ما احرزه المطل الوطني الفلسطيني، في دورته الثامنة عش التي عقدت في الجزائر في الشهر الماضي، م انجازات على طريق الاصلاح والتقويم، بك ان يتم في وقت لاحق. ان دورة الوح للمجلس الوطني الفلسطيني في الجزائر جا بعد انشقاق في الصفوف مكن عددا من الفو العربية من مهاجمة التجمعات الفلسطين بشكل منتظم او غير منتظم على حد سوا والعمل على تقويض قضيتها الفلسطينية. ف الوقت الذى قامت فيه "امل" بحص المخيمات الفلسطينية في لبنان، استمر سوريا في تفتيت الصراع الفلسطيني في محاو منها لفرض سيطرتها على الحركة. وقا الاردن بالتنسيق علنا مع اسرائيل ضد منظ التحرير الفلسطينية، ولم تتورع مطلقا ع استمرار هذا التنسيق حتى في الوقت الذ اخذت فيه اسرائيل تمارس سياسة التخ

Digitized by Birzeit University Library

الحديدية بكثير من الخزى والعار . وقامت كل من مصر والمغرب باستدراج القادة الفلسطينيين للاعتراف باسرائيل ، على الرغم من ان اسرائيل رفضت مثل ذلك الاعتراف .

وعلى اى حال ، فان انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني الثامن عشر في الجزائر ، جاء ليتخطى عوائق جدية لا تواجه الفلسطينيين وحدهم ، بل تواجه ايضا اخرين ينشطون على المستوى الاقليمي ، مستوى القوى العظمى كذلك . فقد تمخضت المبادرات المتعددة التي قامت بها كل من الاردن ومصر الى خواء امام معارضة الكونغرس الامريكي لشحنات الاسلحة ، وممانعة وزير الخارجية في ازالة بند الشرق الاوسط من نهاية جدول الاعمال الدبلوماسي . واضعفت أزمات القادة والاوساط الحاكمة في اسرائيل والى حد بعيد اية جهود يمكن ان تؤدى الى وضع متماسك من شأنه ان ينهي المأزق السياسي المتفاقم منذ عملية الغزو للبنان . وتلقت الخطة السورية المدروسة لترتيب اوضاع جديدة في لبنان ضربة قاسية امام ضعف وكيلتها " امل" وعجزها عن ان تكون اداة التنفيذ لتلك الخطة وبلغت المصداقية الامريكية الحضيض امام انفضاح قضية شحنات الاسلحة لايران وتمويل الكونتراس بأرباح تلك الشحنات ، وجاءت دعوة ١٢ وزيرا للخارجية يمثلون دولا اوروبية اقتصادية في ١٣ شباط (فبراير) ١٩٨٧ الى مؤتمر دولي للسلام برعاية الامم المتحدة، متعارضة مع برامج واشنطن . اما الاتحاد السوفييتي فان مسألة استبعاده من دبلوماسية الشرق الاوسط قد اخذت في التماثل مع طبيعة الاشياء .

لقد ادى تأكيد المجلس الوطني الفلسطيني الثامن عشر على المزيد من الاستقلال والوحدة الى وضع المنظمة في حالة اقل عرضه للسقوط امام الدول العربية المتفاوتة المواقف منها - فالاردن يأمل ويسعى بدأب لتمثيل الفلسطينيين المقيمين على الارض الاردنية في مو تمر للسلام مشكلا تحديا لوحدانية التمثيل الشرعي للفلسطينيين. وسوريا ، تطمح بأن تكون الوسيط لاى من القوى الرئيسية ، واصطدمت بالنزعة الفلسطينية بدعم الرضوخ لاى سيطرة تحكمية. ومصر ، حتمت عليها علاقتها الاستراتيجية الثانوية بالولايات المتحدة، القيام بدور الاعداد لمو تمر دولي للسلام .

ان المصالحة التي تمت داخل منظمة التحرير تمكنها الان من الاصرار على العمل بقرارات مؤتمر قمة الرباط عام ١٩٧٤ ومؤتمر قمة فاس عام ١٩٨٢ ، دون تقديم التنازلات من اجل الاستراتيجيات العربية الضيقة، ودون ان تتقل كاهلها بحمل اعباء التقيد بضرورات الدول العربية الخاصة . لقد اصبح بالامكان حاليا، العمل في وقت واحد ومتزامن ، على مواصلة السعي لانتزاع الاستقلال الوطني والسياسي من كل من الدول العربية المتباينة المواقف واسرائيل . ان الفرص المتاحة امام الفلسطينيين في اعقاب المجلس الوطني الفلسطيني الثامن عشر ستعتمد ، وبشكل حتمي، على مدى الاستقلال ونوعية الوحدة التي ستحققها الحركة. ان استقلالية منظمة التحرير ووحدتها يمكن ان تعزز دور سوريا بالنسبة لسياستها الاقليمية في المنطقة، وكذلك فان سوريا يمكنها ايضا ان تعزز دور منظمة التحرير وموقفها بالنسبة للمسيرة السلمية . ولنفس الاسباب يمكن لموقف سوفييتي متعاظم ان يساعد بشكل اوسع على التعاون بين منظمة التحرير المتصالحة مع

Digitized by Birzeit University Library

سوريا ، وكذلك يمكن لمنظمة التحرير ان تستفيد بشكل اعظم من النفوذ السوفييتي المعزز ، وانهاء احتكار الولايات المتحدة الامريكية لدبلوماسية الشرق الاوسط . وعلى هذا الاساس، فان ازدياد تلاحم وتماسك منظمة التحرير سيزيد من ترابط علاقاتها المشتركة مع سوريا والاتحاد السوفييتي ، وستكون اقل عرضة للسقوط في شرطة القواعد الامريكية المعروفة للتعاون مع العرب، وشرط الاكراه الذى تتمسك به اسرائيل .

لقد انهى المجلس الوطني الثامن عشر تلك الحقبةمن التحالفات الاقليمية والدولية التي تمت في اعقاب عام ١٩٨٣ ، ممهدا الطريق الى اقامة تحالفات جديدة اكثر انسجاما معمنظمة التحرير فيتشكيلاتها الجديدة . ولكن هذا لا يعني ان القوى الرافضة التي عادت لصفوف الحركة، ستفرض شروطها على الاغلبية، ذلك ان كلا من الطرفين ، في سعيهما نحو الوحدة، اعلنا ضمنيا ان الاستراتيجيات السابقة قد تصدعت ، وفشلت الفرضيات التي جاء بها المو تمر الوطني الفلسطيني ،لسابع عشر (١٩٨٤) واتفاقية عمان (فبراير ــ شباط ١٩٨٥) والقائلة بأن عمان والقاهرة قادرتان على ايجاد طريق الخلاص، وكذلك الادعاء بان شراكة ضيقة مع سوريا الاسد يمكن ان تؤدى الى علاج حاسم ،فقد رفعت المنظمات اليسارية قضية الوحدة الى افاق اعلى ، واشعرت الاسد بأن تنظيماتها ليست دمية يحركها كما يشاء ، وذلك باعلانها حل جبهة الانقاذ الوطني التي كانت اداة الاسد في تحديه لقيادة عرفات . وفي نفس الوقت، فان تبني عرفات لوجهات نظر اليسار، وموافقته على الغا اتفاقية عمان ،

ورفضه المطلق لشروط واشنطن الاعتباطية للاعتراف بمنظمة التحرير، هذه المواقف كلها تشير الى انتقال هام نحو اعادة الاصطفاف والتحالف في مقاربة اكثر لموقف سوريا المعلن وعلى اى حال فان هذه المحاولة، لا تفترض القبول المسبق لها من القيادة السورية، والغاء العلاقات مع مصر . ان المسألة الاكثر الاهمية كانت هي المحافظة على الاستقلالية الوطنية لمنظمة التحرير الفلسطينية كعضو داخل العالم العربـــي .

وغني عن القول، ان هذه الاستقلالية هي العامل الوحيد والاكثر اهمية الذى ازعج عادة الدول العربية رغم تفاوت مواقفها ، فقد ادى توق الدول العربية الى حصر القضية الفلسطينية بالفلسطينيين وحدهم ، وكبح تنظيماتهم السياسية الى اضرار بالغة بالحركة والفلسطينيين انفسهم وبقضيتهم . ومن هنا، فان،ليس من المستغرب ما اقدمت عليهمصر على الرغم مما بذل من التمحيص والتدقيق في قرارات المجلس الوطني الثامن عشرلتجسيد خلق هوة مع مصر ، وعلى الرغم من قبول الممثلين المصريين الرسميين لصيغة قرارات المجلس، الا ان حكومة مبارك سارعت متجاوزة باغلاق مكاتب منظمة التحرير في مصر، تماما كما فعلت حكومة حسين قبل سنة من ذلك عندما احست بأن المنظمة على غير استعداد للتجاوب مع الرغبات الاردنية. ان الدول العربية التي ادعت خلال السنوات القليلة الماضية معرفة المتطلبات الحقيقية للسلام، طالبت الفلسطينيين طيلة هذه المدة بتوحيد صوتهم . ولعله مما يثير السخرية ان انبعاث هذا الصوت الفلسطيني الموحد في الجزائر قد اصاب العلاقات الفلسطينية ــ العربية بالذعر فالسعوديون مستاؤون من دخول الحرب

Digitized by Birzeit University Library

الشيوعي الى صفوف اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، والمغرب مساء من وجود ممثلي البوليساريو اثناء انعقاد المجلس ، والاردن اخذ يغازل بيرس حول انعقاد ما يسمى بالمؤتمر الدولي للسلام ، وسوريا ابلغت القادة اليساريين الفلسطينيين بأن لا يعودوا الى دمشق في الوقت الحاضر . ان مثل هذا التلاقي في المواقف العربية ، ليس الاول من نوعه فقد سبقته حالات مماثلة ، ولكن اجماعا سلبيا من هذا النوع لن تؤدي الى تقويض منظمة التحرير الفلسطينية ، التي انجزت تلاحمها بجهود بالغة ، حيث ادى بها هذا التلاحم الى مأزق جدي في مواجهة الانظمة العربية ذات المواقف المختلفة . ان للحركة الوطنية الفلسطينية التي استعادت وحدتها ، علاقات مع كل من سوريا والاردن وعدد من المنظمات اللبنانية والاتحاد السوفييتي والقاهرة . ولما كانت اللعبة الاقليمية قد تجاوزت نقطة الصفر ، فان ايا من هذه الاطراف ستجازف كثيرا اذا ما حاولت الوصول الى سلام في المنطقة بدون منظمة التحرير الفلسطينية . وكذلك فان الطريق الى الاتحاد السوفييتي لن تكون بالضرورة من خلال دمشق

وعند التحليل النهائي ، فان الامتحان الحقيقي لتلاحم منظمة التحرير بعد تعديل اوضاعها سيحل عندما يتوجب عليها الاختيار بين القرارات الصعبة التالية : هل سيكون مؤتمر السلام الدولي على الشكل الذي يحدده به بيرس ومبارك ، والذي سيكون في هذه الحالة كما وصفه شولتز بأنه " شكل من الدعم الدولي " تكون فيه اللجان الجغرافية الفرعية بديلا عن الشكل المرفوض للمحادثات المباشرة ام يكون هذا المؤتمر على الشكل الذي يراه كل من الاتحاد السوفييتي ومنظمة التحرير في شكلها الموحد الحالي ، حيث سيعجز هؤلاء عن فرض شروطهم على الطرف الاخر . وكذلك فان هذا الامتحان سيحل عندما يحين وقت الاجابة على السؤال الصعب عما اذا كان من الممكن احراز النجاح من مبدأ التعاون مع تلك الانظمة العربية التي يعتبر وجودها حيويا بالنسبة للمصالح الامريكية .

ان المنهج الذي يميز الوضع السياسي الجديد ، يقتضي بداهة ان عملية التقويم الفلسطينية لا يمكنها ان تأتي من خلال الضغوطات الحالية الكامنة في المحيط المحلي والاقليمي والعالمي . وسيكون من الممكن ان تتحول هذه الضغوطات الى فرص ، عندما يتم التغلب عليها في ظروف الوحدة الوطنية . وهذا يعني الاقرار باعادة رسم شروط الحوار ، واعادة تحديد قواعد التعامل ، واعادة امتلاك المبادرة . ان العمل من اجل تحقيق المكاسب الدائمية وعلى المدى البعيد ، يمكن ان تأتي في المقام الاول قبل انجاز نجاحات صغيرة وسريعة على المدى القصير .

Digitized by Birzeit University Library

واقع التعليم في العالم العربي
"دراسة نقدية من زاوية ديمقراطية التعليم"

اعداد: د.نعيم حبيب جعنيني؛
استاذ مساعد - معهد علم الاجتماع - جامعة وهران

خاص بمجلة " الكاتب"

مقدمة :

ان مفهوم الديموقراطية في عصرنا الحاضر، اصبح مفهوما اجتماعيا واسع التطبيق، اذ لم يعد يقتصر مجاله على المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، بل تعداها ليشمل مجالا هاما جدا، الا وهو مجال التربية والتعليم المتشعب والمتعدد الجوانب والاتجاهات. فعندما نتكلم عن تطبيق مفهوم الديموقراطية على التعليم فهذا يعني امكانية توفيره ونشره بشكل واسع ومجاني دون تفريق بين مواطن وآخر، أي القضاء على اللامساواة بجميع صورها واشكالها والتي هي انعكاس للاضطهاد وعدم المساواة الاقتصادية

ان المفاهيم الجديدة للتربية والتعليم في هذا العصر الحضاري عصر الثورة العلمية والتكنولوجية قد تغيرت تغيرا كبيرا، عن النظرة التقليدية السلفية. فلقد اصبح تحصيل العلوم والمعارف حقا مقدسا لكل مواطن ومواطنة، وليس حكرا لطبقة او فئة اجتماعية معينة او مجموعة من البشر دون الاخرى كنتيجة لامتيازات متوارثة طبقية اواقتصادية اواجتماعية. ان هذ التغيير لم يأت صدفة، بل جاء نتيجة تغيير كبير في نوعية وطبيعة القوة المؤثرة في العملية التاريخية، والمتمثلة في التغير الذى حصل في القوى المنتجة وعلاقات الانتاج على المستوى العالمي، باتجاه التطور والتقدم الاجتماعيين، وكذلك باتجاه الديموقراطية واتاحة الفرص لاوسع جماهير الشعب

Digitized by Birzeit University Library

للحصول على حقوقها ، كحقها في العيش بكرامة وكذلك من اجل بناء مجتمع جديد مبني على اسس ديموقراطية جديدة بعيدة عن اساليب الاستغلال البشعة، مما يضمن بذلك مستقبلا مشرقا للبشرية جمعاء . خال من اى شكل من اشكال اللامساواة والاضطهاد .

ولقد جاء التأكيد العالمي لحقوق الانسان ثمرة ناضجة لهذا النضال الطويل ، حيث تطرق الاعلان العالمي لحقوق الانسان والصادر عام ١٩٤٨ الى الحقوق الثقافية للافراد حيث نص في المادة ٢٦ على حق كل فرد في التعليم في مراحله الاولى على الاقل مجانا والزاميا " . (١)

كما اكدت المنظمات الدولية والاقليمية المختلفة ، والمتخصصة في مجال العلوم والثقافة والتربية ، على هذه الحقوق المقدسة ، ولمراحل تربوية اطول ، ليكون الانسان قادرا على التكيف مع واقعه الاخذ بالتعقد والتغير باستمرار ، وكذلك لتطويره وتحسينه لما فيه خيره وخير البشرية جمعـــــاء .

ان النظرة الى التعليم ، تختلف من مجتمع الى آخر . وهذا عائد الى طبيعة النظام السائد وايديولوجينه ، والتي لها تأثير كبير على التعليم ومؤسساته وكذلك على محتواه ، وماله من انعكاسات فكرية مختلفة . فاذا نظرنا الى المجتمع الرأسمالي ، نجد ان هذا المجتمع يأخذ بالعلم وبأحدث منجزات الثورة العلمية والتكنولوجية ويهتم بتدريب كوادر فنية مختلفة ، وعلى مستوى رفيع جدا ، ولكنه يهدف الى تحقيق اكبر قدر من الربح ، عن طريق رفع انتاجية العمل ، ولصالح طبقات وفئات محددة وقليلة من الناس . وانطلاقا من فلسفته وايديولوجيته يحاول حصر العلم والتكوين والثقافة في ابناء الطبقات العليا من الشعب وكذلك مع الاقلية المتحالفة معه ، وان اقتضى الامر انطلاقا من ضرورات انتاجية واجتماعية معينة ، لادماج ابناء الطبقات الوسطى والعمالية الفقيرة في العملية التعليمية والانتاجية ، فانه يحرص جاهدا وبكل ما اوتي من قوة ، شدهم الى فلسفته وتطلعاته السياسية ، ويحارب بجميع الطرق والوسائل ، ان لاتتحول النظرة الى العلم والثقافة كنظرة شاملة للحياة وللعلاقات الاجتماعية .

وعلى العكس من هذا نجد ان التعليم وانظمته في المجتمعات الاشتراكية . مسخر لخدمة الانسان وتطوير ملكاته وقواه . لان الانسان هو اثمن رأسمال في هذه المجتمعات وهومحورالتنمية الاجتماعية . لذلك نجد ان جميع الظروف والشروط موفرة من اجل امتلاك الجماهير لارفع مستوى من العلم والتكوين والثقافة . ان الديموقراطية في التعليم في هذه المجتمعات ، قد طبقت على احسن وجه . وهذا نابع طبعا عن طبيعة اسلوب الانتاج الاشتراكي ، والذى خلق امكانيات جديدة لتطوير القوى المنتجة ، فقد اصبح النضال من اجل التقدم التكنولوجي وتحسين تنظيم الانتاج وتطوير العلم والاستفادة من منجزاته في حقل التطبيق ، قضية شعبية في غاية الاهمية . كما نلاحظ المحتوى التقدمي للتعليم والثقافة ، هذا المحتوى الذى يتلاءم مع المسار الطبيعي لمسيرة البشرية والذى جاء نتيجة توطيد العلاقات الاشتراكية ونتيجة وجود ايديولوجية جديد والتي اصبحت بدورها وعيا ذاتيا للمجتمع ككـــل .

ان الطابع الديموقراطي للتربية والتعليم يتمثل في النقاط التالية :ـ

١) قبول جميع من هم في سن التعليم ، وفي المراحل التعليمية المختلفة مجانا وبدون اى تمييز

Digitized by Birzeit University Library

مبني على انتماءات سياسية او جنسية او دينية او عرقية، مع الاخذ بعين الاعتبار وخاصة في المراحل العليا من الدراسة الامكانيات العلمية والقدرات العقلية للمترشحين وذلك بحسب فروع التخصص .

٢) ان محتوى التربية والتعليم يعبر تعبيرا صادقا عن الثقافة الوطنية وكذلك فهو موجه ضد الافكار البالية وضد النظرات والمفاهيم العنصرية والفاشية، ويتجاوب تجاوبا كاملا مع احدث منجزات الثورة العلمية التكنولوجية .

٣) ان الاصلاح في التربية والتعليم مرتبط مع حاجات المجتمع المتنامية، انطلاقا من الايديولوجية السائدة والتي تؤمن بعدم وجود تعارض او تناقض بين مصلحة المجموع ومصالح كل فرد بمفرده .

٤) لا يوجد اى اختلال او عدم توازن ما بين واقع التعليم وما بين الاهداف المعلنة مما لا يؤدي الى وجود مشاكل تعليمية معينة .

اذن فالتعليم بمؤسساته المختلفة لا يوجد في فراغ بل ويجد في مجتمع، هذا المجتمع الذي له انظمته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والتي تؤثر على التعليم اما سلبا او ايجابا.

ان مجال ديموقراطية التعليم واسع جدا ولذلك سوف يقتصر هذا البحث على معالجة بعض المفاهيم والاسس والتي اراها مهمة ولها الاولية لتحقيق الديموقراطية بشكل سليم وهي

اولا . مفهوم الزامية التعليم ومجانيته.

ثانيا . تكافؤ الفرص التعليمية .

ثالثا : مشاركة المنظمات الطلابية في العملية التربوية .

رابعا العلاقة ما بين المعلم والمتعلم .

أولا : مفهوم الزامية التعليم ومجانيته :

ان مفهوم الالزامية يعني التزام الدولة في البلد المعني بتوفير الفرص والامكانيات التربوية والتعليمية لكافة المواطنين الذين هم في سن الالزام ، ويتطلب ايضا من المواطنين ، الزام اولادهم الاستفادة من الفرص التعليمية الممنوحة . وتحقيق النجاح، ومنعهم من التسيب ، مما يشكل اهدارا للتعليم ،واضرارا لاحقة بالتنمية الاجتماعية . ان هذا المبدأ مهم جدا وخاصة ان الاهمية تابعة من توفير الفرص التعليمية هذه اصبحت في تناول ابناء الطبقات الكادحة والمسحوقة والتي كانت محرومة من مثل هذه الامكانيات ، في العهود الماضية البائدة، حيث كان الانسان محروما من ابسط حقوقه الانسانية نتيجة للاضطهاد وعدم المساواة الاجتماعية والتي هي انعكاس لمجمل العلاقات الاجتماعية والتي كانت تحتوي انسان ذلك العصر . لذلك نجد في عصرنا الحاضر ان مبدأ الزامية التعليم ومجانيته وخاصة في المراحل الاساسية منه يعتبر من اوليات النظام الديموقراطي في التعليم . لذلك نصت على ذلك مبادئ حقوق الانسان وخاصة في مادته السادسة العشرون ، كما جاء في مقدمة التوصيات التي اقرها مؤتمر التعليم الالزامي المجاني للدول العربية المنعقد في

Digitized by Birzeit University Library

الكاتب

القاهرة (من ٢٩ كانون اول عام ١٩٥٤ الى ١١ كانون ثاني من عام ١٩٥٥) بدعوة من جمهورية مصر العربية وبالتعاون مع جامعة الدول العربية ومنظمة اليونسكو الدولية ما يلي : " لما كانت القوى البشرية اثمن موارد الدولة ،وكان تاريخ العالم الحديث يبين ان التقدم الاقتصادي يسير جنبا الى جنب مع التقدم في التعليم ، وكانت نتائج التعليم وآثاره في رفع مستوى الانتاج تعوض البلاد اكثر مما انفقت عليه، ولما كان التعليم هو الاساس السليم للديموقراطية الحقة والسلام العالمي والاستقرار الدولي ، كان لا بد للدول العربيةمن ان تحشد قواها ومواردها لامر التعليم الالـزامـي فيهـا " (٢).

كما ان شرعة حقوق الطفل نصت فيمادتها ٥٢ على ان الطفل يجب ان تيسر له اسباب النشوء الطبيعي من جميع النواحي، كما يجب ان يدرب تدريبا يمكنه من كسب رزقه متى آن الاوان ، وان يوقي شر الاستثمار × .

من هذا يمكن الاستنتاج ان التعليم حق من حقوق الناشئة لا منحة يمن بها المجتمع عليها .

وعلى الرغم من النصوص والشرائع المختلفة في هذا المجال فلا يزال يوجد في العالم العربي ملايين الاطفال الذين لاتتوفر لهم المقاعد الدراسية في مرحلة التعليم الابتدائي، كما ان نسبة المحرومين منهم في الارياف اعلى منها في المدن، فقد دلتاحصائيات عام ١٩٧٤ على ان النسبة المئوية الصافية لمعدلات التسجيل في التعليم الابتدائي بلغت ٥٧ر٥ ٪ (٣) وهي نسبة كانت ولا تزال بعيدة عن تحقيق الالزامية في التعليم الابتدائي بشكل ديموقراطي في ذلك الوقت.

" كما انه في عام ١٩٨٠ بلغت نسبة المستوعبين من الاطفال الذين هم في سن الالزام بنسبة ٦٦ ٪ مما يعني ان الامر لا زال سيئا حيث ان ثلث الاطفال العرب، الذين هم في سن الالزام لم يحدوا اماكنا في مؤسسات التعليم الابتدائي . كما اننا لو اضفنا هذه النسبة الى المتسربين وكذلك للذين لا ينجحون في امتحانات الدراسةالابتدائية لشكلت هذه النسبة رصيدا سنويا يضاف الى الرصيدالحالي للاميين والذي يشكل ٥٠ ٪من الكبار الذين تتعدى اعمارهم ١٥ عاما (٤).

الا ان نسبة التسجيل الصافية في مرحلة التعليم الابتدائي تختلف من بلد عربي الى اخر ففي البلدان التي تنهج توجها ديموقراطيا وذلك بتعميقها للمنجزات الاقتصادية والاجتماعية لصالح اوسع جماهير الشعب ، نجد ان نسب التسجيل فيها اعلى من غيرها من البلاد العربية . فمثلا نجد النسبة في السعودية فقد بلغت ٣٣ر٢ ٪ وفي السودان نسبة ١٩ر٥٪ اما في جمهورية اليمن الديموقراطية وفي عام ١٩٧٤ قد وصلت الى ٦١ر٥ ٪ للذكور والاناث معا بينما بلغت النسبة وفي نفس العام في جمهورية اليمن العربية نسبة ١٨ر٣٪ وهي نسبة متدنية جدا وفي ليبيا وصلت الى نسبة ١٠٠٪ والجزائر نسبة ٧٢ر٣ ٪ ، (٥) وتعتبر الكويت الدولة الخليجية الوحيدة التي سنت قانونا للتعليم الالزامي بدأت في تطبيقه منذ عام ١٩٦٦ – ١٩٦٧.

اننا اذا قارنا هذا الواقع مع واقع الدول الصناعية لوجدنا ان هناك فارقا زمنيا شاسعا ما بين هذه الدول وما بين الدول العربية، فقد طبقت الدول الصناعية الزامية التعليم منذ اكثر من مئة عام فالدنمارك كانت قد طبقته منذ عام ١٨١٧ م وفرنسا منذ عام ١٨٨٢ وتشيكوسلوفاكيا منذ عام

Digitized by Birzeit University Library

١٨٦٨ م اما الاتحاد السوفييتي فقد طبق مبدأ الزامية التعليم حتى شملت ايضا المرحلة الثانوية.
فأصبحت المرحلة الالزامية تشمل فترة دراسية مدتها عشرة سنوات تبدأ منذ سن السابعة من العم
وتنتهي في سن السابعة عشرة .

اذن في الدول الصناعية المتطورة فان الحديث عن تعميم الدراسة الابتدائية امر مفروغ منه.
اما نسبة المشاركة الطلابية في المرحلة الثانوية فانها لا تتجاوز نسبة ٧٠ ٪ في الكثير من هذه
البلدان (٦)

ان احدا لا ينكر ما قد حصل من تطور كمي في التعليم الابتدائي الالزامي في البلدان العربية
في السنوات الاخيرة مع اختلاف في النسب ما بين بلد وآخر ولكن هذا التطور بقي بعيدا عن الامال
المتوقعة في تعميمه ليشمل كل المحتاجين له في هذه المرحلة على الرغم من توفر الامكانيات
لذلك في ظل التنسيق التربوي العربي . ان اهم الاسباب التي عاقت ذلك والتي من الممكن
التغلب عليها تتمثل فيما يلي :

أ ـ التخلف الاجتماعي والذي لا يتجزأ هذا التخلف كان ناتجا عن عوامل شتى بعضها عائد
الى طبيعة الانظمة السياسية والتي تخلف سياسات التنمية الاجتماعية في بعض الدول العربية، ثم
الاهم هو التخلف الذي اورثه الاستعمار لغالبية هذه البلدان ، فاورثها جهلا اجتماعيا يتمثل في
الامية والفقر وتخلف الوعي الاجتماعي ، مما ادى الى انخفاض مستوى الوعي التربوي ، فاثر بذلك
على مستوى طموح الجماهير العربية في التزود من العلم والمعرفة، هذا بالاضافة الى تخلف الريف
العربي في كثير من النواحي الاجتماعية والثقافية والتربوية .

ب ـ أسباب ديمغرافية والمتمثلة في التفجر السكاني الهائل ، اى عدم التحكم في معدل النمو
السكاني في البلاد العربية ادى الى خلق مشاكل اقتصادية واجتماعية وثقافية وتعليمية مختلفة،
حيث لم تستطع خطط التنمية الاجتماعية ان تستوعب هذا التفجر بشكل جيد، مع بعض
الاستثناءات البسيطة في بعض الدول العربية نتيجة ظروف معينة .

جـ ـ عدم وجود تخطيط تربوي صحيح يقوم على ربط التعليم مع الانتاج وقطاعات الحياة
الاجتماعية الاخرى ليتلافى النقص الذي تعاني اغلب الدول العربية وخاصة اعداد وتهيئة المعلمين
تربويا لممارسة مهنة التعليم المقدسة، وكذلك لتلافي النقص في المعدات والوسائل التربوية ونقص
الابنية المدرسية، ثم وجود ظاهرتي الرسوب والتسرب بنسبة مرتفعة .

أما بالنسبة لمجانية التعليم فهي مقصورة فقط على الاعفاء من الرسوم المدرسية، وبعض الدول
العربية تقدم الكتب مجانا لطلابها ، والبعض الاخر لا يقدم الكتب الا للفقراء منهم ، حيث لا توجد
مجانية كاملة لتحمل نفقات التعليم ، الا في البلدان العربية التي وسعت القاعدة المادية للمجتمع
لصالح اوسع جماهير الشعب ، وهناك بعض الاستثناءات في بعض الدول الخليجية القليلة السكان
ولاعتبارات معروفة لدى الجميع فمثلا في الكويت تقدم للطلاب الكويتيين الكتب والقرطاسية
واللوازم المدرسية ووجبتي طعام يوميا ويستثنى منها الطلبة العرب والاجانب المقيمين هناك .
ان ديموقراطية التعليم لا تتوقف عند حد فتح ابواب المدرسة لتستوعب اكبر عدد من التلاميذ

Digitized by Birzeit University Library

فما ان البيئة الاجتماعية التي ينتمي اليها الناشئ تتحكم الى حد بعيد في مسيرة دراسته وتحصيله العلمي ، فقد تبين بالفعل نتيجة الدراسات التربوية والنفسية ، ان الاطفال الذين لا يتوفر لهم الغذاء الكافي ، لا يمكن بأي حال من الاحوال ان تكون قدرة استيعابهم للعلم والمعرفة والتكوين مساوية لقدرة الاطفال الذين ينتسبون الى عوائل ثرية . ان توفير المطاعم المدرسية للمحتاجين لها من الاطفال وتزويدهم بالكتب واللوازم الاخرى والملابس لهو مطلب ديموقراطي وخاصة في ظل الامكانيات المادية التي تتوفر في العالم العربي . حيث نجد في بعض البلاد العربية ومنها جمهورية الجزائر الديموقراطية الشعبية قد اصبحت المطاعم المدرسية مراكز حقيقية للتغذية لعدد كبير من المستفيدين منها ، كما انشأت فيها شبكة من المدارس الابتدائية ذات النظام الداخلي يتمتع بها اطفال البدو الرحل بالمنح التي تجعل الدراسة والمبيت والاكل وسائر الخدمات الاخرى مجانية مئة بالمئة ، فقد دلت الاحصائيات ان عدد المستفيدين منها قد بلغ ١ر٦٥٨ تلميذا وتلميذة وذلك في عام ١٩٧٦ — ١٩٧٧ (٧) . ومع انه يشكل رقما صغيرا الا انه ظاهرة اجتماعية وتربوية صحيحة يجب تدعيمها والاستفادة من نتائجها وخاصة ان البدو الرحل في العالم العربي يشكلون نسبة ليست بالقليلة .

ثانيا . تكافؤ الفرص التعليمية :

ان تكافؤ الفرص التعليمية من المبادئ الديموقراطية المهمة ايضا في مجال التربية والتعليم ، وهذا المبدأ من وجهة نظر ديموقراطية التعليم لا يعني فقط مجرد تسجيل المتعلمين في مرحلة معينة من مراحل التعليم المختلفة والاكتفاء بذلك ولكنه يعني تمكينهم ايضا وفتح المجالات والامكانيات امامهم لمواصلة واتمام مراحل تربوية معقولة من حيث العلم والمعرفة لتؤهلهم بذلك للتكيف مع الحياة العصرية الاخذة بالتغير والتعقد ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى تلقيهم العلوم والمعارف والمعلومات الملائمة والمناسبة والتي لا تتناقض مع معطيات ومتطلبات الحياة العصرية .

ومن عرضنا اللاحق سوف يتبين لنا ان معاهد التعليم او انظمته في اغلب البلدان العربية ولا اقل في كلها ، لا تزال غير مهيأة لاستيعاب اكبر عدد ممكن من الناشئين ، وكذلك لتوفير الفرص التعليمية لهم لمواصلة التحصيل لاطول مدة ممكنة دون تسرب او انقطاع من جانبهم .

كذلك تجدر الاشارة في هذا المجال الى ان المساواة في حق التعليم والتعلم ، وان كانت شرطا من الشروط الضرورية لتحقيق الديموقراطية ، الا انها غير كافية تماما لتحقيق ديموقراطية حقه ، هذا على الرغم من ان كثيرين من رجال التربية والتعليم ممن يعتقدون على ان المساواة هي غاية الغايات بالنسبة الى من يسير في نهج الديموقراطية ، ولكن هل ان المساواة في حق التعليم تعني المساواة في الفرص التعليمية ؟ فالمساواة الحقة هي ايضا في تمكين الاجيال الصاعدة من التخرج وتحقيق النجاح . اي بمعنى توفير جميع الفرص والامكانيات من علمية ومادية وتربوية وثقافية لتحقيق النتائج التي نريدها بناء على الاسس الديموقراطية والمحتوى الديموقراطي . وهذا ما

Digitized by Birzeit University Library

اكدته اللجنة الدولية للنهوض بالتربية والتعليم والتابعة لمنظمة اليونسكو الدولية حيث اشارت الى ان " توسيع القاعدة الاجتماعية في الانخراط المدرسي لا يقدم دليلا على ان التربية ديموقراطية ، فالمدرسة التي تستقبل التلاميذ من مختلف طبقات الشعب وفئاته الاجتماعية المختلفة ، وتضمن لهم فرصا متكافئة في الترقية الاجتماعية من جهة ، وتقوم من جهة اخرى على اساس عدم التسامح وتمجيد السلطة والتعصب الاعمى للوطن واذكاء الاطماع الامبريالية وعدم التآخي بين الناس ، فان مثل هذه المدرسة لايصدق عليها وصف الديموقراطية ٠(٩)٠

هذا مما يدل على ان الديموقراطية في التعليم في عصرنا الحاضر تشمل فتح العديد من مجالات الترقي امام الاجيال الصاعدة وتعديل شروط الانخراط في المدارس ومعاهد العلم والمعرفة المختلفة وتوزيع الامكانيات توزيعا عادلا بحسب ما يوجد في البلاد من طبقات وفئات. اجتماعية مختلفة ومن مهن مختلفة وفي اطار ديموقراطي وعلمي شكلا ومضمونا وبدون تعصب او تمييز ، تحقيق تعليم متكافئ بالنسبة للذكور والاناث على حد ســـواء ٠

ان لغة الارقام خير دليل على مدى صدق ذلك او عدمه ، لذلك سوف نتتبع ذلك بالارقام في بعض البلدان العربية حيث انه من الصعوبة بمكان تقديم ارقام لكل الدول العربية كل على انفراد ،

– جمهوريـــة مصـر العربيـــة

ففي هذا البلد ترينا الارقام ولفترات تاريخية مختلفة على ان النظام التعليمي قد عجز عن استيعاب جميع التلاميذ والشباب الذين هم في سن التعليم واذ تشير الارقام الى ان النسب المئوية للمسجلين في المرحلة الابتدائية الى جملة الذين هم في سن التعليم كانت على التوالي : ٦٦ ٪، ٧٤٪ ، ٧٠ ٪ وذلك في اعوام : ١٩٦٠ – ١٩٦٧ – ١٩٧٠ وان نسبة المسجلين في التعليم العالي والجامعي وفي نفس تلك السنوات المذكورة كانت ٧ر٤ ٪ ، ٨ر٦ ٪ ، ٧ر٤ ٪ من جملة الذين هم في سن التعليم الجامعي (١٠) اما في عام ١٩٨٠ فقد بلغ مجموع المسجلين في مراحل التعليم المختلفة نسبة ٤٩ ٪ من مجموع من هم في سن التعليم ٠ (١١) ان هذه الارقام تعطي الدليل القاطع على ان الملايين من التلاميذ والطلاب ومن الجنسين مستثنيين من مواصلة حقهم في التزود من العلم والمعرفة مما يجعلهم ذلك غير مؤهلين للتكيف مع الحياة الاخذة بالتغير والتعقد والتأثير فيها ٠

– المملكـة العربيـة السعوديـة .

ان المتتبع لاوضاع التعليم في هذا البلد من خلال الارقام والمعطيات المتوفرة ليستطيع الحكم بان تطبيق الديموقراطية لا يزال بعيدا عن المنال ، ان نسب الانتساب لمراحل التعليم المختلفة

Digitized by Birzeit University Library

بحسب فئة الاعمار ما بين اعوام ١٩٧٠ – ١٩٧٥ كانت كما يلي :

فئة الاعمار	السنة ١٩٧٠	١٩٧٥ (١٢)
٦ – ١١ سنة	٢٤ /	٣٥ /
١٢ – ١٧ سنة	١٨ /	٢٦ /
١٨ – ٢٣ سنة	٥ /	١١ /
٦ – ٢٣ سنة	١٧ /	٢٦ /

اما في عام ١٩٨٠ فقد حصل تطور طفيف اذا ما قيس بعام ١٩٧٥ فقد ارتفعت نسبة المسجلين من فئة الاعمار ٦ – ٢٣ نسبة من ٢٦ ٪ الى نسبة ٣٥ / ٠ (١٣) وهي نسبة لا تزال ضئيلة جدا وخاصة اذا ما قيست بما تتوفر عليه السعودية من امكانيات مالية وثروات هائلة جدا .

– الجمهورية العراقية :

تبين الاحصائيات المتوفرة لدينا وفي عام ١٩٨٠ ان نسبة المسجلين في مراحل التعليم المختلفة بلغت ٥٧ ٪ من مجموع الذين هم في سن التعليم ويحتاجون اليه ٠ (١٤) ٠ وهي ايضا نسبة ضئيلة ٠

الجمهورية العربية اليمنية :

ان الاحصائيات التالية تبين نسبة الانتساب الى الدراسة لفئة الاعمار من ٦ – ٢٣ ولعامي ١٩٧٠ – ١٩٧٥ ٠ (١٥) ٠

فئة الاعمار	عام ١٩٧٠	عام ١٩٧٥
٦ – ١١ سنة	٥ /	١٩ /
١٢ – ١٧ سنة	٣ /	٧ /
١٨ – ١٣ سنة	—	١ /
٦ – ٢٣ سنة	٤ /	١٠ /

من هذه الارقام يلاحظ ان نسب الانتساب متدنية جدا وتتنافى مع ما نصته القوانين والشرائع الدولية والعربية المتعلقة بحقوق الانسان في مجال التربية والثقافة ٠

– جمهورية اليمن الديموقراطية :

ان الارقام التالية تبين نسب الانتساب للدراسة بحسب فئة الاعمار لعامي ١٩٧٠ – ١٩٧٥ -

Digitized by Birzeit University Library

فئة الاعمار	عام ١٩٧٠	عام ١٩٧٥ (١٦)
٦ – ١١ سنة	٤٨ /	٦٧ /
١٢ – ١٨ سنة	٢٠ /	٣٣ /
١٨ – ٢٣ سنة	٣ / ٧	٧/
٦ – ٢٣ سنة	٢٦ /	٤٠ /

اما في عام ١٩٧٧ – ١٩٧٨ فقد بلغ مجموع الملتحقين بالدراسة في المراحل التعليمية المختلفة ما يعادل ٣٥٥ الفا اى بزيادة ٣١ ٪ عما كان عليه الوضع منذ اعلان الاستقلال السياسي عن الاستعمار البريطاني في ٣٠ نوفمبر من عام ١٩٦٧ (١٧) • ويعتبر هذا قفزة كبيرة واحدى منجزات الاستقلال السياسي ونتيجة حتمية للنظام السياسي والاجتماعي الجديد • واذا ما القينا نظرة مقارنة بالنسبة للتعليم في جمهورية اليمن العربية لنجد تفاوتا كبيرا في مجال التطور الكمي للتعليم من خلال الارقام المقدمة •

– الجمهورية العربية السورية :

ان الاحصائيات تبين ان نسبة الانتساب لمراحل التعليم المختلفة بحسب فئات الاعمار ذكورا واناثا معا كانت :

فئات الاعمار	السنة ١٩٧٥ (١٨)
٦ – ١١ سنة	٩٤ /
١٢ – ١٧ سنة	٥٢ /
١٨ – ٢٣ سنة	١٨ /
٦ – ٢٣ سنة	٦٠ /

وهذا يعني ان نسبة المحرومين من فئة الاعمار ٦ – ٢٣ كانت ٤٠ ٪ وذلك في عام ١٩٧٥ • وان تكافو الفرص التعليمية يعبر عن نفسه بشكل واضح وذلك بالنسبة لتعليم الاناث ونسبة هذا التعليم الى الذكور وفي المراحل التعليمية المختلفة •

ان الالتحاق بالتعليم والتدريب للاناث حق تعترف به الوثائق الدولية في هذا المجال وعامل من عوامل تطور المجتمعات لانه يساعد على التقليص من حدة الفوارق بين الطبقات والفئات الاجتماعية المختلفة وكذلك بين الجنسين • ان الدراسات تبين ان الاناث اقل حظا من الذكور في كثير من البلدان العربية والنامية ، ويزداد الامر سوءا في المناطق الريفية والصحراوية مما يطرح

Digitized by Birzeit University Library

مشكلة حيوية وهي مشكلة انعزال المرأة وعدم مساهمتها في التنمية الاجتماعية، على الرغم من ان مبدأ المساواة في التعليم معترف به في جميع الدول العربية لكنه يتعرض للانتهاك عن طريق احكام خاصة مناقضة له احيانا مما يؤدي الى اختلال كمي واضح وفوارق كيفية كبيرة على نحو يقلل من انتفاع الاناث بالتعليم والتدريب .

ان المدرسة كمؤسسة تربوية واجتماعية تعتبر عاملا من العوامل التي تؤدي الى تحقيق تكافؤ الفرص امام الاجيال الصاعدة من الجنسين بالرغم من انها تعكس الى حد ما قيم ومعايير وثقافة المجتمع الذي توجد فيه .

كما علينا ان لا ننسى ان مشاركة الاناث في التنمية تخضع لعدد من العوامل تحددها البنى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتربوية وكذلك النفسية الاجتماعية في المجتمع المعني والتي تحدد ادوار كل من الجنسين على ضوء الاوضاع القائمة . كما ان تكافؤ الفرص يتطلب اصلاح حقيقي في محتوى التربية والتعليم بهدف انهاء التمايز وهذه بعض الارقام والتي تبين لنا هذا التمايز .

في الجمهورية العراقية :

نجد ان توسع التعليم الابتدائي كان لصالح الذكور اكثر منه لصالح الاناث حيث بلغت النسبة في عام ١٩٧١ – ١٩٧٢ نسبة ٣ ر ٧١ ٪ من مجموع التلاميذ المسجلين في مرحلة التعليم الابتدائي بينما وصلت النسبة بالنسبة للاناث ٧ ر٢٨ ٪ اى اقل من النصف . (١٩) وهذا الوضع يبين الاجحاف بالنسبة للاناث ، وعلى الرغم من تحسن الوضع في عام ١٩٧٦ ولكن الفوارق بقيت كبيرة ، حيث بلغ مجموع تلاميذ المرحلة الابتدائية ذكورا واناثا مجموعة ١٨٢ ر٩٤٧ر١ منهم ٩٦٢ر٢٥٩ر١ تلميذ اى مانسبته ٧ر٦٤ ٪ اما بالنسبة للتلميذات فقد بلغ عددهن ٦٨٧٢٢٠ اى مانسبته ٣ر٣٥ ٪ (٢٠) .

اما في مرحلة التعليم الثانوي فقد وصل معدل التسجيل الصافي من مجموع الطلاب ما نسبته ٣٤ر٢ ٪ للذكور، و ٥ر١٥ ٪ للاناث وهذا في عام ١٩٧٤ . اما بالنسبة للتعليم العالي وفي عام ١٩٨٠ ، فقد بلغ مجموع الطلاب الدارسين المسجلين ذكورا واناثا ١٤٥٨٥٧، منهم فقط ٤١٢٥٨ طالبة (٢١) اى اقل من ثلث المجموع ، وهذا وضع لا يحقق المساواة بين الجنسين وله اسبابه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية ولا يتسع المجال لبحثها هنا .

وفي الجمهورية العربية السورية :

ان تبين الاحصائيات الصادرة عن قسم التخطيط بوزارة التربية والتعليم ان نسبة الذكور الى الاناث في المرحلة الابتدائية في عام ١٩٧٠ – ١٩٧١ وصلت الى ٧ر٧٣ ٪ بالنسبة الى الذكور في المناطق الريفية اما في المناطق الحضرية فقد وصلت النسبة الى ١ر٥٦ ٪ . اما بالنسبة لمرحلة

Digitized by Birzeit University Library

التعليم الجامعي فقد بلغ مجموع الطلاب ذكورا واناثا وفي عام ١٩٧٥ مامجموعه ٦٥٢٦٥ منهم فقط ١٣٥٧٢ طالبة، وفي عام ١٩٨٠ بلغ المجموع ١١٧ر١٠٠ منهم ٢٥٣١٠ طالبة فقط (٢٢) وهذا ايضا لا يعبر عن ديموقراطية حقه في التعليم وله اسبابه الكامنة في طبيعة مستوى التطور الاجتماعي الذى وصلت اليه سوريا باعتبارها دولة نامية ذات موارد مالية محدودة .

قفي دولة الامارات العربية المتحـدة :

والتي تمتاز بصغر حجم سكانها الذى لا يزيد الا قليلا عن المليوني نسمة، كما تمتاز بضخامة مواردها المالية من المحروقات والتي تتيح لمقرري السياسة التعليمية فيها التصرف بصورة احسن من البلاد العربية الاخرى المحرومة الا ان الاحصائيات المبينة ترينا ان نسب الانتساب الى مراحل التعليم المختلفة كانت متدنية .

فئة العمر	السنة ١٩٧٠			السنة ١٩٧٥		
	الجملة	ذكور	اناث	الجملة	ذكور	اناث
٦ – ١١	٥٦٪	٦٧٪	٤٣٪	٩٠٪	٩٤٪	٨٦٪
١٢ – ١٧	٢٧٪	٣٨٪	١٥٪	٦٠٪	٧٣٪	٤٦٪
١٨ – ٢٣	٣٪	٤٪	١٪	١٠٪	١٢٪	٨٪
٦ – ٢٣	٣٢٪	٤١٪	٢٣٪	٥٨٪	٦٥٪	٥١٪

من هذه نتبين الفوارق الواضحة ما بين قبول الاناث الى الذكور، ويتبين كذلك انه مع ارتفاع مستوى المرحلة الدراسية تنخفض نسبة الاناث المسجلات . ان عدم تكافؤ الفرص عائد الى التخلف التعليمي وانتشار الامية بشكل واسع وخاصة بين النساء ثم الى التصورات التقليدية السائدة هناك ونظرتها للمرأة وكذلك الى تكريس القيم التقليدية القديمة والتي ترى بالنسبة للمرأة تأهيلها فقط لتصبح ام وربة بيت وان لا يعدى لذلك تعليمها الا المراحل الضرورية .

اما احصائيات عام ١٩٧٩ فتشير الى نسب الاستيعاب للاناث في المرحلة الاولى من التعليم في الدول الخريجية المنتجة للنفط فقط كانت ٤٨٪ في الامارات و ٤٥٪ في البحرين و ٣٨٪ في السعودية و ٣٢٪ في عمان و ٤٨٪ في قطر و ٤٧٪ في الكويت (٢٤) .

اما بالنسبة للعالم العربي فالاحصائيات التالية تبين عدم المساواة بين الجنسين وذلك في عامي ١٩٧٥ – ١٩٨٠ (٢٥) .

المرحلة	عام ١٩٧٥		عـام ١٩٨٠	
	اناث	ذكور + اناث	اناث	ذكور + اناث
المرحلة الابتدائية	٦١٣٨٤٠٠	١٦٫٣٤٩٫٠٤٨	٧٫٩٩٦٫٦٩٦	٢٠٫٣٩٦٫٩٠٦
المرحلة الثانوية	١٫٨٠٢٫٧٩٢	٥٫٤٥١٫٣٢٨	٢٫٧٩١٫٣٣٩	٧٫٩٣١٫٣٥٣
التعليم العالي	٢١١٤٢١	٧٩٠٣٧٦	٣٥٤٣٦٣	١٫٢٢٣٫١٦٢

Digitized by Birzeit University Library

ان التوسع في التعليم والازدهار المالي لا يكفيان وحدهما لضمان التكافؤ في فرص التعليم امام الذكور والاناث اذا لم يقترنا بسياسات وتدابير فعالة في هذا المجال .

" ان البلاد العربية جزء من البلاد النامية لذلك نجد ان تركيب السكان في البلاد يتميز بالتخلف الاقتصادى والاجتماعي اذا ما قيست بالمكان الذى تستغله في الاقتصاد الرأسمالي العالمي ، كماان هذه البلاد تضم ثلث الكرة الارضية ، ولكن لا تنتج اكثر من ١١ ٪ من الانتاج الصناعي العالمي " (٢٦) ان هذا الوضع يؤثر بدرجة كبيرة على وضع العاملين في هذه البلاد ، كما يؤثر ايضا على القطاعات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والتربوية وكذلك يؤثر على مستوى تطور الوعي الاجتماعي لدى شعوب هذه البلاد ، مما يؤثر على ذهنيتهم ونظرتهم الى الحياة .

بالاضافة الى ذلك والى جانب التنوع الكبير والاختلافات مابين هذه البلاد من حيث التركيب الطبقي والاجتماعي وكذلك من حيث نسبة القوى الاجتماعية والسياسية الممثلة في قمة الهرم السياسي ، وهناك فوارق ذات طابع عشائرى وطائفي ولها تأثير كبير وواسع على مجرى الحياة الاجتماعية . حتى انه احيانا يكون الانتماء العشائرى او الطائفي اقوى من الانتماء الطبقي ، مما يؤثر سلبا على مجرى التطورات الاجتماعية المختلفة في ميادين الحياة . ان انعدام المساواة في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ... الخ في اغلب البلاد العربية ، وليس في كلها ، نجده واضحا واكثر انطباقا على وضع المرأة . فعلى الرغم من ان تطور العلم والصناعة والتكنولوجيا النسبي فيها اذا ما قيس بالعهود السابقة قد سرع وسهل عملية الانتاج وجعلها لا تعتمد فقط على القوة العضلية مما سهل عمل المرأة وجعل مشاركتها اوسع . الا ان المرأة العربية لا زالت تعاني ، ولم تحصل على حقوقها الديموقراطية الكاملة ذلك لان مشكلة تحرير المرأة ومساواتها بالرجل مشكلة ليست سهلة فهي عملية مرتبطة بتحرير المجتمعات العربية من كل انواع الاستغلال وعدم المساواة ، كذلك مرتبط بتخلف اساليب الانتاج والعلاقات المرتبطة بها في بعض الدول العربية مما يقف حاجزا ضد التطور الاجتماعي السريع وضد التنمية الاجتماعية السريعة والتي سوف تؤدى الى تغييرات في وعي الانسان العربي تجاه المرأة وكذلك الى تغيير وعي المرأة تجاه نفسها ، مما يسهل الطريق امامها لتصبح حرة في اختيار الدور الاجتماعي الذى ستقوم به في المجتمع .

رابعا : مشاركة المنظمات الطلابية في توجيه العملية التربوية :

يلاحظ في معظم البلاد العربية ان المنظمات الطلابية بعيدة عن المشاركة الفعلية في توجيه المؤسسات التعليمية وعدم احترام آرائها حول المشاكل البيداغوجية المطروحة ، حيث ان كثيرا من مؤسسات التعليم يسود فيها مفهوم روح التعالي حيث لا زالت تتمسك بالمفهوم التقليدى في ادارة المؤسسات التعليمية .

ان الديموقراطية في التعليم في عصرنا الحاضر تأخذ بعين الاعتبار دور الطلاب وذلك عن طريق منظماتهم ولجانهم التربوية ، في تطوير التعليم وانظمته وتحديثه واصلاحه اذا تطلب الامر ،

Digitized by Birzeit University Library

لان الطلاب هم موضوع العلم والمعرفة، والعملية التربوية في اية مؤسسة تربوية هي عملية موجهة لتكوين الطلبة، لذلك فان مشاركتهم الفعالة في قيادة المؤسسات التعليمية وتمثيلهم على جميع مستويات ادارة المؤسسات التعليمية اصبح امرا ضروريا ومفروغا منه وفوائده لا تحصى، فالعملية عملية ديالكتيكية ولكن يجب الحذر ان لا تتحول العملية التربوية الى عملية موضوعية فالصراع والضبط امران مرافقان وضروريان .

رابعا . العلاقة ما بين المعلم والمتعلم :

ان الديموقراطية في التعليم تتضمن ايضا تغيير العلاقة ما بين المعلم والمتعلم ،فالعلاقة القديمة يجب اعادة النظر فيها لانها تتغافل ذاتية المتعلم وقائمة على الخضوع والسيطرة والسلطة .

ان المعلم مدعو ايضا بالاضافة الى تلقينه وشرحه للمعلومات ان يكون مرشدا وناصحا وان يفتح الحوار الواعي بينه وبين ~~تلاميذه~~ ويساعدهم على تقليب وجوه الرأى في المسائل المطروحة وان يخصص كثيرا من الجهد والوقت للفعاليات المنتجة الخلاقة . " فالتعليم المثالي كما هو معلوم هو الذى يتجه للفرد ويركز اهتماما كبيرا على العلاقة ما بين المعلم والتلميذ " (٢٧) .

بعد هذا العرض للاسس المتعلقة بديموقراطية التعليم ، فلا بد من الاشارة الى ان الديموقراطية في التعليم لا بد ان تقترن بتربية سليمة، أى ليس بالجوانب الكمية فقط من التعليم ، بل بالجوانب النوعية ايضا، لانه بدون ذلك تفقد مضمونها ولا تتحقق بشكل سليم ، وربما تقود الى الفوضى. ان المحافظة وتطوير الجانب الكيفي في العملية التربوية مهم جدا وله انعكاسات كبيرة ومهمة على شخصية الانسان العربي مغربا ومشرقا ، فرفع الجانب النوعي في التربية والتعليم يؤدى الى رفع كيف الجماهير ايضا من نواحي متعددة . ولكن كيف نحقق تربية سليمة وتعليم سليم، وخاصة اذا كانت الطبقات والفئات الاجتماعية المختلفة متفاوتة في المستوى الثقافي والتربوى والعلمي نتيجة ان العلم والثقافة كانا ولا يزالا في بعض الدول حكرا لطبقة او فئة اجتماعية معينة؟ لذلك فان تغيير مفهوم التربية والتعليم الكلاسيكي مرتبط بالخصائص الجديدة للديموقراطية والمرتبطة بمفاهيم العدالة والمساواة وتكافؤ الفرص في جميع مجالات الحياة والتي تتلاءم مع مبادئ حقوق الانسان . هذا بالاضافة الى وضع استراتيجية تربوية تتفق والكثرة الحاصلة في اعداد وتهيئة من هم في سن التعليم ، وفي المراحل التعليمية المختلفة، بدون انكار التطور الذى تحقق في مجال التربية والتعليم في العالم العربي في النصف الثاني من القرن العشرين الا ان هذا التطور وهذه المنجزات الهائلة بقيت في بعض الدول العربية دون الوصول الى المستوى المطلوب، فعلى الرغم من زيادة اعداد المسجلين في مراحل التعليم المختلفة في يومنا هذا اذا ما قيس بالنسبة للخمسة عشر سنة الماضية ، الا ان العامل الديموغرافي والمتمثل في التفجر السكاني الهائل جعل النسب في الانتساب الى مراحل التعليم المختلفة تتراوح في مكانها او تزداد زيادة بسيطة جدا ،مما جعل المشاكل التعليمية المطروحة سابقا والان هي نفس المشاكل وتنتظر الحلول السليمة .

Digitized by Birzeit University Library

الهوامـــــش :

١) الثقافة الجديدة ـ بغداد ـ عام ١٩٧٤ عدد ٥٨ صفحة ٥٣ ـ ٥٤ .

٢) د . جمال صليبا ـ مستقبل التربية في العالم العربي ـ مكتبة الفكر العربي الجامعي ، منشورات عديدات ـ لبنان بيروت ١٩٦٧ ص ٢٥٥ .

٣) التربية الجديدة ـ مكتب اليونسكو الاقليمي للتربية في البلدان العربية ـ عمان ـ عدد رقم ١٥ السنة السابعة عام ١٩٧٦ ص ١٠٩ .

٤) تعليم الجماهير ـ مجلة المنظمة العربية للثقافة والعلوم ـ عام ١٩٨٠ ـ السنة السابعة عدد رقم ١٦ ص ١٧ .

٥) التربية الجديدة ـ مرجع سابق ص ١٠٩ .

٦) تعلم لتكون ـ اللجنة الدولية للمهوض بالتربية) ـ اليونسكو ـ ايدجار فور ـ فيليب هيربرا ـ عبد الرزاق قدورة ـ هانري لوبس ـ ارثر نيروفسكي ـ مجيد رحمانة وفردريك وورد ـ ترجمة حنفي بن عيسى ـ ١٩٧٦ ص ٧٨ ـ الجزائـــر .

٧) همزة الوصل ـ مجلة التكوين والتربيـة ـ وزارة التربية في الجزائر ـ عدد رقم ١٢ عام ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ . ص ٥٧ .

٨) همزة الوصل ـ المرجع السابق ص ٥٤ .

٩) تعلم لتكون ـ مرجع سابق ـ ص ١٢٦ .

١٠) الظليعة ـ مقال حول التعليم في مصر ـ د . محمد الهادي عفيفي ـ القاهرة نوفمبر ١٩٧٤ ـ السنة العاشرة ـ ص ٨٨ .

١١) مجلة التربية الجديدة ـ مرجع سابق ص ٢ .

١٢) مجلة التربية الجديدة ـ مرجع سابق ص ٢ .

١٣) مجلة التربية الجديدة ـ مرجع سابق ص ٢ .

١٤) مجلة صامد الاقتصادي ـ السنة الثالثة ـ عدد رقم ٢٣ عام ١٩٨٠ ص ١٠٢ .

١٥) المرجع السابق ص ٨٦ .

١٦) المرجع السابق ص ٧٨ .

١٧) سجلات التنمية الاجتماعية في اليمن الديموقراطية ـ وزارة الاعلام عدن ١٩٧٨ ـ ص ٧٩ .

١٨) هاي صدى ـ مجلة صامد الاقتصادي ـ عدد ٢٢ ـ السنة الثالثة تشرين ثاني ١٩٨٠ ـ ص ٢٢ بيروت .

١٩) الثقافة الجديدة ـ بغداد ـ مطبعة الرواد عدد ٥٨ عام ١٩٧٤ ص ٥٥ .

٢٠) المرجع السابق عدد ٢ شباط ١٩٧٨ ص ٧٠ .

٢١) التربية الجديدة ـ مرجع سابق ص ١١٧ ، و ص ١٣٥ .

٢٢) المرجع السابق ص ١١٧ و ص ١٣٥ .

٢٣) د . عبد الهادي خلف ـ مشكلات تعليم المرأة في الخليج العربي ـ الفكر العربي ـ طرابلس ـ ليبيا عدد ١٩ السنة الثالثة ـ كانون ثاني ـ شباط ١٩٨١ ص ٢٢٤ .

٢٤) د . عبد العزيز عبدالله الجلال ـ تربية اليسر وتخلف التنمية ـ عالم المعرفة ـ الكويت ١٩٨٥ ص ٣٤ .

٢٥) أعداد شخصي من الاحصائيات الصادرة عن مكتب اليونسكو الاقليمي للتربية في البلاد العربية عدد رقم ١٥ ص ١٥٥ عام ١٩٨٠ .

٢٦) التركيب الطبقي للبلدان النامية ـ تأليف عدد من الاساتذة السوفييت وزارة الثقافة ـ دمشق ـ عام ١٩٧٢ ـ ص ١١ .

٢٧) دراسات عربية ـ مقال بقلم د . زكي الجابر ـ السنة ١٩ العددان ٢٠١ ١٩٨٢ ص ٩٣ .

Digitized by Birzeit University Library

مقاطعة المنظمات الأميركية التطوعية الخاصة في المناطق المحتلة، هي الكفيلة باحباط الدور المشبوه الذي تحاول أن تلعبه

بقلم : عيسى سامي

يلاقي موضوع التنمية او " التطوير" للمناطق العربية المحتلة اهتماما متزايدا في هذه الايام . واشد ما يكون هذا الاهتمام وضوحا عند الساسة الاميركيين الذين يتحدثون عن تحسين ظروف الحياة في المناطق المحتلة بواسطة المساعدات التطويرية، دون ما نظر باى شكل من الاشكال الى موضوع ازاحة الاحتلال عن كواهل ابناء هذه المناطق . ويشارك الساسة الاميركيون اهتمامهم هذا . رجال الدولة الاسرائيليون الذين ادلوا بتصريحات مشابهة بهذا الشأن ، في نفس الوقت الذى طالبوا فيه بزيادة المساعدات الاميركية لهم ، اما النظام الاردني ، فلا يقف موقف المتفرج، وانما يبشر بخطة لتنمية المناطق المحتلة خاصة به .

ان صدور هذه الدعوة العلنية لتطوير المناطق المحتلة وتنميتها من قبل جهات لا تحلم بالخير لسكان هذه المناطق وتقف موقفا معاديا لتطلعات الشعب الفلسطيني وآماله الوطنية قد اثار النقاش بين المواطنين في هذه المناطق حول الدور الذى تلعبه الجمعيات الاميركية الخاصة والتي يجرى تمويلها من قبل وكالة التنمية الدولية " الايد "

اما رد الفعل الفلسطيني تجاه هذه المنظمات التي تمولها الايد (AID) في المناطق المحتلة فلم يكن حتى الان متجانسا .

فبينما يدعي البعض انه ليس هنالك م
غضاضة من تقبل المساعدات الامريكية التق
طالما انها ليست مشروطة : . ويحاجي
قائلين: اين الخطأ في مساعدة المزارعي
على شراء المعدات الجديدة ، وفي تجهي
المراكز الصحية ورياض الاطفال ، وفي تدري
المواطنين وبناءشبكات المياه والمجارى . الخ

اما الجماعات الفلسطينية التي تعار
هذه المنظمات الامريكية الخاصة، الت
تمولها وكالة التنمية الدولية الايد (AID)
فتبني معارضتها على اسس عامة سليمة، م

Digitized by Birzeit University Library

ذلك ان هذه المنظمات انما هي منظمات تخضع لدولة الولايات المتحدة الامريكية وهي بذلك انما تستهدف في كل ما تقوم به خدمة مصالح الامبريالية الامريكية ؟.

وبالرغم من صحة وسلامة هذا الموقف تجاه هذه المنظمات ، الا ان الامر مع ذلك يحتاج الى تحليل للاساليب الاساسية التي تعتمدها في الواقع وكالة التنمية الدولية " " الايد والتي تستهدف خدمة المصالح الامريكية، حتى تتبين الغالبية العظمى من المواطنين وتقتنع بصحة الموقف المعارض لهذه المنظمات ، ذلك انه من دون توضيح هذا الامر، فان المصالح الفردية، ومصالح المؤسسات الخاصة ، ستطفو على السطح وتحتل موقع الصدارة على حساب الاعتبارات السياسية الاساسية التي ستبدو حينئذ مثالية فاقدة لمبرراتها، وتتحول نشاطات هذه الجمعيات الامريكية في نهاية الامر الى معول اخر . يستهدف شق صفوف الشعب الفلسطيني .

سنحاول في هذا المقال مناقشة الحجج التي يجرى على اساسها تبرير الموقف المعارض للتعامل مع هذه المنظمات :

أ ـ تقوم هذه الجمعيات الامريكية بتمويل الاحتلال .

ب) تلعب هذه الجمعيات دورا مخربا بين صفوف المواطنين .

ج) يراقب عمل هذه الجمعيات مباشرة من قبل موظفين رسميين تابعين للحكومتين الامريكية والاسرائيلية ، وهي لا تساعد الا تلك المؤسسات والمشاريع التي يوافق عليها هؤلاء الموظفون .

د) خصص لهذه الجمعيات الامريكية دور سياسي محدد عليها ان تلعبه في تطبيق مشروع الادارة الذاتية في المناطق المحتلة .

تمويل الاحتلال :

تقوم الجمعيات الامريكية الخاصة العاملة في المناطق المحتلة بتسريب مبالغ كبيرة من اموالها التي تزودها بها ـ ـ الى قطاع الخدمات في الضفة والقطاع. ومن المعروف ان مسؤولية تمويل مشاريع هذا القطاع والذي عمدت السلطات على اهماله بشكل منهجي، تعود على سلطات الحكم العسكرى والادارة المدنية

وعلى ذلك فان القول بان هذه الجمعيات تقوم بمساعدة الاحتلال على تمويل مشاريع تدخل ضمن مسؤولياته ، هو قول يصيب كبد الحقيقة.

وقد اشار الباحث الاسرائيلي ميرون بنفستي في معرض تقييمه لعمل هذه المؤسسات بين سنوات ٧٧ ـ ٨٣ ، الى ان الجزء الاكبر من المشاريع التي نفذتها ، اتجه الى قطاع الخدمات وبشكل خاص تعبيد الطرق والاشغال العامة ، وقد بلغت نسبة المشروعات من هذا النوع ٤٤ / من مجموع المشروعات التي نفذت خلال السنوات ، رغم انها لم تشكل سوى ٢٣ ./ فقط من برنامج المشروعات الاصلي قبل عرضها على السلطات

ان التدخل الاسرائيلي في تقرير المشروعات، له دور حاسم، وهذا التدخل يسهم في حل مشكلة الادارة المدنية الاسرائيلية فيما يتعلق بتقديم الخدمات التي هي مسؤوليتها الاصلية، من خلال الاستفادة من اموال هذه المؤسسات لتنفيذها، وتنفيذ

Digitized by Birzeit University Library

شبكة طرق واسعة، تخدم المستوطنات ايضا.

التخريب والتبعية :

الذى لا شك فيه هو ان الجمعيات الامريكية الخاصة تلعب دورا هاما في التشجيع على صنع الشعور بالتبعية وعقلية الاتكالية لدى الناس في المناطق المحتلة . وخصوصا في قرى الضفة الغربية . فقد منحت هذه الجمعيات قروضا للافراد دون رقابة او اشراف الامر الذى ترتب عليه اساءة استغلال هذه القروض من قبل هؤلاء الافراد . اما على مستوى المؤسسات فلا يخلو الامر من قصص تتردد في قرى الضفة الغربية عن كيف قام بعض الوجهاء في هذه القرى بعقد صفقات مريبة مع المسؤوليين في هذه الجمعيات حتى غدت الروايات التي يتداولها الناس عن الفساد المستشرى بسبب القروض التي تمنحها هذه الجمعيات وكأنها امر " مرافق" لهذه القروض ، بل هو القاعدة التي تحكمها .

ولقد بلغ الامر في العديد من القرى ، ان اصبح النهج المتبع للحصول على هبة من هذه الجمعيات هو مجرد الذهاب والتلطع على ابواب المسؤولين فيها . وبينما يتطلب الوضع دون شك برامج تطويرية متخصصة في المناطق المحتلة، فان محصلة الممارسات التي تقوم بها هذه الجمعيات انما هي خلق التبعية لدى الناس م والعقلية الاتكالية . ان العمل من اجل تطوير المجتمع يجب ان يتوخى تشجيع المبادرة والاعتماد على النفس لدى المواطنين لا تدجينهم وزرع الشعور بالتبعية والاعتماد على الاخرين لديهم .

الاشراف والرقابة :

يترتب على الجمعيات الامريكية الخا
العاملة في المناطق المحتلة ، ان تعرض
اقتراحاتها الخاصة بالمشاريع التي تر
مساعدتها ، على وكالة التنمية الدولي
الامريكية " " في واشنطن وظر
سلطات الاحتلال العسكرية الاسرائيلية

ويفرض الاسلوب المتبع للموافقة على هذ
الاقتراحات قيودا شديدة على الطريق التي
تستطيع هذه الجمعيات العمل بموجبها . كل
بتفنستي اول من فضح هذه القضية فيما يس
ان السلطات انما توافق على منح القروض ل
الهيات للمشاريع الخدماتية دون المشاري
الصناعية التي تخدم البنية التحتية للمناط
المحتلة . غير ان التحيز للمشاريع الخدماتي
هذا ليس فقط الا احدى المشكلات التي
تفرضها السلطات المحتلة بتقييدانها . ان
اذا ما كان العمل لتطوير المجتمع، يعني
تنظيم المبادرات الذاتية ، والمساعدة على
دعم وتعميق جذور المنظمات المحلية
وتشجيع المؤسسات الفلسطينية المستقلة
ومحاربة العقلية الاتكالية والشعور بالتبعية
انه اذا كان الامر كذلك فانه، لا مكان هنالك
للجمعيات الامريكية الخاصة التي لا تستطيع
ان تقوم بتطوير المجتمع في هذا المناخ .

ان الجماعات المحلية التي يمكنها ان
تلعب دور الشريك في هذه المشاريع ـ الحرك
الشعبية ـ لا يعترف بها الاسرائيليون فاذا
ومن الواضح فان السلطات الاسرائيلية
تسمح بمساعدة هذه الجماعات .

Digitized by Birzeit University Library

ومن هنا نجد انفسنا وقد اقتربنا من احدى القضايا الاساسية وهي : لمن تقدم الوكالة الدولية الامريكية " " مساعدتها ؟ وعلى العموم فالاجابة على هذا السؤال واضحة : ان الايد " " تقدم مساعداتها للمو سسات والافراد الذين ترضى عنهم سلطات الاحتلال الاسرائيليـة . ان الجزء الاعظم من اموال الايد " " انما يلتهمه قطاع الخدمات الحكومي ، والقطاع الزراعي وقطاع الجمعيات الخيرية ، وجيوب بعض وجهاء المزارعين . وحتى على مستوى القرية نفسها ، فان الوجهاء المتنفذين التقليديين في القرية الذين ترضى عنهم سلطات الاحتلال هم الذين ينالون المساعدة من الجمعيات الامريكية دون غيرهم من الوطنيين . والاسباب التي تكمن وراء موقف سلطات الاحتلال هنا لا تحتاج الى تفسير . هناك بالطبع اسباب سياسية قوية هي التي تدعم الموقف الاسرائيلي ليتغاضى عن تقديم المساعدات للجهات التي اتينا على ذكرها .

اذن فالرقابة المفروضة على المساعدات التي تقدمها الجمعيات الامريكية تحدد لها بشكل صارم المؤ سسات والافراد التي تمنح لها هذه المساعدات .

الدور السياسي الذى تلعبه الجمعيات الامريكية في المناطق المحتلة

انه يجب النظر الى الدور الذى تلعبه الجمعيات الامركية الخاصة في المناطق المحتلة من حيث علاقته بالموقف السياسي العام في المنطقة.

وقد اشارت المحاضرة التي قدمها موريس درايبر(القنصل الامريكي العام) في الجامعة العبرية بالقدس في شهر اب ١٩٨٦م ، الى ملامح التوجه الجديد للجمعيات الامريكية وعلاقة ذلك بالنظرة الجديدة لاوجه الدعم والفئات التي يجب ان تستفيد منها ×. ان التطور " الاستراتيجي الاساسي الذى يسعى الاسرائيليون والنظام الاردني والامريكيون الى تحقيقه انما هو خطة الحكم الذاتي . والقضية بوجه عام انما هي تقاسم السيطرة على المؤ سسات في المناطق المحتلة بين الاردن واسرائيل بحيث يجرى تجنب خيار انشاء الدولة الفلسطينية المستقلة . وبالطبع فان الامر هنا يتطلب خلق ما يسمى " بالممثلين" للشعب الفلسطيني ، لدعم الخطة التي تستهدف في الاساس الحفاظ على الوضع القائم ـ اى احتلال اسرائيل مع تقاسم الرقابة على المؤ سسات المحلية بين الاردن واسرائيـــل .

تجمع بين الاردن واسرائيل مصلحة مشتركة هنا ، وهي الرغبة في القضاء على الهوية الفلسطينية. فالملك الاردني حسين ، ومن اجل ان يزيد من المساعدات المقدمة الى نظامه سيوالي تقديم نفسه كالداعم" للقضية العربية" (اى كبديل لمنظمة التحرير الفلسطينية) وذلك من اجل الحصول على المزيد من المساعدات من دول الخليج ومن الولايات المتحدة الامريكية .

× لمزيد من المعلومات حول ذلك راجع الكاتب عدد ٧٧ ، ايلول ١٩٨٦ م صالح ـا حمد ، التوجه الجديد لمو سسات الدعم الامريكي في المناطق المحتلة .

Digitized by Birzeit University Library

ان القضية الرئيسية التي تقف في وجه تطبيق خطة الادارة الذاتية او الحكم الذاتي هي الشعب الفلسطيني في المناطق المحتلة ومؤسساته المستقلة والمدى الذى تستطيع المؤسسات الفلسطينية ان تحافظ على استقلاليتها وان تحافظ على حريتها في وجه السيطرة الاسرائيلية اوالاردنية سيؤثر تأثيرا هاما على النتائج التي ستسفر عنها الخطة . اذ انه من الصعب التحدث عن شرعية خطة الحكم الذاتي امام العالم في الوقت الذى تعلن فيه المؤسساتالمحلية معارضتها لهذه الخطة . اما في تلك المؤسسات التي تخضع للسيطرة الاسرائيلية او الاردنية فانه يجرى خنق الاصوات المعارضة فيها . ان المعارضة الحقة تنطلق فقط من تلك المؤسسات التي ما زالت تحتفظ باستقلاليتها .

ان القطاع الحكومي، وقطاع الجمعيات التعاونية،والعديد من الجمعيات الخيرية هي الان او انها ستصبح قريبا بشكل يزيد او يقل تحت الشيطرة الاسرائيلية او الاردنية او تحت سيطرتها معا . وهذه القطاعات هي تلك بالضبط التي تقدم الجمعيات الامريكية الخاصة مساعدات لها ، ان تمويل البنية التحتية في المناطق المحتلة لا يستهدف هنا الدولة الفلسطينية وانماساعدة المؤسسات التي سيجرى استخدامها لتكريس غياب هذه الدولة

هل يمكن تشجيع الجمعيات الامريكية الخاصة العاملة في المناطق المحتلة، هل يمكن تشجيعها على دعم تلك القطاعات من الشعبالفلسطيني التي تتحلى بالقدرة على الوقوف ضد خطة الحكم الذاتي – وهي المؤسسات الفلسطينية المستقلة ومختلف الحركات الشعبية ؟ هنالك على الاقل سبل مهمان يحولان دون هذه الجمعيات والقيام بذلك . الاول الرقابة التي تفرض على هذه الجمعياتفيودا يجعل من امر مساعداتها مجرد دعم لا يتعدى حدود الكلام . الامرالذي يتطلب من هذه الجمعيات محاولة التستر على اهدافها السياسية التي تسعى الى تحقيقها بمساعداتها وذلك بالظهور بمظهر المحايد. والسبب الثاني والمميت ، فهو ان اى تعاون وثيق بين هذه الجمعيات وبين المؤسسات والجمعيات والمنظمات الفلسطينية المستقلة في المناطق المحتلة يعرض استقلالية هذه المنظمات للخطر . ان ايجاد اية علاقة مادية بين الايد " "وبين الجماعات المستقلة في المناطق المحتلة سيمهد الطريق لفرض الرقابة على هذه الجمعيات وبالتالي السيطرة عليهـــا .

ومع كل هذا فاننا نجد بعضهم ما زال يدعي ان بوسعه اخذ اموال من الجمعيات الامريكية والحفاظ في نفس الوقت على استقلاليته ، ونقول لهؤلاء انه ليس من السهل الاستهانة بتأثير الروابط التي تفرضها القروض المادية .

لماذا تجب مقاطعة هذه الجمعيات؟

ان الموقف السياسي الجماعي هو الموقف الذى نحتاج اليه في التحليل النهائي تجاه الجمعيات الامريكية الخاصة، ذلك ان القضايا الرئيسية هي اساسا قضايا سياسية وجماعية، وان القول بأن هذه الجمعيات يمكن ان تكون ذات فائدة ما دامت لا تسيطر على المؤسسات الفلسطينية ينطوى على اوجه ضعف متعددة . اولا فان اسرائيل سوف لا تسمح لهذه

Digitized by Birzeit University Library

الجمعيات بتقديم مساعدات ذات جدوى للجماعات الفلسطينية المستقلة في الوقت الذى تعمل فيه على قمع هذه الجماعات واخماد صوتها . فالمساعدات التي يمكن ان تقدمها هذه الجمعيات في هذا المجال لا بد وان تكون فقط مجرد وعود كلامية مشفوعة بخطر فرض الرقابة والسيطرة . وهذا الموقف يساعد هذه الجمعيات على التستر على دورها السياسي الاساسي .

والبديل هنا لا بد وان يكون موقفا مبدئيا واضحا ضد تواجد هذه الجمعيات في المناطق المحتلة .

واذا ما تم تبني هذا الموقف من قبل الجماهير العريضة ليس بالكلام فقط ولكن بالمقاطعة الحقيقية لهذه الجمعيات فانه سينرتب على هذا الموقف نتائج متعددة . سيطرح الدور السياسي الذى تلعبه هذه الجمعيات بوضوح وصرامة كقضية من شأنها ان تفرز ضغطا عليها لتغادر . واذا ما تحقق ذلك فان من شأنه ان يقلل من دعم هذه الجمعيات الذى تقدم للقطاع الذى تسيطر عليه الاردن واسرائيل ويزيل التأثير المخرب لهذه الجمعيات بوجه عام . وكذلك يتم الحفاظ على المؤسسات المستقلة ويمنعها من الوقوع في قبضة الوكالة الامريكية للتنمية الدولية .

ومثل هذا الموقف سيسهم في النقاش العام الخاص بالموقف الوطني المناسب تجاه خطة الحكم الذاتي ، وانه من الامور المتوقعة انه مع تزايد محاولات السيطرة على المؤسسات المستقلة في المناطق المحتلة ، فانه ستتعمق مركزية هذه القضايا . فاى صنف من هذه المؤسسات سيكون في مقدورها على المدى البعيد الحفاظ على استقلالها ؟ .

سيكون هنالك طبعا من يقول ان هذا كله مجرد بحث نظرى ، وانه في عالم الواقع فان الناس في حاجة الى الخدمات التي تمنحها الجمعيات الامريكية هذه . ومن الجدير بالملاحظة ان العديد من الحجج السياسية التي وجهت ضد روابط القرى يمكن استخدامها ايضا ضد الجمعيات الامريكية الخاصة ايضا . لقد كانت روابط القرى محاولة لدعم نفوذ اكثر العناصر رجعية على مستوى القرية عبر منح الخدمات والهبات . وليس هنالك من شك بانه كان هناك وقتها حاجة لمثل هذه الخدمات ، غير ان غالبية الشعب كانت على قناعة بالحاجة الى مقاطعة هذه الروابط لاسباب سياسية . كانت هذه الروابط مجرد ادوات للتخريب والسيطرة ونشر الفساد وعلى هذا يبرز اجماع وطني ضد هذه الروابط مما افقدها واورثها العجز .

ومع انه يوجد هنالك فروق واضحة بين الروابط والجمعيات الامريكية ، فان الرفض السياسي للنتائج التي توختها كلا الجهتين هو هو نفسه .

فلو قدر للروابط ان تنجح لاصبح لها الان قوة مؤثرة لتقسيم وحدة الشعب الفلسطيني في الريف .

ان المهمة الاساسية المطروحة الان هي العمل من اجل منع الجمعيات الامريكية

Digitized by Birzeit University Library

الخاصة من العمل كقوة تقسيم وفرقة وذلك بناء على موقف وطني اجماعي ضد تواجدو

ملاحظة :

× من ابرز المنظمات الامريكية العاملة في المناطق المحتلة بتمويل من وكالة التنمية الامريكية هي :

١) سي . دى . اف او مؤسسة التنمية الاجتماعية .
٢) منظمة الاغاثة الكاثوليكية .
٣) انيرا .
٤) اميد ايست .

Digitized by Birzeit University Library

ساندينو
بطل نيكاراغوا الوطني الخالد

بقلم : كارلوس فونسيكا *
ترجمة : محمد البطراوى

احتفل الشعب النيكاراغوى البطل في السابع عشر من تموز الماضي بالذكرى الثامنة لانتصار ثورته الشعبية بقيادة حركة المقاومة الساندينية .

يبلغ عدد سكان نيكاراغوا مليونان و ٢٣٥ الف نسمة ينحدرون من اصول عرقية متعددة ، ويبلغ عدد سكان العاصمة ماناغوا ٧٥٠ الف نسمة .

غزت اسبانيا الاراضي النيكاراغوية عام ١٥٥٢ واخضعتها لاستيطانها بعد العديد من المجازر والتصفيات لسكانها الهنود الحمر الاصليين . وقد نالت استقلالها عن اسبانيا عام ١٨٢١ ، واتحدت مع المكسيك لفترة وجيزة ، ثم مع المقاطعات المتحدة لامريكا الوسطى ، ثم اصبحت جمهورية مستقلة عام ١٨٣٨ .

احتلت القوات البحرية الامريكية نيكاراغوا عدة مرات خلال القرن العشرين ، وكان آخرها من عام ١٩٢٦ – ١٩٣٣ ، تلك الحقبة التي وقف فيها المناضل الوطني ساندينو مدافعا عن استقلال بلاده في وجه القوات الغازية .

انتخب الجنرال انستاسيو سوموزا رئيسا للجمهورية عام ١٩٦٧ فاغرق البلاد في تيارات من الارهاب والفوضى والتبعية ، فظهرت معارضة واسعة لحكمة شملت كافة طبقات البلاد تقريبا ، وفي عام ١٩٧٨ عم البلاد اضراب شامل تحول الى حالة حرب في مناغاليا في الخامس والعشرين من آب (أغسطس) من نفس العام .

وفي ٢٩ أيار (مايو) ١٩٧٩ ، اعلنت القوات الساندينية (التي اخذت اسمها من اسم البطل الوطني ساندينو) الثورة التي اطاحت بنظام سوموزا (حيث تم نفيه) في

* كارلوس فونسيكا هو رئيس اركان الثورة الشعبية الساندينية .

Digitized by Birzeit University Library

١٧ تموز (يوليو) من نفس العام .

ان شعبنا الفلسطيني لينظر بعين الاعزاز والاحترام للشعب النيكاراغوى البطل وثورته المظفرة، ويعلم تمام العلم ان كل محاولات عملاء امريكا مرتزقة الكونتراس الذين شنوا هجوما اجراميا على الحدود النيكاراغوية ابان احتفالات الشعب النيكاراغوى بالذكرى الثا لانتصار ثورته، ان شعبنا يعلم ان مصير جم المرتزقة واسيادهم ومناصيرهم الذي يدعمونهم بالمال والسلاح هم الى زوال .

ذلك حكم التاريخ تسطره الشعو بارادتها القوية، وليعش ابدا شعب نيكاراغ قويا مظفرا بثورته وقادته .

١"
رمز وطني لنضال شعوب امريكا اللاتينية

اوغستو سيزر ساندينو بطل نيكاراغوا الوطني ورمز النضال الثورى لشعوب امريكا اللاتينية، والذى تصدرت صورته قاعة المؤتمر التاريخي الاول لتضامن شعوب آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية المنعقد في هافانا في كانون الثاني (يناير) ١٩٦٨ ، جنبا الى جنب مع صورة نغوين فان تروى كرمز لنضال شعوب آسيا، وصورة باتريس لومومبا التي رمزت لنضال الشعوب الافريقية، حيث جسد هذا الثالوث النضالي ارادة شعوب هذه القارات لثلاث للتخلص من النفوذ الامبريالي واصرارها على ان تصبح الصانعة الوحيدة لتاريخها وسيدة مستقبلها .

ان بيان هافانا الاول وبيان هافانا الثاني ، هما الوثيقتان التاريخيتان اللتان صاغتهما الثورة الكوبية، لتصبحا ، كما هو معروف ، العرشد الامين للمقاتلين دفاعا عن الاراضي الامريكية اللاتينية. وفي كل من هذين البيانين يرد اسم ساندينو كدلالة على بطولة شعوبنا ، فقد جا في بيان هافانا الاول مانصه:

" يتعاظم اليوم النضال لتحرير هذه البلدان الامريكية اللاتينية ... من اعماق مناجم الفحم ومناجم الصفيح فيها، من مصانعها ومعاصر سُكّرها ، من ارضها التي نهبها الاقطاعيون ، حيث يعصف الفقر بالغواشو الرعاة والخلاسيين والفلاحين احفاد ورثة زاباتا وساندينو الذين يحملون اليوم سلاح التحرر " .

وجاء في بيان هافانا الثاني :

" جمع اليانكي الامبريالي في بونتا ديل استا المستشارين ليستنزف منهم .. خضوع الشعب للقبضة الكلية لارادة الولايات المتحدة لامريكا الشمالية، والتي حارب ضدها ببطولة قادتنا الابطال من بوليفار الى ساندينو " .

لقدتحدث عن دور ساندينو باسهاب واكمل مكمل مسيرته الامين ارنستو تشي غيفارا في كتابه " حرب العصابات" حيث يقول القائد غيفارا :

" جرى اللجوء الى حرب العصابات في امريكا في احيان متعددة، واحدث هذه الامثلة هي تجربة اوغستو سيزر ساندينو التي حارب فيها حملات اليانكي العسكرية على الاراضي النيكاراغوية " .

Digitized by Birzeit University Library

يتضح لنا بهذا مقدار المنزلة العظيمة التي يحتلها هذا البطل النيكاراغوي، الذي ناد، لفترة تزيد عن سبع سنوات تضال الثوار ضد عدوان اليانكي المسلح في الثلث الاول من هذا القرن. وعلى اى حال، فان تحليل الظروف التي اوجدت هذه المقاومة الثورية، ودراسة منجزاتها ودروسها العسكرية والسياسية المستخلصة من تلك التجربة، هو عمل يمكن اليوم القيام به. لقد بدأ الثوار النيكاراغويين انفسهم اليوم في الادراك التام لمدى ما عاناه بلدنا الصغير في مسيرته المريرة البطولية خلال الحقب الماضية.

ولعله من الاهمية بمكان ان نشير هنا الى ان شخصا لم يتنفس في يوم من الايام هواء نيكاراغوا هو الوحيد، حتى الان، الذي قام بشكل محكم ومفصل بدراسة الحقائق المتعلقة بحقبة ساندينو. انه الارجنتيني غريغوريو سلسر، مؤلف الكتب المعنونة: " ساندينو جنرال المقاتلين الاحرار " (جزءان)، "ساندينو رجل العصابات المحارب"، و " الجيش الحماسي الصغير" والتي تتناول جميعها الخصائص الهامة للمقاومة النيكاراغوية. وغني عن القول ان على الثوريين النيكاراغويين اليوم كشف وتطوير المزيد من الحقائق التي وردت في هذه المؤلفات المرموقة.

ان الاشارة الى المؤلف الارجنتيني المذكور اعلاه تقودنا الى استنتاج يجب علينا ان نذكره: لقد كان النيكاراغويون، ولسنين عديدة، يجهلون انفسهم. وقد بدأنا نحن النيكاراغويين باسترجاع بعض المعرفة بانفسنا مع انبثاق معركة التحرر الجديدة، هذه المعركة التي كانت كوبا ساحتها الاولى ونصرها الاول.

ان التعرف الكامل على انجازات ابطال الجبال النيكاراغويين، وعلى تلك الامجاد والمآسي التي عاشوها، يلزمنا بالضرورة التأكيد على الدور الذي لعبته الاوضاع الجغرافية للبلاد كبرزخ بين محيطين، وموقعها في مكان يتحتم استخدامه كممر للقوى الكولونيالية في العالم. وكذلك لا بد من الاشارة الى ثراء تربتها وخصبها وجشع وغطرسة الاوليغاركية المحلية، والى الثورات العديدة التي اصبحت سمة لفلاحيها الفقراء، والتي كانت تغرق، للاسف، في ظلام ايديولوجي كثيف ولابد من الاشارة والاعتراف بمدى الاثر الذي كانت تتركه الاحداث الجارية في العالم على هذا البلد الصغير الضيق.

ان الغرض من هذه الملاحظات هو شرح تلك الخصائص. وستقدم لنا القناعة لنعلم بأنها ستساهم، مهما كانت هذه المساهمة ضئيلة، في تحديد معالم الدرب الواثق الذي سيؤدي بنيكاراغوا الى النصر المؤكد والعدالة.

ولا بد لنا هنا من الاشارة الى ان احراز مثل هذا النصر يحتم على الانسان، ان يربط حياته التي يخاطر بها بالاهداف الوطنية التي يعمل على تحقيقها بوعي وتصميم. فنحن لا نخفي هويتنا. نحن نعمل بمبدأ القاعدة التي تقول: " بدون نظرية ثورية لا يمكن ان تكون هنالك حركة ثورية ".

ونود ان نوضح هنا ان وفاءنا الكامل لابطالنا لا يتأتى بالكتابة عنهم فقط، بل بالتمثل بهم ايضا قدوة لنضالنا، سواء اكان ذلك في الخنادق القروية او سراديب المدن.

لقد تأججت المقاومة الساندينية في الوقت الذي تزامنت فيه احداث وحقائق اساسية لها وزنها الهام. ففي العشرينات

Digitized by Birzeit University Library

كانت نيكاراغوا قد امضت فترة تزيد على قرن من الزمان وهي في ثورات وانتفاضات جماهيرية متعاقبة والتي كانت الاوليغاركية المحلية تجهضها وتخونها في كل مرة تقريبا (فمنذ عام ١٨٢٣ وحتى عام ١٩٢٦ لم تمر سنة واحدة على نيكاراغوا دون ان يراق فيها دم ابنائها سواء اكان ذلك في حرب عادية او انتفاضات عابرة). وفي العشرينات ايضا شدد اليانكي من سياسته الرامية للسيطرة على القنوات البحرية في البحار الامريكية واحتلال المواقع الجغرافية الاستراتيجية التي تحتل تلك السياسة وفي النهاية، نستطيع ان نشير الى اثر ظهور الدولة السوفييتية الفتية البعيدة، وعلى الرغم من انها لم تمارس دورا محددا في الاحداث النيكاراغوية الحاسمة الا ان اثرها لا يمكن اغفاله .

"٢"
تاريخ حافل بالاطماع الامبريالية والمقاومة

دعونا الان نلقي نظرة على اهم الاحداث البعيدة في تاريخ الشعب النيكاراغوي . وقد نوقع انفسنا في الاسهاب والتطويل، الا ان كون هذه الاحداث غير معروفة على الارجح ، يغفر لنا ، كما نأمل ، مثل هذا التطويل.

عندما غادر كريستوفر كولومبوس اسبانيا، كان يبحر باحثا ،كما هو معروف ، عن طريق جديد يصل العالم الغربي بالشرق عبر الاطلسي. وقد حطت به سفينة في رحلته الاخيرة في الاراضي التي اطلق عليها فيما بعد امريكا الوسطى. ولكن المكتشف لم يكن حينها قد توصل الى الطريق التي كان يبحث عنها، وقد جاء في رسائله الى " التاج " اثناء رحلته الرابعة حديث عن المضائق" والممرات البحرية التي كان يفترض انها تمر خلال البلاد التي تم اكتشافها حديثا .

واصل المكتشفون والمحتلون الذين جاءوا بعد كولومبوس بحثهم عن الممرات المائية الموصلة. ونجد ان من الضروري ان نشير هنا الى ان اهتمام القاصين بالقسم الذى اطلق عليه فيما بعد اسم نيكاراغوا لم يظهر الا بعد ان اكتشف فاسكو نونييز دى بالبو المحيط الهادئ . وهذا يفسر الاسباب التي دفعت هؤلاء المكتشفين للتوغل في البر النيكاراغوى قادمين من المحيط الهادئ في الغرب وليس من المحيط الاطلسي .

كان غونز اليز دافيلا هو اول المغامرين فقد اكتشف اضخم بحيرة في البلاد والتي اطلق عليها اسم بحر المياه العذبة لاتساع مساحتها . ويكتب غونز اليز الى البلاط عن الامكانيات التي يمكن ان توفرها بحيرة نيكاراغوا المائية، وبجيب الامبراطور تشارلز الخامس مبديا اهتمامه بالممر المائي الذي اطلق عليه فيما بعد اسم ربو سان خوان والذي يصل بحيرة المياه العذبة " بالحبر الشمالي " ، هذه الفكرة التي لم يكتب لها النجاح بسبب الصعوبات اللاحقة التي سببتها الغارات القرصانية المنهكة التي كانت تشنها القوى الكولونيالية الاخرى المنافسة لاسبانيا .

Digitized by Birzeit University Library

وقعت الاراضي النيكاراغوية ضحية استغلال اسوأ انواع الكولونياليين الاسبانيين منذ الحقبة الاولى لغزوها . ففي الحقيقة، تحكم في نيكاراغوا كولونياليون على اعظم درجة من الجشع بما هو معروف عن الغاصبين الاوائل الذين نطا اقدامهم اراض جديدة، ممن هم على شاكلة بيدرارياس دافيلا، الذى كان اشرّ اعماله، فضلا عن تكديس الثروة وتأكيد استبلاء ورثته من بعده على الحكم، هو قطع رأس فاسكو نونييز دى بالبو ورأس فرانسيسكو هيرناندز دى كوردوبا . من هنا نستطيع ان نضع ايدينا على الجذر الذى انبت الاوليغاركية التى ياعت، بعد قرون، نفسها حسدا وروحا الى اجشع الامبرياليين .

كانت نيكاراغوا، مثلها مثل بنما، ممرا ومركزا لانطلاق الحملات الموجهة ضد شعوب الانكا من الهنود الحمر، سكان البلاد الاصليين الذين كانت البلاد تزخر بهم، والذين تلاحقهم الحملات الاسبانية في ابشع التصفيات الدموية التي تميزت بها تلك الحملات .

لم تركع الشعوب الهندية صاغرة تحت اقدام الغزاة الكونياليين المتعطشين فقد قاومت شعوب التشونتالس والدربان والناغراندانو والماتاغاليا من اجل الحفاظ على وجودها فوق تراب وطنها، واصبح الرئيس دريانغن رمز للمقاومة الوطنية . ومع هذا، فقد ساعدت بعض الاوهام، بالاضافة الى ظروف عامة اخرى على اكتمال الغزو الكولونيالي للبلاد .. وكان احد ضحايا تلك الاوهام زعيم قبائل النيكاروس، والذى لم يكن خائنا بأى حال كما يحاول ان يظهره مزورو التاريخ النيكاراغوى، ولكنه وقع ضحية طوباوية مسالمة جعلت منه بدون جدال الجد الاول لهؤلاء المثقفين في القرن العشرين الذين مهدوا السبيل امام قتلة ساندينو .

لم يكن ساحل نيكاراغوا الشرقي المطل على الاطلنطي اكثر من معبر يجتازه الكولونياليون الاسبان ، ولذا، فقد اصبح لحقبة من الزمن خلال القرن السابع عشر ملجأ امنا للعبيد الافارقة الذين كانوا يهربون بجرأة نادرة من ربقة العبودية في مزارع الاوروبيين الواقعة في جزر الانتيل .

وبعد اندماج الكولونياليين وتقاسمهم الاراضي الوطنية ، جرى تقسيم الاراضي النيكاراغوية بين الامبراطوريتين الاسبانية والانجليزية، فكان ساحل المحيط الهادئ ووسط نيكاراغوا تحت السيطرة الاسبانية، بينما خضع الساحل الشرقي، الذى لم يعد ملجأ للعبيد الهاربين، للسيطرة الانجليزية ، حيث اسس الانجليز هناك ما اطلقوا عليه اسم " مملكة الناموس " التي لم تخرج عن كونها مملكة هزيلـــة .

ولما كانت الاراضي النيكاراغوية برزخا ضيقا يمكن الوصول اليها من بحرين، فقد عانى سكانها من غارات القراصنة خلال القرنين الاخيرين من الحكم الاسباني . وكان الهدف الاكثر تعرضا لهذه الغارات هو مدينة غراناندا المزدهرة الواقعة على اطراف بحيرة كوسيبولكا ــ التي عرفت فيما بعد باسم بحر المياه العذبة ثم بالاسم الذى لا تزال تحمله حتى اليوم وهو بحيرة غرانادا ــ وقد تعرضت هذه المدينة لاحدى عشرة غارة تدميرية خلال تلك الحقبة .

يتمتع القسم النيكاراغوى الخاضع للسيطرة الاسبانية بخصب غير عادى كان يزيد من ثراهية المندوبين والتجار . فخلال فترة السيطرة الاسبانية كانت الاراضي

Digitized by Birzeit University Library

النيكاراغوية مصدرا غنيا يقدم الذهب وسائل الانيلين والكاكاو والماشية والسكر . وقد وصفها الراهب الايرلندي توماس غيغ الذي عبرها في اواسط القرن السابع عشر عند عودته الى اوروبا بأنها " الجنة المذكورة في قرآن المسلمين " لم يلق سكان البلاد من الهنود سلاحهم ولم يتخاذلوا امام العدوان الواقع عليهم ، بل نهضوا وباستمرار للدفاع عن حقوقهم ، وكانت اول ثورة لهم بالقرب من المستوطنة التي اطلق عليها الاسبان اسم سيغوفيا ، فصدوا بجسارة اولئك المتطفلين الدخلاء المتعطشين للذهب . وفي منتصف القرن السابع عشر، فيما بعد حدث عصيان مسلح مشهور قام به الهنود في منطقة سيباكو الشهيرة . وكان التاج يتلقى التقارير الرسمية دائما عن الهجمات التي يقوم بها " هنود ماناغالبا الاشدا ".

ومن ناحية اخرى، فان عملية نيل استقلال بلدان البرزخ من اسبانيا لم تس فيها دماء كثيرة اذا ما قورنت بالكولونيالي الاسبانية الاخرى في الاراضي الامريكية، حت اذا ما اخذنا في الحسبان بعض اشكال المقاو المسلحة التي ظهرت في المقاطا النيكاراغوية والسلفادورية، مثل تلك الفتر التي امتدت لثلاثة اشهر عام ١٨١٢ حي احتل الثوار مدينة غراندا وطردوا منها مو السلطة الاسبانية المحلية . ومن الجدير بالذ هنا ان من بين الذين حافظوا على ولائه لجبروت اسبانيا في تلك الفترة كان الاسبا النيكاراغوي المولد بيدرو تشامور .

وقد ذهب الظن في بعض المناطق نتيجة للنكسات الاولى في الصراع ض السيطرة الاسبانية، الى ان استيلاء بريطا الكامل على نيكاراغوا وبنما يمكن ان يعجل في هزيمة اسبانيا المحتمة .

"٣"

مقاومة سيطرة " السادة" المحليين

تحررت نيكاراغوا وشقيقاتها بلدان بزرخ امريكا الوسطى من نير اسبانيا في ١٥ ايلول (سبتمبر) عام ١٨٢١ . وقد جرى الحاق هذه البلدان مباشرة تحت سلطان الامبراطور اوغسطين الاول ، وهو اللقب الذي اطلقه على نفسه اوغسطين دي اتورباید زعيم الزمرة الارستقراطية التي اغتصبت الحكم في المكسيك وقد عملت اشد الاوساط رجعية في امريكا الوسطى على دعم هذا الالحاق في حين ان الاوساط الاخرى المعروفة بالتزامها بالقضايا الجماهيرية انكرته ولم تعترف به. فق نيكاراغوا انفجر تمرد شعبي بقيادة الرئي الشعبي كليتو اوردونييز ضد ذلك الالحا الامبريالي . (لم يلق هذا القائد الشعبي حقه الواجب في ذاكرة تاريخ الوطن حتى يوم هذا). وقد وصل هذا التمرد الى درج الانتفاضة الجماهيرية الواسعة، فقد امتد الى عدة شهور . لقد كان عمر الالحاق بامبراطو اتورباید قصيرا جدا ، ولكن النضال المسل استمر في البلاد بعزم ومثابرة ، فالاوساط

Digitized by Birzeit University Library

الرجعية اخذت في العمل على فرض هيمنتها على البلاد . وكان كريسانتو ساكاسا يقف على راس هذه الاوساط الرجعية، كما كان والده من قبله الذى كان يفاخر بأنه اغنى القادة ، وتلك حقيقة اوصله اليها التاج الاسباني عندما منحه تصريحا باستيراد الرقيق .

رفعت الانتفاضة التي قادها اوردونييز شعار " انتهى عصر السادة" اشارة الى الالقاب التي كان الاغنياء يحملونها . وقد دمر الثوار الثارات والشعارات التي كان يزين بها الاغنياء بيوتهم والتي كانت حسب افتراضهم تشير الى اصولهم النبيلة . واندفع الفقراء من ابناء المدن وسكان الريف بأعداد كبيرة لمصادرة البضائع من مخازن كبار التجار، واستولوا على الطعام والنبيذ المخزون في اقبية بيوت الاغنياء ، واقاموا المآدب الاحتفالية في الشوارع ، والقى اورونييز القائد خطاباته الحماسية من شرفة تطل على ساحة في مدينة غرانادا . كانت المشاعر الطبقية في هذه الانتفاضة جلية واضحة ولا يمكن انكارها .

ولكن صفة الحس الطبقي زايلت اعمال العنف التي جرت في السنوات التالية وحتى منتصف القرن التاسع عشر، لتتحول الى اقتتال بين العصابات المتنافسة للاستيلاء على الصهوبات الحكومية . ونحن اذ نؤكد على الانتفاضة التي دفعت اليها عملية الالحاق بامبراطورية انورايد لاتها المؤشر المؤكد الى السمة التي اتسمت بها اعمال العنف اللاحقة في مستقبل نيكاراغوا . ومع هذا ، فان وزن المبادئ السياسية البدائية التي قامت عليها هذه الانتفاضة في فترة مبكرة، لا تصل في ميزان الصراع ، الى الثقل الذى وصل اليه ذلك الجشع العام للثروة الموروث من عهد الكولونيالية .

ان اعمال العنف التي اخذت تعصف بنيكاراغوا بعد خلاصها من اسبانيا يمكن تصورها باستذكار ما حل بمدينة ليون ، التي كانت في تلك الفترة ثاني اكبر المدن اهمية في امريكا الوسطى ، فقد تحولت بيوتها الى ركام مهدم مرتين بسبب عمليات النهب الحربية ، ومات في كل مرة حوالي ١٠٠٠ من سكانها . ويمكننا ان نتصور عظم هذا الرقم من الضحايا اذا ما علمنا ان عدد سكان البلاد كلها كان ١٥٠ الف نسمة في ذلك الوقت .

لقد تعرض سكان البلاد ، كما مر معنا ، الى عمليات الابادة على ايدى الغاصبين ، ولم تتوقف هذه العمليات بعد ذلك ، فقد تجددت ابان فترة العنف عاما بعد عام ، الامر الذى ادى الى زيادة تسلط الاوليغاركية وخيانتها ، وقد ادى هذا بدوره الى احباط الروح الجماهيرية . ولعل هذا الامر يدفعنا الى التساؤل : الا يشير هذا العامل الى سبب تعطش النيكاراغوى للترحال في البلدان ذات الانظمة المناوئة ؟ والسبب على وجه التحديد ليس بأى حال هو التعطش للمغامرة، فالديالكتيك يقودهم للتغلغل الى الجذور التاريخية والمادية لارهف الاحاسيس الانسانية في كل مجتمع يعيش حياة الجماعة .

بعد فترة وجيزة من تأسيس جمهورية نيكاراغوا الاسمية ، كان عليها ان تشكل مع اجزاء البرزخ الاربعة الاخرى دولة واحدة . وعلى مثل هذا الوضع كانت البلاد عندما اعلنت الولايات المتحدة الامريكية في الثاني من كانون الاول (ديسمبر) ١٨٢٣ مبدأ مونرو الشهير الذى رسمت بموجبه المبادئ الاساسية لعلاقاتها الدولية . وكانت الاحتكارات الامريكية المتمثلة في شركة اروين

Digitized by Birzeit University Library

بالمر وشركة السفن الامريكية الاطلنطية الياسيفيكية ، وشركة قناة نيكاراغوا وشركة الترانزيت للمعدات ، موجودة في نيكاراغوا خلال القرن التاسع عشر ، وقد ابدت هذه الاحتكارات اهتماما بالغا بالبرزخ النيكاراغوى ، حيث اصبح هنالك اجماع قوى بامكانية شق قناة تصل المحيطين احدهما بالاخر عبر الاراضي النيكاراغوية ، وهي الفكرة التي دعا اليها الكسندر هامبولدت الذى حدد تسعة مواقع لشق تلك القناة في اراضي امريكا الوسطى ، وكانت فكرة قناة نيكاراغوا اكثر رواجا

تعاون مسؤلو حكومة امريكا الوسطى الفدرالية (امثال انطونيو كانياس عام ١٨٢٥ وخوان دى ديوس ميورغا عام ١٩٢٨ وم ج. ابارا عام ١٨٣٠ وفيليب موليتا عام ١٨٣١) مع ممثلي حكومة الولايات المتحدة الامريكية ، وكانوا ضائع لسياستها الرامية الى فتح قناة المحيطين . لقد اصبح من الواضح تماما ان انظار حكام الولايات المتحدة تركزت نحو امريكا الوسطى طيلة الفترة التي تلت مباشرة اعلان مبدأ مونرو ، وكانت نيكاراغوا هي الرقعة المركزية التي استقطبت بالغ الاهتمام .

يتبين لنا مما اوردناه هنا ان حلول القوة الامريكية الشمالية مكان الامبراطورية الاسبانية في السيطرة على بلدان امريكا الوسطى ، قد حدث بعد استقلال هذه البلدان عن اسبانيا مباشرة . ولكن هذا لا يعني نهاية التنافس بين القوى الكولونيالية على هذه البلدان ، ففي عام ١٨٣١ منحت حكومة امريكا الوسطى المركزية امتيازا بشق القناة لشركة هولندية ، ومع ان الشركة الهولندية لم تظهر اى نية للمباشرة في العمل ، الا ان منح الامتياز لها اثار حسد واطماع الولايات المتحدة . وقد ابدى الرئيس جاكسون عام ١٨٣٥ كما ابدى

خلفه من بعده الرئيس فان بورين اهتماما جديا بمشاريع القناة . وفي عام ١٨٣٧ قدم مندوب امريكا الشمالية ستيفن تقريرا ينصح فيه باقضلية شق القناة في نيكاراغوا عنها في بنما.

ولا تتوقف اطماع القوى الرأسمالية في الاستيلاء على برزخ امريكا الوسطى عند حد طيلة القرن . وفي هذا الوقت الذى كانت فيه بلدان امريكا الوسطى في امس الحاجة للوحدة القوية ، ظهر القائد فرانسيسكو موارزان المولود في هندوراس ، والذى كرس كل جهوده الفعالة وفكره المشرق من اجل وحدة الاجزاء الخمسة من البلاد ، فحمل السلاح محاربا من اجل هدفه العظيم ، ولكن حياته واحلامه انتهيا بسرعة عندما نفذ فيه حكم الاعدام في ١٥ ايلول (سبتمبر ١٨٤٢) ، تاركا للاجيال من بعده وصيته التي اوصاها وهو يواجه الموت بشجاعة :

" اتوجه الى الاجيال الشابة داعيا اياها ان تهب الحياة لهذا الوطن الذى اتركه والاسى يملؤني لانه لا يزال يعيش في فوضى سياسية ، وادعو هذه الاجيال المقدامة لان تسير على نفس الدرب الذى سرت عليه والموت بحزم وصدق ، وان لا يتركوه للفوضى التي لا تزال ، للاسف ، تعشش فيه في وقتنا هذا " .

ومع اقتراب اواسط القرن التاسع عشر ازدادت حمى الصراع بين القوى الامبريالية للاستئثار بامتياز قناة المحيطين ، وكان من بين هؤلاء الذين اجتذبتهم الاطماع نيكاراغوا الامير الفرنسي لويس نابليون بونابرت ، الذى حمل فيما بعد اسم نابليون الثالث ، فقد حاول فرض سلطانه على المكسيك ، واصدر عام ١٨٤٦ دراسة حول مسألة شق قناة تصل المحيطين عبر الاراضي النيكاراغوية .

يظهر اول تدخل رسمي لليانكي في

Digitized by Birzeit University Library

نيكاراغوا في الاتفاقية التي وقعها الامريكي الشمالي براون عام ١٨٤٧ مع الحكومة النيكاراغوية . وفي عام ١٨٤٨ تم توقيع اتفاقية اخرى ، تلتها اتفاقية ثالثة عام ١٨٤٩ ،ومن الطبيعي ان تكون جميع هذه الاتفاقيات ذات اضرار فادحة بالمصالح النيكاراغوية الوطنية . وكان اهتمام الولايات المتحدة في عام ١٩٤٨ بايجاد سبيل للمواصلات بين الشاطئ الشرقي والشاطئ الغربي غير عادى ففي نفس هذا العام تم اكتشاف الذهب في كاليفورنيا ، واصبح هذا العام هو عام " حمى الذهب . ونيكاراغوا تملك الامكانيات الطبيعية لان تكون سبيل الاتصال ففيها شبه قناة طبيعية بشكلها نهر ريو سان خوان الصالح للملاحة والمتصل ببحيرة غرانادا التي يبعد شاطئها الغربي ١٥ كيلو مترا فقط عن المحيط الهادئ .

وفي سنة ١٨٤٨ ذاتها تسقط مدينة سان خوان (التي اطلق عليها الانجليز اسم غرى تاون) الواقعة على مصب نهر ريو سان خوان في قبضة الانجليز ، ويمدد الانجليز حمايتهم لـ ملك" منطقة الناموس .

اصبح من الواضح ان هذه السنوات كانت بداية لسلسلة من التدخل على مختلف الاشكال مارسها اليانكي ليحيل بها الحياة النيكاراغوية الى عهود من الظلمات .

وفي اواسط القرن التاسع عشر اصبحت المناطق الواقعة حول حوض الكاريبي (امريكا الوسطى وبنما وجزر الانتيل ونكساس) والمناخة للحدود الجنوبية للولايات المتحدة اولى ضحايا التوسع المتزايد الذى بلغ اوجه في القرن العشرين في ظل الجبروت الامبريالي الذى اتى بالانسانية كلها اعظم الكوارث والنكبات .

ارسلت الولايات المتحدة عام ١٨٤٩ ممثلا دبلوماسيا لها في نيكاراغوا هو جورج ى. سكوايز الذى امضى عاما كاملا في البلاد . وقد نشر هذا المبعوث في عام ١٨٥٢ اول دراسة تتعلق بنيكاراغوا . وقد جاء في كتابه هذا عند حديثه عن السهول الخصبة لساحل المحيط الهادئ قوله :

" سأطلق لخيالي العنان ، متصورا هذه السهول في ايدى عرق من البشر نشيط ومغامر ، وقد ازدهرت بالمدن وغصت باغنى ثمار الطبيعة ، واسأل نفسي هل سيتمكن جيلنا من ان يشهد مثل هذا التغيير . ولم لا ؟ فلينظر المتشككون من جبل هذه الحقبة الاولى من النصف الثاني للقرن التاسع عشر ، وليديروا انظارهم نحو شواطئ خليج سان فرانسيسكو (كاليفورنيا) ، ولندعهم ليتذوقوا طعم هذه الحقيقة .. ليتقلبوا وادعين " .

وقد شكلت بعثة سكوايز العامل الحاسم في توقيع معاهدة كلايتون ــ بولوار والتي اتفقت بموجبها كل من بريطانيا والولايات المتحدة ،متجاهلتين سيادة نيكاراغوا ، حق الاشراف على المواقع الجغرافية في امريكا الوسطى ، وبخاصة الاشراف على الاراضي النيكاراغوية . وقد تبع هذه المعاهدة معاهدتان اخريان تكملانهما معاهدة وبستر ــ كراميتون عام ١٨٥٢ ومعاهدة دالاس ــ كلارندون عام ١٨٥٦ .

وتسير بخطى واسعة ابتداء من عام ١٨٥١ وما بعده عمليات استغلال اليانكي للامكانيات الجغرافية النيكاراغوية التي تستطيع ان توفر عملية الاتصال بين البحرين ، وتقوم في هذا العام ذاته شركة الترانزيت للمعدات ، التي يملكها الرأسمالي فاندربلت ، بعمليات الشحن

Digitized by Birzeit University Library

عبر البرزخ النيكاراغوى .

ونتيجة للخلافات بين انجلترا والولايات المتحدة للسيطرة على البرزخ، قام اليانكي باول هجوم مسلح لهم على نيكاراغوا في التاسع من تموز (يوليو) عام ١٨٥٤ ، فقد قامت السفينة الحربية " سايين " بقصف ميناء سان خوان ديل نورتي بمدفعيتها لتتركه رمادا . واستكمالا لما حدث ترسل حكومة الولايات المتحدة طلبا مهينا مثيرا للسخرية والاسى، تطلب فيه مبلغا — وهل يمكن تصور ذلك ؟ — مقداره ٢٤ الف دولار كتعويض لها عن تكاليف هجومها وخسائره .

Digitized by Birzeit University Library

المعضلات العالمية وتقدم البشرية اجتماعيًا

فاديم زغلادين ـ دكتور في العلوم الفلسفية

تحظى التفاعلات الحية والضخمة الجارية في الاتحاد السوفياتي، يوما بعد يوم بمزيد من الاهتمام في مختلف اوساط الرأى العام ووسائل الاعلام في بلدان العالم المختلفة. واذ تعكف وسائل الاعلام الامبريالية، على تشويه العملية الجارية في الاتحاد السوفياتي، نتيجة الحرج المتزايد الذى تسببه لها الهجوم السلمي السوفييتي، والتطوير الحي لمبادئ واصول الديموقراطية الاشتراكية، والتوجه المثابر لرفع مستوى الشعب والشغيلة الاقتصادى والاجتماعي، والذي ينطلق من ان الانسان هو الهدف السامي للاشتراكية، فان بعض ابواق الدعاية المحلية، في المناطق المحتلة، آثرت لنفسها الانضمام الى ـ جوقة التحريض والتشكيك في مواقف الاتحاد السوفياتي وسياساته. واذ لا يفاجئنا ذلك، خاصة وان مصادر العديد من المقالات التي ترد على صفحات بعض الصحف المحلية، تصلها من خلال النشرات الاعلامية التي يتولى توزيعها القنصلية الامريكية في القدس، فان المغزى السياسي الذى تريد هذه المقالات ايصاله للقارئ، هو خلق الشكوك في موقف الاتحاد السوفياتي، من اجل تسهيل الانضمام الى مسيرة الحل الامريكي ـ الاردني.

ان الكلمات الروسية الجديدة التي غزت قواميس العالم هذه الايام، نوفي ميشلينا، وجلاستسن، وبرستيورتا، اى التفكير الجديد، وتوسيع العلنية، واعادة البناء، هي حصيلة جملة واسعة من الدراسات والاختبارات العملية للمجتمع الاشتراكي، وهي تطور حي وخلاق لمبادئ وافكار ثورة اكتوبر الاشتراكية.

Digitized by Birzeit University Library

ومن اجل عرض حقيقي للاسماء والمنطلقات النظرية والعملية للتغيير الجديد، في الاتحاد السوفياتي، ستعكف الكاتب ابتداء من هذا العدد وحتى حلول تاريخ الذكرى السبعين لثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى، بتخصيص زاوية لعدد من المقالات المختارة تعريفا لقارئنا المحلي، بالتطوير الحي النظرى والعملي، الذى يرتسم ملامحه في وطن اكتوبر، وقد اختارت الكاتب ان تبدأ بالمقال الذى كتبه عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي، الباحث المختص، فاديم زغلادين والذى يشرح الاسس النظرية للتفكير الجديد السوفييتي، في النظر للقضايا العالمية .

(١)

شهد علم دراسة القضايا العالمية في الاتحاد السوفييتي خلال السنوات الاخيرة تطورا ملموسا .وهذه الحقيقة التي تقرها الاوساط العلمية السوفييتية والعالمية ليست وليدة المصادفة بتاتا . على العكس ، انها انعكاس لحاجة ملحة من احتياجات تطور بلادنا الاقتصادى الاجتماعي الداخلي ونشاطها الدولي على السواء .

في حقيقة الامر ان تطور الثورة العلمية التقنية العاصف قد ادى الى خرق معين لتوازن الطبيعة في العديد من مناطق بلادنا ،والى تأزم مجموعة التناقضات التي يجمع بينها مفهوم " المشاكل الايكولوجية". ويهاب بالمجتمع الاشتراكي الذى يتطور على اساس مبرمج ويراعى ليس فقط احتياجاته الراهنة، بل والمستقبلية ايضا ، ان يتخذ التدابير الكفيلة بتسوية وحسم هذه المشاكل . لقد جاء في الصيغة الجديدة لبرنامج الحزب الشيوعي السوفييتي : " ان التفاعل المتناسق بين المجتمع والطبيعة، بين الانسان والبيئة يكتسب مزيدا من الاهمية في تحسين ظروف حياة الشعب "(١).

وعلى صعيد آخر ، ان تأزم المشكلات الايكولوجية على النطاق العالمي، وفي الوقت ذاته ، الطابع الحرج حقا الذى اكتسبته الفجوة التي تزداد عمقا في مستويات تطور البلدان المستعمرة في الماضى والبلدان الرأسمالية الصناعية ، والمشكلة السكانية والمشكلة الغذائية المرتبطة بها ، وأزمة الطاقة

، واخيرا ـ المعضلة العالمية الاولى، و
بها قضية تفادى الحرب، وخفض وايقاف
الكارثة النووية الحرارية العالمية الذى
وليد سياسة الامبريالية ، ـ ان كل هذا
قد تطلب من العلم السوفييتي التعمق
دراسة ما تأزم من المسائل القديمة وما ا
بوادره من المسائل الجديدة، كما تطلب

Digitized by Birzeit University Library

بحثا علميا وعمليا في الوقت ذاته عن سبل لحلها .

بعبارة اخرى ، ان المعضلات العالمية" " التي اشتدت بصفة خاصة في النصف الثاني من القرن العشرين ، والتي تعتبر مهمة مصيرية بالنسبة للبشرية جمعاء " (٢) ، اخذت تستقطب اهتمام سكان الارض بمزيد من القوة . نقصد بذلك في المقام الاول ، طبعا ، اهتمام العلماء بهذه المعضلات .

الى جانب ذلك ، ـ وهذا ايضا جانب جوهري للغاية ـ ان اهتمام العلم السوفييتي (وبالتحديد الفلسفة) بمختلف مناحي المعضلات العالمية كان ، دون شك ، يرتبط بحقيقة ان مشكلات الانسان وسبل توفر الظروف المثلى لتطور الفرد من جميع الجوانب اخذت تكتسب مزيدا من الاهمية والوزن بين المسائل التي يتناولها العلم السوفييتي خلال العقود الاخيرة بالذات .

هذا ما تقتضيه موضوعيا حياة المجتمع السوفييتي ذاتها ومهام انماء الاشتراكية وهذا ما تتطلبه ايضا معالجة المعضلات الجديدة المتعلقة بافترابنا من المستقبل الشيوعي . وواضح ان من غير الممكن ايجاد حلول مناسبة لا للحلقة الاولى ولا للحلقة الثانية من المسائل ، اذا لم يصر الى تحليل دقيق للامكانيات والى ايجاد سبل لتسوية المعضلات العالمية .

وكانت دراسة كل هذه المسائل تجرى في الاونة الاولى بصورة اساسية من الناحية التاريخية الملموسة (الاقتصادية الملموسة والخ) . وتعاقبت الابحاث المكرسة لدراسة تأثيرات التقدم العلمي التقني في الطبيعة ولمعالجة معضلات الطاقة وغيرها . ولعل من

الطبيعي ان يولي جل الاهتمام لمسألة خطر الحرب العالمية والنضال من اجل تفاديها

ولكن ـ كما يعرف الباحثون جيدا ـ من غير الممكن الشروع في معالجة المعضلات الخاصة قبل دراسة جوانبها المنهجية العامة . اذ ان بقاء هذه المسائل العامة دون حل يعيق رؤية الترابط والتفاعل بين الظواهر المتفرقة وجوانبها المختلفة

ولهذا سرعان ما اتضح ان التناول المثمر لبعض القضايا التي تعزى الى عداد القضايا العالمية والبحث المثمر عن حلول لها يصدمان بصعوبات جمة اذا لم يعتبر تحليل هذه القضايا منظومة موحدة لها منطقها الداخلي . ذلك ان هناك في آخر الامر قاسما مشتركا مهما فيما بينها رغم كل التباين الظاهري ورغم كل الفوارق بين طبيعة بعض مثل هذه القضايا وبين اصول نشوئها .

وبالفعل ، فانها جميعا تمس ، اولا ، النشاط الحيوي للبشرية جمعاء ، وثانيا ، تتجلى كعامل موضوعي من عوامل تطور المجتمع على الصعيد العالمي وفي جميع مناطق العالم الاساسية سواء بسواء . ثالثا ، انها تتطلب الحل بالحاح ، ذلك ان بقاءها بلا حل (او حتى التسويف الطويل الامد في حلها) يهدد بنسف اسس وجود النوع البشري . رابعا ، انها تقتضي ـ بمثابة شرط ضروري لحلها ـ تعاونا دوليا شاملا بين البلدان بصرف النظر عن نظامها الاجتماعي ، كما تقتضي اقصى قدر من توحيد جهود المجتمع البشري باسره .

وقد كرست طائفة من الابحاث في الاتحاد السوفييتي والخارج خلال السنوات الاخيرة لتدارس المعضلات العالمية كمجموعة متكاملة . واظهرت هذه الابحاث موضوعيا ان النظرية الماركسية اللينينية هي وحدها التي تستطيع

Digitized by Birzeit University Library

ان تكون قاعدة نظرية منهجية لبحث المعضلات العالمية باعتبارها النظرية العلمية الوحيدة للتطور الاجتماعي .

في حقيقة الامر ان ممثلي جميع المدارس والاتجاهات الفكرية البرجوازية الاساسية المعاصرة عمليا قد كرسوا اليوم ابحاثا للمعضلات العالمية ، ولكن ما من مدرسة او اتجاه من هذه المدارس والاتجاهات ، باستثناء الماركسيةاللينينية، قد تمكن من اعطاء جواب وجيه بهذا القدر او ذاك على المسائل التي تبرز في هذا المضمار . فالموقف الميتافيزيقي او التوليفي من بحث هذه والاراء المثالية في جوهرها التي يقدمها المؤلفون الموما اليهم وعداؤهم السافر في معظم الحالات للاشتراكية والتقدم الاجتماعي عموما ـ كل هذا لا يسمح لهم بوضع توصيات جادة بهذا القدر او ذاك فيما يتعلق بالمعضلات التي نحن بصددها .

ومن الامثلة على ذلك ابحاث منتدى روما انها تتضمن مادة تجريبية ملموسة تثير قدرا مينا من الاهتمام ، لكنها تتسم بالمحدودية الطبقية . وليس من بنات المصادفة ان يبدو منتدى روما في ابحاثه الاخيرة التي يدعى انها مكرسة لاحدث الظواهر في حياة المجتمع وكأنه يسيرعلى خط دائري ليعود في الكثير من النواحي الى تقييماته واستنتاجاته الاولية الموغلة في التشاؤم .

وعلى الضد من ذلك نجد ان النظريـة الماركسية اللينينية في الواقع العملي قادرة على اتاحة الفرصة للباحث كي يتوغل في كنه المعضلات العالمية وينظر نظرة واقعية ومتفائلة الى سبل حلها المحتمل (٣)

ان الباحثين السوفييت ، شأنهم شا العلماء الماركسيين في البلدان الاخ يعتمدون في ابحاثهم بثبات على النظ الماركسية اللينينية وعلى المنهج الماركـ واليوم يبرز في ضوء الخبرة المدخرة السؤا التالي : الم يحن الوقت لبذل محاولة اخ دراسة شاملة لكل افكار وتصورات ماركـ وانجلس ولينين فيما يتعلق بالمشكلات الر تعزى اليوم الى فئة المعضلات العالمية وس حلها ؟ ان احدا لم يبذل حتى الان محا كهذه . في حين تتضمن مؤلفات مؤسـ الشيوعيةالعلمية قدرا كبيرا من الاستنتاط والخلاصات النظرية والمنهجية المذهلة حيث العمق بصدد هذه المسائل . وباعتقاد ان بحثا كهذا يمكن ان تكون له اهمية يستهان بها .

وتقودنا مراجعة الابحاث الكثيرة الت التي نشرت حتى الان في مجال المعضلا العالمية الى استنتاج آخر ، هو ان تحليل ك معضلة من المعضلات المنفردة التي تعزى الى عداد المعضلات العالمية اذا كان بامكانه ا يحرز مكانة دقيقة جدا في هذا او ذاك م فروع العلوم الطبيعية او التقنية او الاجتماع ، فان مجمل منظومة هذه المعضلات كوح متكاملة هي ـ من جهة ـ موضوع مستق للبحث العلمي يقع على خط التقاء العلو الطبيعية والاجتماعية ، وهي ـ من جهة اخ ـ موضوع للبحث العلمي الاجتماعي والفلس وهذا امر يسهل تفسيره، ذلك ان التنا الشامل للمعضلات العالميةيتيح ، من جهة الحصول على صورة اعمق من علائق القو والمجتمع بالطبيعة ، الامر الذى يعتبر ـ ى

Digitized by Birzeit University Library

هو معروف ـ من القضايا الجذرية في المادية الجدلية والتاريخية .

وعلى صعيد آخر ، يتيح تناول الاشكاليات العالمية النطاق ـ هو الاخر ـ التعمق في جوهر القوانين الداخلية لتطور المجتمع وللفعل العملي للجماهير والطبقات والاحزاب ، وفي مقدمتها الطبقة العاملة . وما دام الامر كذلك فان الاشكاليات العالمية النطاق تبرز بمثابة جزء لا يتجزأ من اشكالية الشيوعية العلمية .

ومن منطلقات الموقف الفلسفي يجب ان يولى حل الاهتمام في المقام الاول لمسألة مكانة المعضلات العالمية في التطور الاجتماعي ككل وعلاقتها بالتقدم الاجتماعي . ان التناول المتعمق لهذه المسألة يمكننا من اعطاء تحليل اكثر دقة لجوهر المعضلات الاجتماعية باعتبارها وحدة متكاملة ومحددة المعالم نوعيا ، ومن تبيان الصلة الضرورية اجتماعيا بين حل هذه المعضلات وقضايا التقدم الاجتماعي في عصرنا الراهن بصورة افضل .

لقد برز مصطلح " المعضلات العالمية" في الادب السياسي منذ وقت قريب نسبيا ، وبالتحديد في اواخر عقد الستينات من هذا القرن . وواضح ان ظهور هذا المصطلح قد سبقه تبلور ملحوظ كفاية لنفس هذه المعضلات كمعضلات عالمية فعلا . وتجدر الاشارة خلال ذلك الى ان المعضلة العالمية رقم واحد ، وهي المعضلة الاكثر خطورة والتي تتطلب اكبر قدر من الجهود العاجلة لايجاد حل لها ، اى معضلة تفادى نشوب الحرب النووية الحرارية العالمية ، قد كشفت عن كونها تهديدا لوجود البشرية بحد ذاته قبل ذلك بوقت طويل .

فقد اظهر اندلاع الحرب العالمية الاولى اننا ـ كما نوه لينين ـ امام ظاهرة قادرة على نسف اسس وجود المجتمع بحد ذاتها . غير ان العلم الغربي غير الماركسي الذى استعمل مصطلح " المعضلة العالمية" لاول مرة لم يعزه الى تفادى نشوب الحرب ، بل عزاه الى معضلات مغايرة كانت قد برزت بالدرجة الاولى في علاقة " الانسان ـ الطبيعة " (كمعضلات الايكولوجيا والطاقة وغيرها) ، ومن ثم في علاقة " الفرد ـ المجتمع " (كتأثيرات الثورة العلمية التقنية على الفرد وما الى ذلك) .

ولكن ينبغي التنويه ايضا بناحية اخرى هي ان البشرية اصطدمت لاول مرة ـ من حيث المبدأ ـ بالمعضلات التي تنامت في وقت لاحق الى معضلات عالمية في فترة مبكرة من صباها ، فاضطرت منذ ذلك الحين الى البحث بهذا الشكل او ذاك عن سبل لتذليلها . ولا مجال للشك في ان دراسة ارهاصات وتاريخ المعضلات التي تعزى اليوم الى عداد المعضلات العالمية ـ منفردة ومجتمعة على السواء كمنظومة محددة المعالم ـ سوف تحظى باهتمام علمي لا يستهان به . ويحظى بمثل هذا الاهتمام ، تحديدا ، منشأ هذه المعضلات واسباب نشوئها وسبل وتجربة تذليلها .

والمقصود هنا ، بطبيعة الحال ، هو ليس سرد هذا التاريخ ، لانه موضوع ابحاث خاصة (٤) . غير ان البحث عن جواب للمسألة المطروحة (مسألة مكانة المعضلات العالمية في التطور الاجتماعي) يحملنا ، رغم ذلك ، على التذكير ببعض من معالمها .

(٢)

ان الطبيعة بوجه عام " هي عبارة عن

Digitized by Birzeit University Library

منظومة موحدة " (٥) ، ومجمل ما يجرى في ثناياها من عمليات " يترابط ترابطا منتظما " (٦). الا ان هذه العمليات تجرى بصورة باطنية ومتباينة في الزمان والمكان . وهذا يتمخض موضوعيا عن احتمال حدوث اختلال في التوازن الناشئ تلقائيا ضمن اطار النظام الطبيعي . وكثيرا ما يحول تطور الطبيعة الدائم والمتواصل هذا الاحتمال الى واقع .

بيد ان الطبيعة كانت الى وقت معين من الزمن تتلافى بنفسها الاختلالات الي تنشأ على هذا النحو في توازنها الداخلي ، وذلك بفعل تأثير ميكانيزم التكيف الطبيعي، اى تأثير ماتتسم به الطبيعة من " القوى العمياء اللاواعية التي تتجلى في تفاعلها القوانين العامة " (٧) . على ان تطور الطبيعة يجرى اصلا في العملية الدائمة لاختلال التوازن وعودته الى حالته الطبيعية . انه جزء لا يتجزأ من وجودها .

وبدأت الحال بالتغير عندما انفصل عن المجموع العام للكائنات والجمادات التي تتكون منها الطبيعة جزء مستقل منها له خصوصياته هو الانسان ـ الكائن الذى تعلم غريزيا بادئ ذى بدء ، ومن ثم عقليا ، التأثير في الطبيعةبشكل رشيد ، اى أداء عملية الانتاج وصنع الاشياء اللازمة لتلبية احتياجاته والتي لا وجود لها بشكل جاهز في الطبيعة .

من حيث الجوهر، كان المقصود في هذه الحالة هو بروز تناقض جديد نوعيا فيتطور الطبيعة . فالانسان الذى ظل ـ دون شك ـ جزءا من الطبيعة، بات في الوقت ذاته ظاهرة من طراز جديد مبدئيا ، هيتجسيد لمجموع العلاقات الجديد مبدئيا والتي نشأت بين الانسان وباقي مكونات الطبيعة .

وكان هذا التناقض الجديد ينطوى على . عواقب وتبعات بعيدة التأثير ، ذلك ان الانسان بتوسعه في مزاولة الانتاج، اى باستثماره الطبيعة سعيا منه الى فرض سيطرته عليها ، اخذ بمرور الزمن يمعن في خرق التوازن القائم طبيعيا بين مكوناتها المنفردة.

بيد ان الطبيعة في اول الامر كانت تتلافى بنفسها هذه الانتهاكات وتستعيد " النظام " الذى خرقه الانسان . واستمر مفعول " قوانين العمياء اللاواعية". اما الانسان فقد كان ينحني امام هذه القوى ويخضع لسلطانها " كالدواب " (٨) ، قبل ان يعرف كيف ويتعلم كبح جماحها الهادفة والرشيدة .

وفي النتيجة استمر الانسجام بين الانسان والطبيعة. غير ان هذا الانسجام كان ـ من جهة، نتيجة لتخلف نمو الانسان نفسه ولتخلف وسائل العمل المتوافرة بحوزته، ومن جهة اخرى، نتيجة لانخفاض مستوى تطور العلاقات الاجتماعية المحقق حتى ذلك الحين .

وبالفعل ، كان الانسان الذى لا ينتج سوى ادوات العمل البدائية يعيش على ما يستحوذ عليه بواسطةهذه الادوات من وسائل العيش التي كانت الطبيعة تقدمها له بشكل جاهز (اى بواسطةجمع ما ينمو تلقائيا والقنص وصيد الاسماك). لكن هذا لم يكن يسفر سوى عن خروق طفيفة للتوازن الطبيعي سرعان ما يختفي اثرها " تلقائيا ".

ان التجانس الطبقي للمجتمع الذى لم يكن انذاك منقسما الى طبقات او فئات وشرائح اجتماعيةمنعزلة ، لم يكن ـ بدوره ـ يوفر ما يدفع جزءا منه الى استغلال جزء آخر ، ولا ما يدفعه الى الاسراف فياستثمار الثروات الطبيعية بشكل يلحق الضرر بالطبيعة نفسها

Digitized by Birzeit University Library

وبالانسان نفسه ، في نهاية المطاف ، باعتباره الكائن الذي يحيا في احضانها .

على هذا النحو ، شهدت المرحلة الاولى من تفاعل المجتمع والطبيعة ، عندما كان اقتصاده يقوم على الجمع (لا الانتاج) وعندما كان المجتمع نفسه متجانسا من الناحية الطبقية ، استمرار الانسجام في العلاقات الاجتماعية نفسها والانسجام في علائق الانسان والوسط الطبيعي المحيط به . والمقصود هنا ، باعتقادنا ، هو ليس التوافق العفوي بين هاتين الناحيتين المتباينتين ، بل هو اقترانهما بشكل منطقي ومشروع .

ان مستوى تطور القوى المنتجة ، اي مستوى امتلاك الانسان لزمام قوى الطبيعة وتسخيرها لمصالحه ، هو الذي يقبض في آخر الامر طبيعة العلاقات الانتاجية ، وهذه الاخيرة تؤثر - بدورها - تأثيرا موجها في نهو علاقة المجتمع بالوسط الطبيعي المحيط به . وقد تأكد القانون الذي تجلى بهذا الشكل لاول مرة ، والذي يحدد الترابط الوثيق للعلاقات بين الانسان والطبيعة ، المجتمع والطبيعة والعلاقات داخل المجتمع ،اي العلاقات الاجتماعية ، تأكدا تاما خلال كل مراحل التطور الاجتماعي اللاحقة .

وادى انتقال البشرية من حياة الترحل والرعي الى التحضر وفلاحة الارض ، اي من الاقتصاد المستهلك الى الاقتصاد المنتج ، في الوقت ذاته الى تعقد القوى المنتجة تعقدا طوبا ، والى تغيرها جذريا ، من حيث الجوهر والشكل على السواء . وتخلت القوى الطبيعية المنتجة (القديمة من حيث الشكل) عن مكانها للقوى الاجتماعية المنتجة التي اكتسبت شكلا تناحريا (٩) . فالعبودية والاقطاع والرأسمالية - كان كل من هذه التشكيلات الطبقية التناحرية الثلاث يناسب ما يماثل جوهره من اشكال العلاقات الاقتصادية الاجتماعية والسياسية بين البشر ومن اشكال وانماط التطور الاجتماعي وبطبيعة الحال من اشكال وانماط العلاقات بين الانسان والطبيعة (١٠) .

يجدر الانتباه الى اننا في هذه المرة لم نعد نضع في المقام الاول علاقات الانسان والطبيعة بل العلاقات الاجتماعية . وهذا لا يعني ان علاقات الانسان والطبيعة قد فقدت طابعها الاولوي التمهيدي ، بل يفسر ذلك بان التاريخ البشري صار يتحدد منذ انتهاء فترة نشوء المجتمع البشري ، بالدرجة الاولى ، بالقوانين الاجتماعية وبجوهر وطبيعة العلاقات الاجتماعية .

نقول : بالدرجة الاولى ، ولكن ليس بها حصرا بطبيعة الحال ، ذلك ان العلاقات بين الانسان والمجتمع والطبيعة لا تزال حتى في هذا الوقت تؤثر تأثيرا لا يستهان به ، بل وحتى تأثيرا متعاظما بمرور الوقت (ولا سيما في عصر الثورة العلمية التقنية ، الامر الذي سنتناوله في مكان لاحق) في حياة البشر الاجتماعية . فالترابط بين العمليات الطبيعية والاجتماعية ، والارتهان المتبادل بين تاريخ الطبيعة وتاريخ البشر الذي تحدث عنه ماركس وانجلس (١١) ، لا يزالان حتى في هذه المرحلة من التطور يحتفظان بكامل مفعولهما واهميتهما في حياة البشرية .

بيد ان طبيعة واشكال هذا الترابط تتغير تغيرا جوهريا . فالتناسق بين الانسان والطبيعة لم يعد ممكنا منذ لحظة استتباب

Digitized by Birzeit University Library

التشكيلة الطبقية التناحرية الاولى (العبودية) وبالمقابل اخذت تتطور وتتعمق بينهما بمرور الزمن تناقضات تتنامى اكثر فاكثر الى تناحرات . وصار النشاط الانثروبوجيني الخاضع لقوانين الملكية الخاصة ينتهك التوازن الذي تتسم به الطبيعة ويخلق من التباينات والنزاعات الحادة بحيث اخذت تنشأ اكثر فاكثر حالات تأزم تتطور احيانا الى كوارث .

قد تكون الاسباب الملموسة لحالات التأزم هذه مختلفة ، بيد انها كانت في جميع الحالات تنطوي في اساسها على نفس العاملين السالفين ، اي تطور الانتاج والنشاط الانتاجي وقوى المجتمع المنتجة ، والتربة الاجتماعية التي جرى عليها هذا التطور ، اي تربة العلاقات الاجتماعية الاستغلالية التي نشأت وترسخت على اساس الملكية الخاصة . ونحن لا نستطيع هنا الخوض في التفاصيل التي تميز الحالات التي نشأت في عصر العبودية عن تلك التي نشأت في ظل سيطرة الاوضاع الاقطاعية او الرأسمالية ، مهما كانت هذه التفاصيل مهمة جوهريا . ونكتفي فقط بذكر بعض الملاحظات العامة .

قبل كل شيء ، لا بد من التنويه بان البشرية ، وهي ترتقي من مرتبة الى اخرى من مراتب التطور الاجتماعي ، كانت ـ من جهة ـ تقتفي اثر احتياجات القوى المنتجة المتنامية ، وتحث بذلك ـ من جهة اخرى ـ تقدمها اللاحق المتسارع (بوجه عام) . الا ان هذا التقدم كان يعني ان الانسان كان يتقن بالتدريج اكثر فاكثر فن الصراع مع قوى الطبيعة الغاشمة ، ويخضعها لارادته ويسعى الى احداث تغييرات فيها تتجاوب مع متطلباته المتنامية . غير ان الانسان ، بتحويله الطبيعة الى وسيلة حياة مباشرة له ، والى هدف واداة لنشاطه الحياتي (١٢) ، قد اصابها بجروح لا تلتئم .

وكان الانسان يسعى بتسجيله الانتصارات على الطبيعة الى تحقيق تلك النتيجة المباشرة التي ينشدها ، لكنه كان المتسبب في الوقت ذاته بحدوث تبعات لم يكن يتوقعها وكثيرا ما كانت تلغي اهمية الانتصارات التي احرزها اصلا . يقول انجلس : " ان الناس الذين كانوا يقتلعون الغابات في وادي الرافدين وبلاد الاغريق وآسيا الصغرى ومناطق اخرى من العالم بغية الحصول على هذا الطريق على ارض بزرعونها ، لم يكونوا حتى ليحلموا بانهم قد ارسوا بذلك بداية التصحر الحالي لهذه البلدان ، ذلك انهم جردوها مع تجريدهم الغابات من مراكز تجمع المياه وصيانتها " (١٣) . ويسوق انجلس امثلة تعزى الى التاريخ القديم . بيد ان القرون الوسطى ، ومن ثم فترة الثورة الصناعية في العصر الجديد ، ناهيك عن عصر الثورة العلمية التقنية المعاصرة ، حين ادخلت البشرية في نشاطها عمليا كل الموارد المعروفة والقريبة من سطح الكرة الارضية ، قد اعطت عددا غفيرا من الامثلة المشابهة ، لكنها في العديد من الحالات اكثر مأساوية من حيث الجوهر . فنحن اليوم في واقع الامر نواجه اعمق تناقض بين الطبيعة والمجتمع ، ونواجه تناقضات تكتسب في بعض الاحيان طابعا تناحريا وتتحول الى ازمات مؤذية وخطرة (١٤) .

ولم يعد بمقدور الطبيعة ان تتحمل بمفردها هذا الصنف من الكدمات . وفي

Digitized by Birzeit University Library

النتيجة تنشأ معضلات بالغة التعقيد اخذت تتراكم تدريجيا حتى خلقت عقبات فعلية على طريق تطور الطبيعة المتناسق اللاحق كوحدة طبيعية متكاملة. ولا بد من ان نؤكد هنا ان الذي تضرر في النتيجة هو ليس فقط الوسط الطبيعي لمعيشة الانسان، بل والانسان نفسه الذي كان يضطر ـ في بعض الحالات ـ الى ان يهجر في آخر الامر الاماكن التي لم تعد صالحة لمعيشته، والى ان يبذل ـ في حالات اخرى ـ جهودا جبارة لصيانة هذه الاماكن كمجال لنشاطه العملي اللاحق.

ولا نجد ما يسوغ لنا الخوض في وصف الحالات الناشئة، المأساوية فعلا في بعض الاحيان. فقد كرس لهذه المسألة حيز كبير كتابة في ابحاث المؤلفين السوفييت والاجانب على السواء (١٥).

حسبنا ان نقول ما يلي: مما لا جدال فيه ان الموضوعة التي لا يندر ان يتقدم بها العلماء غير الماركسيين والقائلة بان اسباب كل هذه الحالات وجذورها تكمن في تقدم الحضارة بحد ذاته، وعلى وجه التحديد، في الثورة العلمية التقنية بحد ذاتها انما هي موضوعة للصواب (وقد جرى التعرض لها بنقد مطول وشامل).

ومما لا جدال فيه، طبعا، ان تطور الحضارة البشرية بعامة، وجانبه المادي (تقدم الانتاج بالدرجة الاولى) يسبب موضوعيا نزاعات الانسان والمجتمع بعامة مع باقي مكونات الطبيعة - ولكن ليست هناك صفة قدرية محتومة في تطور هذه النزاعات. اذ يمكن حسمها بنجاح (في تلك الحالة، بالطبع، حين يجعل الانسان، بعد ان يلم بقوانين تطور المجتمع، نشاطه مسايرا لهذه القوانين، وحين يراعيها بالشكل المطلوب ويستشف سلفا تبعات ما يقوم به من اعمال).

بعبارة اخرى، ان الكثير من انتهاكات التوازن في الطبيعة، الناجمة عن النشاط البشري، يمكن الحؤول دون حدوثه او تلافيه في الوقت المناسب. وهذا يتطلب بالدرجة الاولى مستوى كافيا من تطور قدرة المجتمع العلمية التقنية. ويمكن القول ان البشرية في الوقت الراهن باتت تحوز مثل هذه القدرة لاول مرة في تاريخها نتيجة تطور الثورة العلمية التقنية.

بيد ان هذا التاريخ ذاته يدل على امر آخر ايضا هو ان الممهدات العلمية التقنية وحدها لا تكفي بعد لتسوية المعضلات الناشئة في علاقات الانسان والطبيعة، بل يتطلب ذلك ظروفا اجتماعية معينة ايضا، هي ـ ـ بالتحديد ـ الظروف التي تجعل ممكنا الانتفاع من هذه الممهدات بشكل هادف ومساير للطبيعة. غير ان سيطرة علاقات الملكية الخاصة لا توفر مثل هذه الظروف. بل العكس هو الصحيح: ان العلاقات الاستغلالية تعتبر في بداية الامر عقبة، ثم تصبح في وقت لاحق، ولا سيما في الوقت الراهن، ليس فقط السبب الرئيسي لتفاقم المشكلات" التقليدية التي تنشب بين الانسان والطبيعة، بل ومصدرا لمعضلات جديدة من هذا النوع، كما تصبح في الوقت ذاته مولدا للمعضلات المتجاوزة للنطاق الاجتماعي والتي تكتسب طابعا عالميا.

لقد كان ترسخ العلاقات الاجتماعية القائمة على الملكية الخاصة في شكلها

Digitized by Birzeit University Library

العبودى بادئ ذى بدء ، ثم في شكلها الاقطاعي فشكلها الرأسمالي يعني بالدرجة الاولى تصفية تجانس المجتمع طبقيا وتقسيمه الى طبقات متناحرة متعادية هي الاقلية المستغلة (بالكسر) والاكثرية المستغلة (بالفتح) . وتمثل الهدف الاجتماعي الرئيسي لطرق الانتاج الاستغلالية في الاستحواذ على الناتج المضاف ، اى الكسب ، ثم الربح وفي وقتنا الحاضر الارباح القصوى. وكان هذا الهدف حتى وقت معين ، كما هو معروف ، (ولا يزال حتى الان في جملةمن الحالات) حافزا جبارا على تقدم العلم والتقنيـة .

بيد ان هذا الهدف الاناني الضيق للطبقات المسيطرة في مجتمعات الملكية الخاصة هو الذى املى ، اولا ، اضطهاد الفئات الكادحة من السكان بلا رحمة ، ومزاولة العنف الدائم ، بما فيه المسلح ، ضد هذه الفئات لصالح تعزيز النظام القائم واطالة عمره .

ثانيا ، لقد اسفر هذا الهدف الاجتماعي ايضا عن اضطهاد شعوب اقوى لشعوب اضعف واغتصاب بعض البلدان لاراضي ومتلكات بلدان اخرى ، فيما اسفر في عصر الامبريالية عن اقتسام واعادة اقتسام العالم (بشكل تأسيس المستعمرات على الاغلب بادئ ذى بدء ، ومن ثم بتوسع الاحتكارات بهذا الشكل او ذاك) . واصبحت الحروب الاغتصابية ، وكذلك الحروب بين المتخاصمين على مثل هذه الاغتصابات الوليد المباشر والاداة الضرورية لاضطهاد واستعباد الشعوب منذ لحظة استتباب علاقات الملكية الخاصة .

ثالثا ، واخيرا ، تمخض نفس الهدف الاجتماعي المذكور ـ اى الكسب ـ عن استغلال وحشي جامح للطبيعة ، واملى تطورا للتقدم التقني لا يراعيان الا في اندر الاحوال ، وفي حالات الضرورة القصوى فقط مصالح حماية الطبيعة ، ناهيك عن تعويض ما يلحق بها من اضرار . كل هذه التشويهات التي تمخضت عنها الحضارات الاستغلالية القائمة على الملكية الخاصة ، باعتبارها تنطلق من مصدر واحد ، كانت ترفد بعضها بعضا وتؤثر في بعضها البعض ، فتعمق وتؤزم المعضلات الناشئة في منظومات " الانسان ـ الطبيعة ـ المجتمع " .

على سبيل المثال ، كان استغلال الشغيلة الذى يثيرالمقاومة من قبلهم يسفر عن سعى الطبقة المسيطرة الى التعويض عن " خسائرها بواسطة" استثمار" اشد كثافة للثروات الطبيعية ، وفي الوقت ذاته ، بتنشيط المغامرات الاستعمارية على مختلف اشكالها . وكان توسع وتكثف استغلال البلدان المستعمرة والتابعة يقيض بدوره ليس فقط الاشكال البالغة الفظاظة والقسوة لاضطهاد الشعوب المستعمرة ، مما يحكم عليها بتخلف مطرد في تطورها ، بل ويملي اساليب منقطعة النظير في نهب واستنزاف الموارد الطبيعية للبلدان المستعمرة (التابعة) . كما ان احراز الاغلبية المطلقة من المستعمرات السابقة لاستقلالها السياسي بعد الحرب العالمية الثانية قد ترك في معظم الحالات عمليا دون مساس نظام نهب ثرواتها بلا رحمة على يد الرأسمال الاحتكارى للدول الرأسمالية المتطورة .

ومن الطبيعي ان تكون للحروب اخطر العواقب بالنسبة للبشرية وبالنسبة لباقي مكونات الطبيعة على السواء . فالحروب ـ ايا

Digitized by Birzeit University Library

كانت ـ سواء في العهود القديمة او في الوقت الراهن، تعني هلاك البشرودمار منجزات الحضارة المادية، كما انها تلحق ضررا فادحا بالوسط الطبيعي . اما الحرب في عصرنا النووي الصاروخي، فلا يجوز القبول حتى بنشوبها، لانها قادرة على ان تضع موضع الاستفهام ليس فقط وجود الحضارة البشرية المعاصرة، بل ووجود الحياة بأشكالها الراهنة عموما على وجه المعمورة .

" ان الامبريالية تسخر منجزات عبقرية البشر لصنع اسلحة ذات قوة تدميرية مروعة . اما سياسة الاوساط الامبريالية المستعدة للتضحية بمقدرات شعوب باكملها فتزيد من مخاطر احتمال هذه الاسلحة . وهذا امر يهدد ـ في التحصيل الاخير ـ بنشوب نزاع عسكري عالمي لن يكون فيه غالب ولا مغلوب ، بل يمكن ان تهلك فيه الحضارة العالمية .

لقد باتت مسألة الاهداف التي ستستغل لاطلاق ثمار الثورة العلمية التقنية من ابرز مسائل الصراع السياسي الاجتماعي الراهن . فالعلم والتقنية في عصرنا يتيحان الفرصة لضمان خيرات وفيرة على الارض وتوفير الظروف المادية اللازمة لازدهار المجتمع وتطوير الفرد . وهي ذاتها ، اي مبتكرات عقل الانسان وساعديه هذه ، تتحول ضده بفعل الانانية الطبقية ومن اجل اغتنا النخبة صاحبة السلطة في المجتمع الرأسمالي . ذلكم هو التناقض الصارخ الذي جاءت به البشرية الى اعتاب القرن الحادي والعشرين .

ليس العلم والتقنية هم اللذان يحملان بحد ذاتهما الخطر على السلام ، بل الذي يحمله هو الامبريالية وسياستها ـ سياسة قوى العصر العسكرية العدوانية الموغلة في الرجعية ولا يمكن القضاء على هذا الخطر الا عن طريق كبح جماح هذه القوى " (١٦) .

على هذا النحو نجد ان سيطرة حضارات الملكية الخاصة هي التربة التي نشأت عليها وتكونت تحت تأثيرها الحاسم ونالت تطورها الراهن الذي نعرفه منظومة المعضلات العالمية التي تقلق البشر اليوم هذا القلق الشديد .

(٣)

نخلص الان الى استنتاج مرحلي، لكنه مهم . فكما رأينا كان نشوء وتعمق المعضلات التي تعزوها اليوم الى عداد المعضلات العالمية نتيجة لتطور وسائل الانتاج وادوات العمل مع ارتقاء ثقافة المجتمع المادية ونمو ابعاد الانتاج الذي يمارسه . هذا من جهة. ومن جهة اخرى ، بات نشوء وتعمق هذه المعضلات، وبخاصة صيرورتها كخطر جاد يهدد مستقبل البشرية جمعاء نتيجة للتقدم الاجتماعي وارتقاء البشرية من احدى مراتب تطورها الاقتصادي الاجتماعي الى مرتبة اخرى على اساس من علاقات الملكية الخاصة وضمن اطار سيطرة الاوضاع الاجتماعية الاستغلالية. وقد ادت هذه الاوضاع بالذات، ولا سيما في المرحلة الاخيرة ـ الرأسمالية ـ من تطورها الى تشتت طبقي تناحري للمجتمع والى تفوق الفرد الكادح من موضوع وثمرة عمله ، كما ادى في الوقت ذاته الى وضع الانسان في موضع مجابهة تناحرية مع الطبيعة .

ويجدر هنا الادلاء بملاحظة اخرى مهمة منهجيا هي ان كلا شقي العملية المذكورة، اي جانبها الايجابي، الخلاق، وجانبها السلبي، الهدام، كان في بادئ الامر، اي في

Digitized by Birzeit University Library

المراتب الاولى من العملية التاريخية، يرتدى طابعا محدودا ، اقليميا ، او بالادق محليا . وكان تطور الحضارة يجرى جريانا متباينا للغاية . ففي بعض انحا العالم كان تقدمها يجرى بوتائر اسرع ، بينما كان في انحاء اخرى على الضد من ذلك ، اى كان متخلفا الى درجة معينة، بحكم هذه او تلك من الاسباب التي تخرج في هذه الحالة عن اطار الموضوع الذى بصدده. وقد ظل الترابط بين بعض بؤر الحضارة خلال ذلك ردحا طويلا من الزمن اما مفقودا بوجه عام واما في ادنى حدوده ((بحكم تخلف وسائل المواصلات ــ من جهة ــ وغياب الحاجة الى تبادل بضاعي اكثر نشاطا بين البلدان البعيدة بعضها عن بعض من جهة اخرى).

ولكن اذا كان للتناقضات بين نشاط الانسان والطبيعة ولاختلال التوازن الطبيعي في هذا المجال او ذاك، كذلك للتناقضات الاجتماعية طابع محلي بادئ ذى بدء فعليا ، اى في الواقع العملي، فانها كانت تحمل في طيها موضوعيا ، ومنذ البداية، جنين الصفة العالمية . وبالفعل، فالطبيعة بحد ذاتها هي ــ بالدرجة الاولى ــ عبارة عن وحدة متناسقة واحدة . وبصرف النظر عن كوننا نقصد اوروبا او امريكا الجنوبية، افريقيا او القطب الجنوبي ، فان كل ذلك هو نفس تلك الطبيعة الواحدة واى انتهاك للتوازن في احد اجزاء هذه الطبيعة لا بد وان ينعكس في آخر الامر على اجزائها الاخرى (بهذا الشكل او ذاك) .

كذلك الحال بالنسبة لوجود المجتمع البشرى، حيث الطابع المحلي للتطور ليس سوى مرحلة عابرة . فتاريخ المجتمع ومجمل تطوره يعتبر من الناحية الموضوعية عملية واحدة متواصلة ومتنامية النطاق جدليا على الصعيد العالمي . " ان التاريخ العالمي وحدة متكاملة والشعوب المتفرقة هي " اعضاء " هذه الوحدة" (١٧) ــ هذه الصيغة طرحها لينين في " دفاتره الفلسفية ". ولقد كشف العلم الماركسي اللينيني عن الاسس الموضوعية، الداخلية، لوحدة العملية التاريخية هذه، وشخص الاسباب والقوى المحركة للصفة المتواصلة وكذلك للصفة المتقطعة ــ في الوقت ذاته ــ لدينامية هذه الحركة، واظهر الجانبين المترابطين للعملية التاريخية وهما التوارث والتجدد الدائم .

وعلى الرغم من ان الفلسفة غير الماركسية ، ناهيك عن الاتجاهات المناهضة للماركسية في الفلسفة وعلم الاجتماع والتاريخ، لا تزال تحاول صنع " نماذج " مغايرة خاصة بها للتطور التاريخي . فان هذه المحاولات تبقى ليس اكثر من اثار للمضاربات المجردة مثيرة للفضول . ولكن حتى العلم غير الماركسي يضطر مرور الزمن الى ان يكرر باستخذاء ــ ان لم يضطر الى الاعتراف صراحة ــ في الواقع العملي اكتشافات ماركس، بعد ان يطلق عليها ــ بطبيعة الحال ــ اسماءه المستعارة ، علاوة على انه يحاول بمساعدتها " البرهنة " على عدالة مفاهيمه الذاتية (اللاعلمية واللاتاريخيـــة).

نحن لا نعتزم هنا الخوض في مجادلات حول المفاهيم المشار اليها آنفا او التعرض لها بالتحليل . رغم ذلك من المناسب ان نشير الى ان العلماء الماركسيين عندما ينتقدون هذه المفاهيم ، لا يعيرون دائما ــ في اعتقادنا ، ما يكفي من الاهتمام لناحية غير

Digitized by Birzeit University Library

قليلة الاهمية هي التأثير الذي تبديه على واحس هذه المفاهيم فكرة ماركس ولينين القوية والجديدة «منطقيا» ، المعللة نظريا بنفس القدر من المتانة والاحكام ، حول قوانين تعاقب التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية والترابط بين القوى المنتجة والعلاقات الانتاجية وتواصل تاريخ المجتمع بهذا المعنى بالذات . ونقول بصرامة ان المفاهيم « المراحلية» التي تقدم بها روستاو وجيلبرايت واهارون ، كذلك بيل وبجيزينسكي في الكثير من الامور (ناهيك عن عدد لا يحصى من السائرين وراءهم) هي ليست سوى نتيجة لتأثير النظرية الماركسية اللينينية التي احرزت سمعة لا غبار عليها حول التطور الاجتماعي على الحقائق الرائفة لفن الدفاع البرجوازي عن العبودية الرأسماليـــة .

ولكن لنعد الى فكرتنا الاولية . ان شيوع الثقة العالمية لتناقضات حضارة الملكية الخاصة (ومن ضمن ذلك النزاعات بين الامم والطبيعة والنزاعات الاجتماعية على السواء) ، شأنه شأن الصيرورة الفعلية للتاريخ العالمي بصفته العالمية بالذات ، لم يعد ممكنا الا حين بلغت عملية جمعنة وسائل الانتاج والتبادل مرحلة التدويل . وقد جرى ذلك عندما جعل تطور وسائل الانتاج والتبادل امرا ممكنا الاتصالات المتنوعة ، وبالدرجة الاولى ، التبادل البضاعي الواسع ليس فقط بين البلدان والقارات المتجاورة ، بل وبين بلدان وقارات بعيدة عن بعضها البعض ، كما تمخض الى جانب ذلك عن الحاجة الى مثل هذه الاتصالات ومثل هذا التبادل البضاعي . لقد جرى ذلك في نتيجة نشاط طبقة البرجوازية التي كانت اول طبقة مستغلة (بالكسر) لها طابع دولي لا من الناحية الموضوعية فحسب ، بل ومن الناحية الفعلية التطبيقية ، تلك الطبقة التي اصبح نشاطها وسيطرتها كذلك يرتديان صفة دولية .

من هنا نستنتج ان صيرورة المعضلات العالمية كمعضلات عالمية بالذات لا يمكن فهمها فهما صحيحا اذا جرى تناولها بمعزل عن دراسة عمليات تدويل الانتاج والتبادل ، او بمعزل ــ من الناحية الاجتماعية ــ عن دراسة نشاط طبقة البرجوازية بعامة ، ونشاط " "طليعة" البرجوازية المعاصرة اى الرأسمال المتجاوز للاطر القومية ، وفي جملةمن الحالات ، رأسمال الدولة الاحتكارى المتجاوز للاطر القومية بوجه خـاص .

بعبارة اخرى ، ان المعضلات العالمية التي ولدت في المرحلة الاولى من تطور البشر الاجتماعي اصبحت عالمية في الواقع واكتسبت ــ الى جانب ذلك ــ طابعا خطرا بالنسبة لمستقبل وجود النوع البشرى في مرحلة تاريخية ملموسة ومحددة المعالم تماما من تطور البشرية ، اى في ظل الامبريالية . وحصل تطورها المكثف بصفةخاصة في عقود الستينات ــ الثمانينات من القرن العشرين ، اى في فترة الصراع الحاد للغاية بين النظامين الاجتماعيين المتجابهين ــ الاشتراكية والرأسمالية .

ومن دون ان نتعمق بصفة خاصة في هذا الموضوع ، رغم ذلك يجدر القول ان هذا الصراع بات واحدامن عوامل تعمق المعضلات العالمية . وهذا امر لا مفر منه . فالرأسمالية ،

Digitized by Birzeit University Library

سعيا منها الى التغلب في المباراة مع النظام الاجتماعي الجديد الناهض، تستنفر كل قواها وامكانياتها ، وتشددمن اضطهادها للجماهير (مع مراعاتها ـ بطبيعة الحال للعوائق التي تبرز في هذا الطريق نتيجة مقاومة الجماهير ، وكذلك ـ والى درجة لا يستهان بها ـ مع مراعاة ما يتعلق بتأثير الاشتراكية وقوة المثال الذى تقدمه)، كما تشدد من استثمارها للموارد الطبيعية (الامرالذى يرتبط الى درجة كبيرة باتساع نطاق الاستعدادات العسكرية). وفي نتيجة السياسة الرسمية الي تنتهجها البلدان الرأسمالية، وعلى صعيد آخر، في نتيجة نشاط الشركات فوق القومية يستمر تعمق الهوة في مستويات التطور بين دول المتربول السابقة والمستعمرات السابقة .

وتجلت كل هذه العمليات بقوة خاصة في وقتنا الحاضر بالذات، عندما ادى استمرار تناقضات المجتمع الرأسمالي الى ظهور سمات جديدة نوعيا في تطور الازمة العامة للرأسمالية ونقصد بذلك، تحديدا ، انهيار حسابات الامبريالية الرامية الى تذليل تناقضات تطورها عن طريق استعمال طرق تحكم الدولة الاحتكارى على اساس من الثورة العلمية التقنية ، وعن طريق المناورة الاجتماعية في العلاقات مع البروليتاريا والتحايل الاستعمارى الجديدفي التعامل مع البلدان النامية. فالامبريالية اليوم تبحث عن مخرج من وضعها الراهن في تنشيط المجابهة على الجبهة الخارجية، اى تجاه الاشتراكية والبلدان النامية، كذلك على الجبهة الداخلية، اى تجاه الطبقة العاملة وحلفائها. ومن هنا ينشأ سباق التسلح بكل ما يترتب عليه من تبعات، والذى ينطوى على استمرار تقلص ساحة المناورة في تسوية المعضلات العالمية .

وفي هذه الظروف تبرز المعضلات العالمية اكثر فاكثر كنتيجة وكعامل لاشتداد التناحرات اللصيقة بالحضارة البرجوازية اشتدادا شاملا ومطردا . ويدل الطابع المأساوى الذى تكتسب بعض هذه المعضلات على الحجم الكارثي المفجع حقا للتناقضات الحالية بين المصالح الخاصة لرجل الاعمال ومصالح الاوساط الواسعة من الشغيلة ، بين تطور الاقتصاد البرجوازى والثقافة البرجوازية وبين الاثار الكثيرة غير الملائمة والمتعاظمة النطاق لهذا التطور ، وفي التحصيل الاخير، بين مستلزمات انماء الفرد وبين الصفة اللاانسانية البالغة القسوة التي تتسم بها حوافز واهداف المجتمع البرجوازى وتنافرها مع طموحات الفرد .

لقدتعرض الادب السوفييتي غير مرة بالنقد العادل لصفة التشاؤم اللامحدود (الذى يمكن وصفه بـ " الغبي") التي تتسم الكثير من طروحات ممثلي العلم الغربي الذين يقفون مرتبكين امام المعضلات العالمية وتأزمها الراهن . غير ان هذا التشاؤم يمكن استنفاد النظام الاجتماعي القديم الذى على عليه الزمن لامكانياته (التي لا تزال حتى الان كبيرة الشأن). ولهذا السبب بالذات نجد ان الاستنتاجات الماركسية ـ اللينينية المستخلصة من " الازمة العالمية " الحالية ليس فقط بعيدة عن التشاؤم ، بل على العكس ، نجدها عميقة التفاؤل .

لقد اقتربنا هنا من مسألة مهمة جدا، في اعتقادنا ، هي بالذات مسألة دور المعضلات التي نصفها نحن بالعالمية والتي بدت مفاجئة

Digitized by Birzeit University Library

للكثيرين في الغرب، يعكس في جوهر الامر
مرحلة جديدة من حركة التناقضات الاساسية
للنظر الاجتماعي المعاصر الذى نتناوله ككل
واحد . وبالفعل اولا ، ان هذا الاشتداد هو
مرآة تعكس لنا مرحلة جديدة ارقى من مراحل
معارف البشر العلمية التقنية ، مرتبطة بالثورة
العلمية التقنية ، ومرحلة جديدة من امتلاك
البشر لناصية " خفايا الطبيعة " ، وهو امتلاك
لا يجرى تعويضه على الصعيد العالمي العام
بالاجراءات الكفيلة بحماية الطبيعة واعمارها .

ثانيا، لقد عكس الاشتداد والتعمق
الراهن للمعضلات العالمية النزاع المحتوم في
ظل الرأسمالية بين التطور العاصف للعلم
والتقنية وبين الظروف الاجتماعية للمجتمع
الرأسمالي .

وكما ذكرنا آنفا، فان المعضلات
الاجتماعية هي عبارة عن مجموعة موحدة من
المعضلات العلمية الطبيعية والاجتماعية . ومن
الناحية النظرية يمكن لامكانيات النظام
الرأسمالي العلمي التقنية المحضة ان تتيح له
(ولو جزئيا) حل بعض من المعضلات التي
تعزى الى عداد المعضلات العالمية . في سبيل
المثال ، ان المستوى الحالي لهذه المنجزات
، كالتقنيد التقديرات المتوفرة، يتيح فرصة
تأمين حاجات جميع البشر الاساسية الى
المواد الغذائية والمسكن ونيل التعليم والرعاية
الصحية في العقود الاولى من القرن القادم .
بيد ان العلم البرجوازى يرى ان حل هذه
المعضلات يتطلب قرونا اخرى (١٨) .

كيف لا نتذكر هنا الكلمات التي قالها
لينين منذ نهاية الحرب العالمية الاولى :
" ايما تنظر ، تجد في كل خطوة مسائل
ماكان البشرية ان تحلها فورا . لكن العائق

هو الرأسمالية التي ادخرت تلالا من الثروات
وجعلت البشر عبيدا لهذه الثروات . . ان
الحضارة والحرية والثروة في ظل الرأسمالية
تعيد الى الاذهان صورة الثرى المتخم الذى
يئد في المهد ويحجب الحياة عن كل ما هو
فتى" (١٩) . وتكتسب هذه الكلمات اليوم
مزيدا من الاهمية الملحة، وبالدرجة الاولى،
فيما يتعلق بالمعضلات العالمية .

وفي غضون فترة وجود الرأسمالية كنظام
اجتماعي توفرت كمية عظيمة من الادلة على
الضرورة التاريخية لانتصار الاشتراكية . بيد
ان تعمق وتأزم المعضلات العالمية حتى من
هذه الناحية خلقا الى حد ما موقفا جديدا .

قبل هذا الحين كانت الادلة الفعلية على
ان الرأسمالية قد استنفذت نفسها تتجلى
باسطع صورة وبالدرجة الرئيسية في الاطر
القومية لهذا البلد او ذاك ، وفي حالات اندر
على الاصعدة الاقليمية، ناهيك (اذا تركنا
جانبا الحديث عن الحربين العالميتين) عن
ان تتجلى على الاصعدة العالمية . وقد
ادخلت العقود الاخيرة من هذه الزاوية
مفاجآت حتى بالنسبة لاكثر المدافعين عن
النظام الرأسمالي ايمانا . ذلك ان في هذه
السنين بالذات برز دليل جديد كبير الحجم
على محدودية امكانيات الرأسمالية وعلى
استنفاذها لنفسها . وهذا الدليل على
المعضلات العالمية .

ان عجز الرأسمالية بوجه عام ، وفي جميع
بلدانها في ان واحد ، عن تذليل هذه
المعضلات ، وعجز النظام القديم امام هذه
المعضلات (الامر الذى انعكس على الكثير من
ابحاث العلماء البرجوازيين الذين يتنبؤون

Digitized by Birzeit University Library

للبشرية بطريق مسدود وبحتمية توقف التطور بل وحتى بالانحطاط ـ كما يزعمون) قد اصبح بالنسبة للكثيرين ومن ضمنهم ممثلو الاوساط العلمية في بلدان الغرب دليلا قاطعا على ان المجتمع الرأسمالي في اوضاعه الراهنة لا يمتلك القدرة على الحياة فمن خلال دراسة ابحاث العديدمن الاختصاصيين الغربيين المكرسة للمعضلات العالمية يمكن ملاحظةانهم يقتربون من خلال دراسة هذه المعضلات بالذات من استنتاج ضرورة تبديل النظام الرأسمالي بنظام اجتماعي جديد ارقى واكثر انسانية .

ومن خلال تحليل اداء النظام الرأسمالي لوظائفه خلص ماركس وانجلس الى الاستنتاج البارز التالي : " ... تبرز ضرورة حماية المنتوجات التي ينتجها المجتمع الرأسمالي البرجوازي وحماية القوى المنتجة من التأثير المدمر المهلك الذى يمارسه نفس هذا النظام الاجتماعي الرأسمالي ، وذلك بانتزاع زمام قيادة الانتاج الاجتماعي والتوزيع من يد طبقة الرأسماليين المسيطرة التي باتت عاجزة عن ممارسة ذلك ووضعه في يد طبقة المنتجين ، وهذا هو الثورة الاشتراكية بعينها" (٢٠) . وما يؤكد عدالة هذا الاستنتاج اليوم هو الادلة الجديدة الاكثر اهمية بالنسبة لمصائر الحضارة البشرية ، وبالدرجة الاولى ، نفس حقيقة استمرار تعمق التناقض بين ما يظهر من الامكانيات السياسية والاقتصادية والعلمية التقنية والروحية لتذليل طائفة كاملة من المخاطر العالمية وبين عجز الرأسمالية عن استغلال هذه الامكانيات بالقدر الذى يناسبها

بعبارة اخرى ، ان اشتداد المعضلات العالمية بقوة اكبر كثيرا مما في الماضي يكشف عن محدودية النظام الرأسمالي اجتماعيا ، وبذا يبرز هذا الاشتداد بمثابة حجة جديدة قاطعة في صالح احلال الاشتراكية محل الرأسمالية .

وفي ضوء دروس التاريخ ، نعتقد ان من المنطقي تماما ان نطرح الاستنتاج التالي : ان العثور على حل للمعضلات التاريخية الطبيعية والتاريخية الاجتماعية التي يطرحها التطور الاجتماعي على الصعيد العالمي العام لن يتسنى الا للطبقة التي يعتبر وجودها بحد ذاته اساسيا والتي تستطيع تحقيق تحرر البشرية اجتماعيا على صعيد الكرة الارضية باسرها . وهذه الطبقة التي هي اول طبقة كادحة اساسية فعلا هي الطبقة العاملة .

ان الطبقة العاملة هي القادرة ، وبحكم طبيعتها بحد ذاتها ، على حل المسائل المبدئية الاساسية ومنها :

ـ ان تغدو المعبر عن مصالح البشرية الكادحة جمعاء وان تساعد بكفاحها وبابداعها التاريخي على تحقيق هذه المصالح في واقع الحياة .

ـ ان تصفي العائق الرئيسي الذى يعترض طريق المعضلات الجذرية للتطور الاجتماعي (بما في ذلك معضلات العلائق بين البشر والمعضلات العلائق بين الانسان والطبيعة) ، اى سيطرة العلاقات الاجتماعية الاستغلالية القائمة على الملكية الخاصة .

ـ ان تحبط مقاومة القوى الاجتماعية المناهضة لتصفية الاوضاع الاستغلالية والساعية ـ بعد هذه التصفية ـ الى ترميم هذه الاوضاع

ـ ان تتزعم عملية بناء المجتمع الاشتراكي والشيوعي الجديد الذى يناسب المصالح

Digitized by Birzeit University Library

الجذرية لنفذ هذه الطبقة وللاغلبية الساحقة من البشر، اى مصالح الكادحين كافة سواء بسواء .

ان تنفيذ هذه المهمات هو الذى يكون مضمون الرسالة التاريخية العالمية للطبقة العاملة . ان قدرة الطبقة العاملة على اداء هذه الرسالة التاريخية تتحقق لا في سياق التناول الطبقي او البحث عن " طريق ثالث " بين الصراع الطبقي والحلم البرجوازى الصغير بالتناوم الطبقي بناتا ، بل على العكس ، انها تتحقق في تضالها التشيط والدائب من اجل مصالحها الطبقية . وباحراز النصر في هذا النضال تكتسب الطبقة العاملة فرصة الشروع مباشرة في الحل العملي للمعضلات المرتبطة بالمصائر المستقبلية للبشرية جمعاء .

بعبارة اخرى ، ان الطبقة العاملة لا تكشف بالوجه الاوفى عن الجوانب الانسانية العامة لرسالتها التاريخية الا بعد انتصارها الطبقي وبالاستناد الى هذا الانتصار . او بقول اخر هو ان سهدة الحل الجذرى الحقيقي للمعضلات الانسانية العامة ، ومن ضمنها المعضلات العامية هي، في التحصيل الاخير، انتصار الطبقة العاملة كطبقة، اى تطبيق اول وابرز مهمة طبقية لها، اى تحرير البشرية اجتماعيا .

وعلى صعيد آخر، يغدو حل هذه المعضلات بحد ذاته واقعا في ظل تنفيذ المهمة الاساسية الثانية للحركة العالمية ، اى بناء الاشتراكية، ومن ثم الشيوعية الكاملة . ان مصير المعضلات العالمية في ظل الاشتراكية موضوع متميز . ويكفي هنا ان نقول ما يلي : ان الممارسات الفعلية للمجتمع الاشتراكي الموجود فعليا حتى وقتنا الراهن ، اى في غضون ثلثي قرن من وجود المجتمع الجديد فقط، قد اظهرت بشكل قاطع ما يلي :

اولا، ان الاشتراكية ـ بحكم طبيعتها ـ لا تتمخض عن معضلات تعزوها الى عداد المعضلات المتجاورة للاطر الاجتماعية ((كمعضلة الحرب والتخلف التنموى) . بل العكس هو الصحيح . فيما يتعلق بالاشتراكية، فهي تحل هذه المعضلات داخل اراضيها فتسهم في عين الوقت بقسط عظيم الشأن في قضية حلها على الصعيد العالمي .

ثانيا ، فيما يتعلق بالمعضلات التي تبرز في مجالات علائق المجتمع والفرد، والفرد والطبيعة ، فان هذا النوع من المعضلات يمكن ان ينشأ على تربة الاشتراكية ايضا (نظرا لكونها نتيجة للعمليات الموضوعية لتطور الانتاج) . بيد ان المجتمع الجديد الذى اقامته الطبقة العاملة قد اثبت قدرته على معالجة هذه المعضلات (داخل اراضيه على الاقل) بالاستناد الى مزاياه التاريخية النابعة من سيطرة الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج .

يقول ماركس : " ... ان الفرد الجماعي ، اى المنتجين المنتظمين في روابط، يتحكمون تحكما رشيدا بتبادلهم المادى مع الطبيعة ،ويخضعونه لرقابتهم المشتركة، بدلا من ان يسيطر عليهم كقوة عمياء ، ويمارسونه بادنى قدر من انفاق الجهود وفي ظل ظروف تناسب طبيعتهم البشرية وتليق بها باكبر قدر " (٢١) .

وبطبيعة الحال، ما دامت العلاقات الاجتماعية الاشتراكية لم تترسخ بعد على الصعيد العالمي العام (والثورات ـ كما قال

Digitized by Birzeit University Library

لينين ـ لا تصنع حسب طلبيات او اتفاقيات) (٢٢) ، فسوف تبقى امكانيات المجتمع الجديد في حل المعضلات العالمية محدودة. وفي هذه الظروف ترى البلدان الاشتراكية المخرج من هذا الوضع في اقامة اوسع تعاون دولي ممكن، وفي المقام الاول في قضية حل معضلة عالمية لها الاولوية كتفادي الحرب النووية .

لقد جاء في الصيغة الجديدة لبرنامج الحزب الشيوعي السوفييتي : " ان الدولة السوفييتية سوف تتعاون مع البلدان الاخرى في حل المعضلات العالمية ... وحلها يتطلب جهودا مشتركة من الدول كافة .وسيتيسر هذا الحل بشكل جوهري اذا توقف اهدار الطاقات والوسائل على سباق التسلح " (٢٣) . وكما قال ميخائيل غورباتشوف ، امين عام اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي، فان " المخرج الوحيد المعقول اليوم هو ايجاد واستثمار وتطوير هيئات ومؤسسات امنية من شأنها ان تتيح العثور على التناسبات المثلى بين المصالح الوطنية والمصالح الانسانية العامة " (٢٤).

xxxx

لنجمل الان بعضا من النتائج . لقد برزت المعضلات العالمية كنتيجة لتقدم البشرية الشامل (العلمي التقني والاجتماعي بالدرجة الاولى) في مرحلةمعينة من تطورها، وبالتحديد في مرحلة مهد تاريخ البشرية .

وتمثلت نتائج مهد التاريخ هذا، من جهة ، في تقدم البشرية الشامل ، ومن جهة اخرى ، في ظهور تحديات لم يسبق لهامثيل ولا يمكن مقارنتها بشيء من حيث الابعاد لوجودها مستقبلا .

وقد اصبحت المعضلات العالمية راهنا، وبدرجة معينة ، اشبه ببؤرة لاعتى تناقضات العصر الراهن، وفي المقام الاول ، تناقضاته الاجتماعية . وتحولت في وقت واحد الى هدف والى مخفر امامي للصراع الطبقي داخل المجتمع الرأسمالي وعلى الصعيد الدولي سواء بسواء ، اى الى مباراة بين الرأسمالية والاشتراكية .

وبات حل المعضلات العالمية ـ وفي مقدمتها معضلات تفادي الحرب العالمية ـ في ايامنا هذه تمهيدا لاستمرار التقدم في جميع ميادين النشاط البشري، وشرطا اوليا لا بد منه لاستمرار تطور المجتمع البشري الصاعد

ان مستقبل الحل الجذري ، بل والنهائي لهذه المعضلات مسألة واقعية تماما . وتنفيذ هذه المهمة العظيمة امر منوط بالاشتراكية والشيوعية، ذلكان العلاقات الاجتماعية الشيوعية هي التي ستستعيد التجانس الطبقي للمجتمع والانسجام في العلاقات بين الانسان والطبيعة. وهذا هو الذى سيعني ان البشرية قد صفت الحساب مع مهد تاريخها وباشرت بتاريخها الحقيقي، تاريخ الانسان لا مجرد العاقل، بل الحكيم الذى استخلص الاستنتاجات المطلوبة من مسيرة حياته الطويلة المضنية .

الهوامش :

١) مواد المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي، موسكو، ١٩٨٦، ص١٥٥

٢) المصدر نفسه ، ص ١٩٧٨ .

Digitized by Birzeit University Library

٣) من ابحاث السنوات الاخيرة انظر، مثلا : معضلات العصر العالمية. تحت اشراف الاكاديمي ن ايتوريمتسيف . موسكو ،١٩٨١، المعضلات العالمية والعلاقات الدولية. موسكو، ١٩٨١ ، ف.ف. زغلادين، أ.ت. فرولوف . معضلات العصر العالمية : الناحيتان العلمية والاجتماعية. موسكو، ١٩٨١، غ.س. خورين . معضلات العصر العالمية .. نقد المفاهيم البرجوازيـــة . موسكو ، ١٩٨٢ ، وغيرهـــا .

٤) هناك طائفة من الابحاث التي جرى فيها من زوايا مختلفة تناول مراحل واطوار معينة من هذا التاريخ. ولكننا نقصد الان من الناحية الاساسية تلك الابحاث المكرسة لتاريخ القوى المنتجة ووسائل وادوات العمل وما الى ذلك. (انظر ، مثلا : أ. تيومانيف. تاريخ العمل . لينينغراد ، ١٩٢٥. ت. لوزوفيك. من العصا الى الماكنة. موسكو ـ لينينغراد ، ١٩٢٦، يو. ليبس. امل الاشياء . موسكو، ١٩٥٣، س. ليللي . البشر والماكنات والتاريخ . موسكو، ١٩٧٠). ولم يكرس سوى عدد يسير من الابحاث لمسألة الاسباب الفلسفي للمعضلات الناشئة نتيجة لتطور القوى المنتجة في العلاقات بين الانسان والطبيعة . ويعزى معظم هذه الابحاث الى الفترة الاخيرة من الوقت وهي تتناول اثار الثورة العلمية التقنية . وقد جرى التطرق الى المعضلات المذكورة بوجه عام من الناحية التاريخية الفلسفية في الابحاث التالية : النظرية الماركسية اللينينية للعملية التاريخية . تحت اشراف الاكاديمي ف.ف.، قسطنطينوف ، موسكو، ١٩٨١، ف.ج. كيللي، م.ى. كوفالزون. النظرية والتاريخ . موسكو، ١٩٨١. ولكن حتى في هذه الاعمال يقتصر الحديث اساسا على علاقات الانسان والطبيعة .

٥) ماركس انجلس، المؤلفات . المجلد ١٠، ص ٦٣٠ .

٦) ماركس انجلس . المؤلفات . المجلد ٢٠ ، ص ٣٥ .

٧) ماركس انجلس . المؤلفات . المجلد ٢١ ، ص ٣٠٥ .

٨) ماركس انجلس . المؤلفات . الجلد ٣، ص ٢٩ .

٩) ماركس انجلس . المؤلفات المجلد ١٩، ص ٤٠٠ ـ ٤٢١ .

١٠) ماركس انجلس . المؤلفات . المجلد ١٩ ، ص ٤٠٠ ـ ٤٤١ .

١١) انظر : ماركس انجلس . المؤلفات المجلد ٣ ، ص ١٦ .

١٢) ماركس ، انجلس. المؤلفات . المجلد ٤٢، ص ٩٢ .

١٣) ماركس انجلس . المؤلفات . المجلد ٢١ ر ص ٤٩٦.

١٤) انظر، مثلا : ى.ك. فيودوروف . الازمة الايكولوجية والتقدم الاجتماعي. لينينغراد ،١٩٧٧.

١٥) انظر، مثلا : أ. فراتريتش ن. خالوبا، يو. كراليك. فحص طراوة الحضارى. موسكو ١٩٧٧، أ.د. لابتيف . مشكلات ايكولوجيه . موسكو ، ١٩٨٢ ، وغيرها .

١٦) مواد المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي ص ١٣٦.

١٧) لينين . المؤلفات الكاملة . المجلد ٢٩ ، ص ٢٨٥.

١٨) انظر : معضلات العصر العالمية١ موسكو، ١٩٨١، ص ٤٥ .

١٩) لينين . المؤلفات الكاملة . المجلد ٢٤، ص ٥١٧.

٢٠) ماركس انجلس . المؤلفات . المجلد ٢٠ ، ص ٦٢٣ .

٢١) ماركس انجلس . المؤلفات . المجلد ٢٥ ،الجزء ٢، ص ٣٨٧ .

٢٢) لينين . المؤلفات الكاملة . المجلد ٣٧ ، ص ٦٤ .

٢٣) مواد المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي، ص ١٧٨ .

٢٤) "برافدا" ، ١٩٨٥، ٩ أيار (مايو).

Digitized by Birzeit University Library

ناجي العلي

أنت في القلب.. وجراحك جراح جيلنا

أسعد الاسعد

لم يكن بالامكان توقع ما جرى للفنان الفلسطيني ناجي العلي، ولربما كان مرد هذا الاحساس، الى حقيقة تتعلق بطبيعة العمل الذى يقوم به ويمارسه من جهة، والى استهجان ان يكون هناك من يجرؤ على السقوط الى هذا الدرك من التفكير والممارسة اللااخلاقية من جهة اخرى.

غير اننا مضطرون الى ربط الاعتداء على حياة صديقنا الفنان ناجي العلي، بنهج دأبت اوساط حاقدة على المضي فيه منذ امد طويل، سعت من خلاله الى اغتيال كل ما من شأنه التعبير عن تطلعات الفكر الانساني والتقدمي في حياة الشعب العربي الفلسطيني.

وبالنظر الى قائمة شهداء الفكر، الذين اغتالتهم ادوات هذا النهج، تنتصب امامنا حقيقة المخاطر المترتبة على الاستمرار في اعتماد هو لا لاسلوب اغتيال المثقفين والكتاب والفنانين، دون رادع. ذلك ان هذه الاوساط التي دأبت على انتهاج سياسة القمع والاضطهاد ضد الفئات المتنورة في بلادها، وضد كل صوت معارض لسياساتها ونهجها، بشتى الاساليب والطرق، بدءا بالاعتقال والملاحقة، وانتهاء بالاغتيال والتصفية الجسدية، الى حد ملاحقة المعارضين خارج حدود اوطانهم، والاعتداء على حياتهم، لا تزال تمعن في ممارساتها، دون رادع من احد، ودون احساس بالكارثة الحضارية والانسانية التي ترتكبها هذه الاوساط الفاشية، ليس بحق ضحاياهم بصفتهم الشخصية، وانما بحق تراث اسهم هؤلاء "الضحايا" في صنعه وكتابته.

ان مسلسل الاعتداء على حياة عدد من ابرز كتابنا ومفكرينا، وصمة عار في تاريخ هذه الفئات الحاقدة، واذا كان ضياع العشرات من رموز ثقافتنا الوطنية، وتراثنا الانساني، امثال الدكتور حسين مروة، مهدى عامل، كمال

Digitized by Birzeit University Library

ناجي غسان كنفاني، ماجد ابو شرار، حنا مقبل، علي فودة، وغيرهم، دليل همجية هذه الاوساط على اختلافها، فان الاعتداء على حياة ناجي العلي، يضيف تأكيدا آخر على استمرار هذه الاوساط في نهجها المدمّر، وبساعتها الحاقدة والمناهضة لكل شعاع ثقافي انساني وطني وتقدمي، وهي لا تتوانى عن ملاحقة معارضيها حتى في شوارع لندن او باريس او روما، مثلما تلاحقهم في شوارع، اي عاصمة اخرى، قريبة كانت ام بعيدة

ولا شك في ان حادث الاعتداء على حياة الفنان ناجي العلي، يؤكد من جديد، دور الثقافة الواعية على اختلاف انواعها، في النضال من اجل تغيير وجه العالم القبيح، وبناء عالم ليس فيه مكان لمثل هؤلاء القتلة والسفاحين، الامر الذي يتطلب تعزيز جبهة الثقافة الوطنية، ودورها النضالي العام

وان كان "حنظلة العلي" يخجل ويرفض مواجهة العالم قبل ان تتحقق امانيه وامالي شعبه الفلسطيني في دولته الوطنية المستقلة، فبدير لهم ظهره، فان اصدقاء ناجي العلي وحنظلة، وهم كثر في هذا العالم، وفي ازدياد مستمر، يطمئنونه ويؤكدون ان اليوم الذي يدير حنظلة وجهه للعالم قريب، وهو آت لا محالة، ولن يقوى القتلة ايا كانوا على الوقوف في وجه حتمية انتصار الشعب الفلسطيني وتحقيق اماني الوطنية.

تحية لصديقنا ناجي العلي، نحن بانتظارك مع حنظلة، قلوبنا معك، وحبنا لك ولفنك وثقتنا كبيرة بانك ستتعافى وتعود الينا من جديد.

Digitized by Birzeit University Library

الانسان السوفييتي من هو .. وكيف هو ؟

جيـــرار ستريـــف

في زاوية خاصة من مجلة الاتحاد السوفييتي واسعة الانتشار، هي زاوية "نظرة من جانب" تنشر المجلة، اراء كتاب وصحافيين اجانب حول نظرتهم للاتحاد السوفياتي وانطباعاتهم، والجزء الذى تقتطفه "الكاتب" هنا من كتاب للصحفي الفرنسي ـ جيرار ستريف ـ حول " التسريع في الاتحاد السوفياتي" والذى يتحدث فيه بوجه خاص عن " العامل" السوفييتي .

اذا كانت كنية دوبون اوسع الكنيات انتشارا في فرنسا، فان كنية كوزنتسوف هي كذلك في الاتحاد السوفييتي واسم الكسندر ايضا . هذه هي نتائج بحث اجرته ادارة الاحصاء المركزية وبرسم سيماء الانسان السوفييتي المتوسط .

كوزنتسوف . عمره ٣٠ سنة . وزنه ٧١ كيلوغراما . طوله ١٧١ سنتمترا . متزوج يعيش في المدينة. من حيث الاختصاص ، عامل، يشتغل في المصنع ٤٢ ساعة في الاسبوع . دخله الفعلي ازداد في السنوات العشرالاخيرة ٤٥ بالمئة . كل سنة، ينال كوزنتسوف اجازة مدتها ٢٤ يوم عمل يقضيها في منتجع او في البيت مع عائلته .

يحب كوزنتسوف ان يشاهد التلفزيون ، وكل يوم يقضي ساعة ونصف ساعة امام شاشة التلفاز . في ايام الراحة يخصص لهذه الهواية ساعتين ونصف ساعة، الى السينما يذهب ١٦ مرة في السنة . يطالع كثيرا . يأخذ من المكتبة ٢١ كتابا في السنة ،يهتم بالمطبوعات الدورية (٦٦٧ نسخة لكل ١٠٠٠ نسمة).

تنفق عائلة كوزنتسوف ٣ بالمئة من مداخيلها لدفع بدل الايجار . ويعيش اعضاء العائلة في شقة من غرفتين فيها براد وتلفاز وراديو وغسالة .مقدار بدل الايجار لم يتغير عمليا منذ اواخر العشرينات .

تخرج الكسندر من المدرسة الثانوية ولكنه يواصل رفع درجة كفاءته.

اود لو اشير بخاصة الى دور المصنع في

Digitized by Birzeit University Library

حياة كوزنتسوف . فهو يقضي فيه ثلث وقته ، ولكن هذا لا يعني انه يشتغل فيه وحسب . في المصنع غالبا جدا ما تقام اجراءات رياضية وثقافية ، وعند المصنع قواعد للراحة ، ومخيمات للطلائع الاحداث ، ورياض اطفال ، وفي المصنع يقدمون بضعة انواع من الخدمات الطبية . ولا يندر ان يقدم المصنع المساحة السكنية ، ويمنح الشباب قروضا لشراء المفروشات او غير ذلك من الاشياء ، ويوزع البضائع التي لا تكفي كمياتها في المحلات ، وقد يكون في المصنع صالون للحلاقة او مستوصف ، او نقطة طبية .

هذه صورة تقريبية بالطبع . ذلك ان الروس انفسهم قلما يعرفون عن انفسهم . فان الاتحاد السوفييتي بدأ للتو يستعمل الاساليب الحديثة للبحث والتحقيق . ومثال كوزنتسوف لا يعكس بالطبع تلك التغيرات الجذرية التي طرأت خلال السنوات العشر الاخيرة في بنية المجتمع السوفييتي الطبقية .

في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية ، ازداد عدد افراد الطبقة العاملة ، كما ازداد عدد المستخدمين ١٠٠ بالمئة بينما الفلاحون الكولخوزيون انخفض عددهم في السنوات الخمس والاربعين المنصرمة ويشكلون في الوقت الحاضر ثمن عدد السكان النشطاء ، العاملين في الوقت الحاضر ، يلاحظ في صفوف الطبقة العاملة بعض النمو في عدد العاملين في الصناعة وفي عدد العاملين في ميدان الخدمات . الظاهرة الاخيرة ترتبط بالثورة الطبية والتكنيكية . وعدا هذا ، اذا كانت الطبقة العاملة قد استكملت وزادت صفوفها حتى الان على حساب الفلاحين ، فان مهنة العامل غالبا ما يرثها الان اولاده . واخيرا يرتفع بكل جلاء مستوى تحصيل الطبقة العاملة ، ففي سنة ١٩٦٠ كان ٦٠ بالمئة من العمال يملكون التحصيل الثانوي ، اما الان ، فان نسبة هؤلاء تبلغ ٨٣ بالمئة .

ورغم ان نسبة العمل اليدوي لا تزال عالية ، ينمو عدد عمال المهن حيث نصيب العمل الفكري اكبر . وقد حسب ان هذا النصيب يبلغ ٧٠ بالمئة في عمل ضابط الماكنات الاتوماتيكية و٩٥ بالمئة في عمل الاختصاصي في ضبط السلاسل الاوتوماتيكية .

وبسرعة ينمو عدد المثقفين . ففي اواخر الستينات واوائل السبعينات ازداد عدد الذين نالوا شهادات التعليم الثانوي والعالي اكثر من ١٠٠ بالمئة . وهذه الظاهرة تلازم جميع البلدان المتطورة صناعيا ، ولكن المثقفين السوفييتيين يتميزون بخاصة مفادها انهم اساسا من ابناء العمال والفلاحين . و٥٢ بالمئة من القادة في جميع المستويات ، من الوزير الى مدير المدرسة ، هم من ابناء عائلات العمال و ٢٦ بالمئة من ابناء عائلات الفلاحين ، الامر الذي يشكل زهاء اربعة اخماس جميع ملاكات (كوادر) القادة السوفييتيين .

مؤخرا صدر البحث الخاص "المثقفون السوفييتيون ودورهم في بناء الشيوعية " ، وقدنوه بالميل الى تشكيل سلالات من المثقفين مثلا . ثلثا الاطباء في مدينة سفردلوفسك هم من ابناء عائلات المثقفين . وهذه السلالات تشكل في ميدان الثقافة ٦٠ بالمئةبين العاملين في حقل الفن السينمائي و ٩٠ بالمئة بين العازفيـــن .

يعتبر اصحاب البحث ان عائلات العلماء والكتاب والفنانيين والاطباء تستطيع ، مثلها

Digitized by Birzeit University Library

مثل سلالات العمال وسلالات الفلاحين ان ترفع المستوى المهني وتسهم في انشاء وتوطيد تقاليد طيبة ، وتنقل الاسرار المهنية . ولكنهم يلاحظون في الوقت نفسه ان هذه الميول قد تسفر عن نشوء روح الفئة المغلقة ، وروح المحافظة ، والحمائية .

وعن هذه الظاهرة، تكتب الصحافة السوفييتية بقلق .

هناك اسباب موضوعية لاستكمال وزيادة صفوف المثقفين على حساب المتحدرين من بيئتهم ،الفرق بين المدينة والريف من حيث مستوى التعليم ، ممارسة الاستفادة في المدن من خدمات المعلمين المعيدين المدفوعين الاجر .

كذلك تتخذ الدولة الاجراءات للاحتفاظ في عالم الطلاب بنسبة من ابناء العمال والفلاحين قريبة من النسبة المئوية لكل من هاتين الطبقتين في المجتمع : الكليات العمالية الاعدادية لدى مؤسسات التعليم العالي الكبيرة ،منح التعليم الكولخوزية ، وغير ذلك .

والتغيرات في البنية الاجتماعية ترافقها ظاهرتان . من جهة، يراقب امحاء الفوارق الطبقية. ومصالح الطبقة العاملة وفئة المثقفين تتطابق اكثر فاكثر . والمقصود من التدابير الجديدة لتطوير النواحي الريفية على الصعيد الاجتماعي ان تقرب بين ظروف الحياة في المدينة والريف . مثلا . في الخطة الخمسية الحادية عشرة (١٩٨١ – ١٩٨٥) ازدادت اجورالعمال ١٣ بالمئة، بينما ازدادت مداخيل الفلاحين الكولخوزيين ٣٩ بالمئة اي اكثر من ١٠٠ بالمئة . وفي الوقت الحاضر يكسب الكولخوزي بالمتوسط ١٥٠ روبلا في الشهر .

ومن جهة اخرى، ارتسمت بكل دقة ميول الى تحسين مكافأة العمل الفكري . وهذا تدبير اجتماعي واقتصادي وكذلك عمل سياسي معقول لان السوائية تستتبع عدم الرضى عند كثيرين من ذوي العمل الفكري .

كذلك غير التمدن سيماء البلاد بصورة جوهرية وقد تعدلت النسبة بين المدينة والقرية كليا . ففي سنة ١٩٤٠ ، كان المواطنون السوفييتيون بثلثيهم يعيشون في الانحاء الريفية، اما اليوم، فان ٦٥ بالمئة منهم هم من سكان المدن. وقد تشكلت مجموعات سكنية ضخمة وازداد عدد المدن التي يبلغ عدد سكان الواحدة منها ١٠٠ الف نسمة واكثر منذ بداية القرن من ١٥ الى ٢٧٣.

بعد قرون من الجمود التام تقريبا ابدى هذا المجتمع حركية كبيرة ، جغرافية واجتماعية على السواء .

في غضون سبعين سنة، اجتاز هذا المجتمع السبل من روسيا القيصرية، من عالم اللامساواة، حيث كان يموت من الجوع والامراض، وحيث كان السكان اميين بثلثيهم الى بلاد كبيرة، عصرية، مستنيرة، غنية بالمدن الراقية .

Digitized by Birzeit University Library

بعض من التفكير النمطي في الأدب العبري

بقلم : رياض بيدس

فالافكار الخطرة بحد ذاتها سموم يكاد لا يدرك المرء اولا سوء مذاقها ولكنها بعد ان تفعل قليلا في الدم تشتغل كمناجم الكبريت ، كما قلت .

(عطيل . شيكسبير)

في مقال تحت عنوان " الادب كبوابة للثقافة " (١) يكتب احد النقاد الاسرائيليين الكبار، البروفيسور غرشون شاكيد، عن اهمية الادب في عملية اعادة خلق تفكير جديد ومحاولة القارئ العادى ترجمة هذا الادب حياتيا، سواء كان يتفق مع تفكيره (الستير يوتيب) ام يتناقض تفكيره (ضد ستيريوتيب) ويخلص الاستاذ شاكيد في مقالة المذكور الى ان للادب اهمية كبيرة في عملية تغيير الفكر النمطي والمقلوب) هو من طبيعة الانسان ، فاننا ، كبشر، مزودون بآراء مسبقة بعلاقاتنا مع الاشخاص والمناظر واشياء اخرى . وان تغييرا بسيطا في علاقاتنا الحياتية قد ينجم عنه تغيير يستدعي معه احلال افكار نمطية جديدة بديلة للاولى .

ويندرج شاكيد في المقال المذكور اعلاه بالمعالجة بكتاب " عزيزى ميخائيل" وكيفية تقبل الجمهور الياباني لهذا الكتاب، حتى يصل الى طرح القضية العربية ـ اليهودية من خلال بعض الروايات، مركزا على اهمية " العاشق" (٢) (١٩٧٥) لابراهام ب . يهوشواع وهنوها الى : " انه باستطاعة كل كاتب كبير ان يتجاوز التوقعات النمطية (المقولبة) السائدة في مجتمعه ... انه ـ الكاتب ـ لا يصف ابطاله وفقا لتوقعات القارئ

Digitized by Birzeit University Library

ما قبل ـ القرائية، الا وفقا للتشابه الانساني القائم ما بعد التباين والاختلاف ".

بناء على هذا، فان شاكيد يرى ان اللقاء بين العربي نعيم وابنة صاحب الكراج اليهودي في رواية " العاشق" يصبح ضروريا ويقنعنا النص ان الحب ممكن وضروري بين الاثنين، وان شخصية نعيم لطيفة جدا لدرجة ان هذه الشخصية تكسر كل شيء رتيب ممكن، ومن بينها الفكرة المقولبة ان العربي مخيف وسلبي ، كعاشق. وبهذا يتم، حسب شاكيد ، " تحويل، بقدر معين، فكرة مقولبة الى افكار نمطيةمقبولة ".

ومهما جاء لنا ان نناقش يهوشواع حقيقة موقفه للعربي ومدى صدق تجربته، فاننا لن نضيف شيئا الى حقيقة ان العربي في رواية " العاشق" كان مقبولا وان الكاتب نفسه ابدى استعداد كبيرا لقبول العربي، رغم قولبته للبطل " نعيم " في احيان .

لكن كيف صار العربي في روايات أ.ب يهوشواع الاخيرة ؟ ان مراجعة بسيطة لرواية " طلاق متأخر " (١٩٨٢) للكاتب نفسه تدل على ان موضوع العربي لم يحظ باهمية كبيرة في هذه الرواية، كما حدث في رواية " العاشق" . واصبح امر " العائلة المجنونة " ـ اليفوريا للبلاد المجنونة ـ يشغل بال هذا الكاتب، كنتيجة طبيعية للازمات المترتبة على السياسة الاسرائيلية التوسعية .

وفي غمرة انهيار الموازين المعقولة والمقبولة، فان ما يجدر الانتباه له هو تغلغل وتفشي ظاهرة الاسقاط . فالاسقاط تحول الى ميزة وعلامة بارزة في مناحي الحياة الاسرائيلية المختلفة . وكما هو معروف ،

فالاسقاط وسيلة لاسقاط ما في داخليهم (هم اي فئة ر .ب) . على الاخرين . ولهذا، فا " الغريب" ، حسب عرف المجموعة الكبيرة يعامل كسيء وككبش فداء . وفي هذا السيا يكتب اريك نويمان فقرة قصيرة تتفق وا هذه البلاد تمام الاتفاق . " ان الاقليات ر كل شعب وشعب، الغرباء، هم موضوعا الاسقاط . وهم مناسبون لهذه الوظيفة، خا عندما يكونون من اصل او قوم مختلف ".

تأكيدا على هذا فان هنالك قولين ن رواية يهوشواع (" طلاق متأخر ") يتركا اثرا بالغا في القارئ بالنسبة للعربي، وهما " لقدجففوا الاتي . كيو خاصتهم بالش الاسلامية ". وفي مكان آخر يخاطب اح الشخصيات اليهودية نادلا عربيا بسيطا ن مطعم الكرمل بشأن نزوح احدهم عن البلا قائلا له بعصبية : " جدي يترك البلاد . انت فرح ؟ واحد اقل ... "

فهل تحول العربي في أدب هذا الكا الى كابوس يجب الخلاص منه باسرع ما يمك ان الاجابة عن هذا السؤال تنبغي ان تن بطبيعة الحال، عبر انابيب السلطة الصهيو الحربجية، وبضمنها اجهزة التعليم الص التي استطاعت ان تنمط تفكير الاسرائيلي خ بالنسبة للعربي، لدرجة اصبح معها العر مثار سؤال في كل كبيرة وصغيرة وكش ف وموضوع اسقاط اساسي .

وفي رواية يهوشواع الاخيرة " مو (١٩٨٧) ـ وبعد الاجتياح الاسرائيلي للب ـ بدت خيبة امل كبيرة تطفو على انتاج الكاتب، الذي اتسم ادبه منذ بداياته الا بالعزلة والرفض ومع ان العربي في

Digitized by Birzeit University Library

الرواية ليست له اية اهميةكبيرة ويظهر بدور الانسان الموصل بين شيئين ، الا انه استرد بعضا من انسانيته وطبيعته في سياق الرواية ، دون ان يتدخل الكاتب في قولبته او تشويه افكاره .

اما عاموس عوز ، الكاتب الاسرائيلي البارز ، فلم يول موضوع العربي اهمية خاصة في روايته لكنه في روايته الاخيرة " علبة سودا" (١٩٨٧) ابدى اهتماما كبيرا في طرح مسألة الصراع العربي ـ الاسرائيلي على نحو واع ، والمفاجأة الكبرى في هذه الرواية هو ما جاء على لسان الفتى بوعز عن العرب . " انا لا اقول ان العرب ليسوا شرامبط . شرامبط في مربع . لكن ماذا ؟الشرامبط هم بشر"

لقد اوردت هذه النصوص الروائية في هذه المقالة لادلل على التفكير النمطي والعنصري لهذين الكاتبين الاسرائيليين . كما انه كان من الضروري الاشارة الى الطريق التي سلكها يهوشواع منذ " العاشق" ونكوصه في روايته الثانية " طلاق متأخر "، ثم التحول في شخصية العربي في روايته الثالثة (مولخو) اثر الغزو الاسرائيلي الهمجي للبنان .

ان تحول العربي في رواية يهوشواع الاخيرة " مولخو" الى اداة توصيل فحسب ، ليبرهن اكبر دليل على التحول الكبير/ الذي سبق هذه الرواية في رواية " طلاق متأخر " والذي كتابه الذي سبق هاتين الروايتين ، حين اكد الكاتب صهيونيته في مجموعة مقالاته : " لاجل الوضع الطبيعي " (١٩٧٨) فلقد روج يهوشواع في كتابه هذا الى ان هناك حقا اخلاقيا ، اضافة للحقين التاريخي والديني ، في اقامة دولة اسرائيل على انقاض فلسطين ، وهذا يعود للملاحقة الابدية التي تعرض لها اليهود وللضائقة التي حلت بهم . ولقد تعززت نظرية هذا الكاتب بالغطرسة العسكرية وتراجع " اليسار الاسرائيلي امام المد اليميني الفاشي ، مما احدث خلخلة وانهيارا في كافة الاجهزة المؤسساتية وبين الافراد العاديين واصبح العربي لقمة سائغة لافواه شرسة

اما بالنسبة لعاموس عوز ، فانه لم يجتهد اكثر في الاهتمام بالعربي لتعاليه ولقصور موقفه بالعربي العادي خلافا لزميله يهوشواع ، لذا رمى العرب باقذع الشتائم في روايته الاخيرة . وحاول ان يسقط على العرب اسباب مشاكل اسرائيل الحالية ، بدلا من ان يضع يده على مشاكل اسرائيل الداخلية والخارجية التي افرزت سياسة حربية في المنطقة مولدة معها عنصرية وفاشية . ان التركيز على العربي في الادب العبرى الحديث من خلال رفضه وكرهه للجانب الاخر هو دليل ساطع على افلاس الكتاب الاسرائيليين فكريا وانسانيا وهو بمثابة عنصرية خطرة في الوقت ذاته . وهذا ما يرتكبه هذان الكاتبان في ادبهما . ويبدو ان السلطة نجحت بجرهما معها وتعبئتهما بتبريرات ممارساتها الهمجية . لكن السؤال الاهم الذى يفرض نفسه ، هو : كيف سيكون هذا الادب بوابة للثقافة ؟!

كنت اتمنى لو حاول الكتاب والنقاد والمفكرون الاسرائيليون ان يضعوا اصابعهم على مصدر الداء الوبيل وان يركزوا على الجانب السلبي في كل مناحي الحياة الاسرائيلية ، بدءا من السلطة والمؤسسات

Digitized by Birzeit University Library

ابعة لها حتى ابسط الاشيا . لكنهم عوضا عن هذا لا شك ان هنالك بعض الاستثنا ات ـ راحوا يزيفون الاشيا ويسقطون هم انفسهم

ضحايا السياسة الصهيونية الغاشمة ، مما اسفر ادبهم وفكرهم بنمطية وعنصرية خطرتين .

الهوامـــــش.

١) غرشون شاكيد " الادب كبوابة للثقافة" ، مجلة لقا (عبريةـ عربية) العدد ٤ ـ ٥ ، شتا ١٩٨٦ .

٢) يتعرض شاكيد في مقاله المذكور لبدايات عوز ويهوشواع ، دون معالجة انتاجهما الاخير (" عزيزى ميخائيل " ، و" العاشق " فقط ١) .

Digitized by Birzeit University Library

الحكواتي في " كفر شما "

سياحة في مواضع الحنين

المسرحية :

وليد اخو زكي مختار كفر شما المستبد، يقرر الرحيل عن قريته بغرض الدراسة والحصول على شهادة . قراره هذا يتخذ سرا ، ويغادر القرية ليلا واهلها نيام ، ويحجم حتى عن ايقاظ زوجته " سمية" لوداعها .

في غيابه تحدث في القرية احداث اهمها قدوم فريق من النور ـ الغجر ـ الى القرية يقدم مشهدا مسرحيا يمثل مقتل احد العشاق من قبل عشيقته . كعوش ، مجنون القرية المولع بالمختار زكي ، يريد اعادة تمثيل المشهد معه دون ان يدرك ان الغجر استعملوا في المشهد خنجرا غير حقيقي . فتكون النتيجة مصرع زكي .

يعود وليد الى القرية، فيكتشف ان اهلها قد غادروها ، ويفهم كعوش ان " سباقا قد جرى بينهم وبين اصحاب المدافع والبنادق " كسبه الاهالي فاختفوا ، وخسره اصحاب المدافع فظلوا مكانهم . ولان كعوش بقي وحيدا في القرية ، فقد قرر تغيير اسمها من كفر شما الى كفر كعوش، وتنصيب نفسه مختارا عليها . يقرر وليد الخروج في طلب اهل القرية ليعلم اين انتهوا ثم ليحاول العودة بهم الى القرية . ويقنع كعوش بعد لأي بمرافقته .

تجوالهم يقودهم اولا الى محجر حيث يلتقون بنجمة، الفتاة التي فقدت بيتها واضطرت الى تحمل مسؤولية نفسها . ثم الى " مخيم في

Digitized by Birzeit University Library

الشمال" حيث يلتقون بكريم المقاتل وبحجلة الخاطبة، فينضمان اليهم . ثم الى" مدينة الرمل والذهب" في الجنوب، حيث يعثرون على احد اهالي القرية وقد اثرى واصبح اميرا ، لكنه يرفض الاعتراف بانه من كفر شما ،فيقتله كريم ، وقبل ان يموت يكشف لوليد ان اهل القرية القى غالبيهم الترحال في الولايات المتحدة . واثناء توجههم الى هناك ينضم الى المجموعة تاجر نابلسي فقد كل ماله وظل ينتظر في الصحراء عشرين عاما .

لدى وصولهم الى الولايات المتحدة، يكتشف رفاق الدرب ان اهالي القرية قد استكانوا الى الرفاهية الزائفة في مقرهم الجديد، وهم لا يعتزمون العودة الى قريتهم . فلا يبقى امام افراد المجموعة سوى ان يعودوا هم انفسهم الى كفر شما ، ليكتشفوا انها ازيلت عن وجه الارض، فيقررون بناءها من جديد واستئناف الحياة فيها . وتحسبا من ان تحول الموانع الموضوعية بينهم وبين هدفهم ، يطلبون من المشاهدين ان يحفظوا قصة القرية كما شاهدوها برووها لمعارفهم .

هذا هو الاطار العام للمسرحية . الوعاء الذى يحوى مادتها الاساسية ونسيجها الحقيقي . وهذا النسيج يتكون من مجموعة ضخمة من الاحداث والشخصيات والمشاهدات ، تمتد على ثلاث ساعات كاملة . والمقربون الى الحكواتي يقولون ان المسرحية كانت في البروفات العامة الاولى تمتد على سبع ساعات كاملة، اختصرت الى ثلاث ساعات خوفا من عدم اقدام الجمهور على البقاء كل هذه المدة في قاعة مسرح . رغبة اخرى للحكواتي لم يتيسر تحقيقها حتى الان ، هي عرض المسرحية في موقع احدى القرى العربية المهدومة في فلسطين، حيث كان يمكن للانقاض ان تدخل في تركيب الديكور كعنصر حقيقي وان يؤدى المسرح بذلك وظيفة ليست عادة : اتاحة المجال امام الجمهور للالمام بقرية مهدومة .

بالاضافة الى كل ذلك اشار الكراس الذى يوزع على الجمهور قبل العرض الى ان المخرج فرانسو ابو سالم اراد اخراج مسرحية يكون موضوعها " الحنين" . وان اعضاء الفرقة عقدوا لهذا الغرض لقاءات طويلة مع محمد البطراوى الذى عاش تجربة النزوح، بهدف تحسس اجواء القرية قبل نكبة ١٩٤٨، ليتمكنوا من اعادة انتاجها في المسرحية متجاوزين النقص النابع عن عدم معايشتهم لتلك الفترة . فالمخرج ابو سالم ولد بعدها ، والكاتبة جاكي لوبيك هي اصلا امريكية من مواليد بروكلين .

والكراس لا يذكر ان كانت نية اتخاذ الحنين محركا رئيسيا لشخصيات المسرحية او احداثها قد بقيت على ما هي عليه في اذهان من انجزوا العمل، وان كانوا يعتقدون انها وجدت تعبيرا في العمل كما رآه المشاهدون على خشبة المسرح. ولا شك انهم تركوا تقرير ذلك للنقاد .

الحنيـــن :

يصعب تخيل موضوع له علاقة

Digitized by Birzeit University Library

بالفلسطينيين لا يكون الحنين احدى سماته الاساسية. فالتجربة الجماعية الفلسطينية بكل جوانبها : الوطن الواحد والمفقود ، الثقافة المشتركة واللغة والعادات ، والنسيج الاجتماعي القائم على الارض والذى يعيد انتاج نفسه في اماكن الشتات ، هي الاساس لما يسمى اليه الفلسطينيون منذ بداية هذا القرن ، ذلك المسعى الذى يتخذ بين ان واخر طابعا مأساويا كما حدث في ١٩٤٨ وفي السنوات القليلة الماضية .

بل ان الحنين عاطفة كل ـ انسانية ، نابعة عن ان الماضي يشكل عنصرا اساسيا في تكوين الشخصية فردية كانت ام جماعية .

الفعل الحياتي الممتد على لحظات الزمن يتجمع شرائح تتراكم في الذات فوق بعضها ، وتشكل الحنين صمخا لاصقا يشدها الى بعضها ولا يستطيع الانسان التخلي عن ماضيه . فهاته تتطور على شكل دورات لولبية : يقدم على الفعل في الحاضر بعد عودته الى تجارب الفعل المعاشة في الماضي ، وما يتم في الحاضر يصبح ماضيا في المستقبل . اذا تمكن الفرد ، او المجموع ، من اتمام فعل فيه تحقيق للذات ،او خاض تجربة اسهمت في تطوره ، ايجابية كانت ام سلبية ، فانها ستحكم تصرفه تجاه ما يواجهه من الاحداث الان . الماضي لا ينتهي بانقضاء الفعل . بل يتحول الى احد مركبات الذات . اذا سمع احدهم عابر سبيل يغني لحنا اجتذبه ، فانه يصغي اليه. وينقضي اللحن بمرور عابرالسبيل ، لكنه يرسخ كله او بعضه في وجدان المصغي ، وهو لا بد ان يعود الى ذاعياته في المستقبل . ومجمل ما يسمعه الانسان في مختلف المراحل سيشكل ذوقه الموسيقي . صحيح ان الذاكرة هي التي ستعيد عناصر اللحن الى الحاضر ، لكن الحنين سيتكفل من جديد باستثارة المشاعر التي بعثها اللحن في كيان الانسان . فالذاكرة عملية عقلانية تختص بالتواريخ والامكنة والازمنة ، بينما الحنين عاطفة ، ومجاله بالتالي هو المشاعر والاحاسيس .

ان ما افعله اليوم سيصبح ماضيا غدا . وما افعله غدا سيصبح ماضيا بعد غد وهذه هي مأساوية الحياة . ما اسعى اليه قد ابلغه وقد لا ابلغه ، لكنه في كل الاحوال لن يلغي سعيي ، اى حاضرى . في خضم النضال نحو تحقيق الحقوق ، فان الحاضر ـ النضال ـ هو القيمة التي لن يلغيها الهدف ـ الوصول الى الحقوق . لذلك لا يمكن للانسان ان يستخف بحاضره او يأخذه على سبيل الدعابة ، لانه اذا فعل ، فسيجد يوما انه لم يخلف في ذاته سوى الدعابة ، وسيتخذ حنينه الى ماضيه عند ذلك طابعا لاذع المرارة لانه لن يجوس الا في ثنايا الاحبـــاط .

الحنيـــن الى كفـــر شمـــا :

من الناحية التقنية اعادت مسرحية كفر شما انتاج الدورة اللولبية للحياة : دوائر من العودة المستمرة الى الماضي في التعامل مع الحاضر ، لا يوقفها الفشل في العودة باهل كفر شما الى قريتهم ، بل يبقى المجال مفتوحاامام الفعل الحياتي . يقول وليد وهو يقف مع اصدقائه الخمسة على انقاض كفر شما ، ما معناه انهم قرروا اعادة بناء حياتهم في القرية ، وانه اذا تعذر ذلك بسبب ظروف قاهرة ، فانه

Digitized by Birzeit University Library

يطلب الى المشاهدين ان يسمعوا قصتهم ويروووها للاخرين حتى لا تضيع وحتى تكون اساسا لمواصلة العمل . وقبل ان ينفذ المشاهد وصية وليد هذه، فان عليه ان يجد الجواب على عدد من الاسئلة يقرر على اساسه ان كانت قصة كفر شما كما عاشت في كيان وليد ونقلها اليه جديرة بان تروى . وقد تكون هذه الاسئلة ما يلـــي :

١) ما هي كفر شما بالنسبة لوليد : هي الموقع الجغرافي فقط، ام هي التجربة الحياتية التي خاضها فيها ومع اهلها ، وانتجت انتمائه اليها واليهم ؟.

٢) في حالة كون كفر شما التجربة الحياتية لوليد ، فما هي عناصر هذه التجربة؟ مم تتكون ؟ وهل تستطيع ان تبرر حنين وليد اليهـــا ؟.

٣) كيف عامل وليد وصحبه ــ على ضوء تلك التجربة ــ الحاضر الذى يلاقونه في تجوالهم . هل عايشوه فنقلوه الينا من داخله، بكل ما هو حقيقي فيه، ام راقبوه فقط ، فنقلوا الينا شهادة مراقب يرى الامور في تعبيراتهم الخارجية فقط ؟.

نتعرف الى كفر شما من خلال روايات وليد عنها ، ومن خلال احداث تجرى فيها اثناء غيابه . والكراس الموزع قبل المسرحية يذكر ان وليد هو " راو للقصص" ، الا ان المسرحية تكتفي بتقديمه في مواقف الرواية مرات قليلة فقط .ويروى وليد كفر شما على ثلاثة اشكال : انطباعات، رومانسية تتناول المواسم والمناخ، وروايات عن شخصيات من اهلها انطبعت في ذاكرته ويستدعيها حنينه، وروايات عن احداث شارك هو نفسه فيها .

أما الوصف الرومانسي فيعتمد عبارات مستهلكة عن ازهارها واشجارها المثمرة ونساءها : " ياسمين ، كفر شما دايما ريحتها ياسمين .. قبل ما اتجوز سمية كان الياسمين مزهر .. البنات في كفر شما كل واحدة احلى من الثانية واى واحدة منهن طلعتها احلى من القمر ... كنا نوكل التين بالرطل والشام بالميات . كل فواكه الله انخلقت في كفر شما ..." ثم يختار هذه الكلمات لوصف مهرجان الالوان الذى ينتج عما تلبسه النساء: "احمر .. زخرى ... ازرق .. بستان ورد وهي محنيات يعبين البراميل بها لزتيون اللي ما فيش مثله، وقفاهن اللي ما فيش مثله بها السراويل المبرقة "٠١.

وعن اهل القرية، اولئك الذين يحبهم ويدفعه حنينه اليهم الى محاولة استعادتهم اليها ، يروى وليد في موقعين او ثلاثة اخرين، فيقتبس احد الاهالي، ابا موسى ، في احدى اقواله الحكيمة: " اذا بتشقلب الدنيا بتلاقي انه الشجر بتاعك ما هو الا شروش شجر تاني ثانيين في دنيا ثانية" وهذا يوصله الى وصية حكيمة اخرى:" اصحى تسوى اش لحالك، اصحى تكون زى زكي، اذا بديت لحالك بتوقف لحالك ". وعن واحد اخر من اهل البلد انطبعت في ذاكرة وليد حادثة تفيد بانه ضرب زوجته لانها نشرت الغسيل بالمقلوب ' اما الحوادث التي كان هو نفسه ــ وليد ــ طرفا فيها ، فلا يروى سوى حادثة واحدة تظهره مع بعض اصحابه في فترة الحداثة يبطحـــون المختار ويصبون في حلقه قنينة عـــرق .

والمختار المذكور، الذى توحي القصة بان

Digitized by Birzeit University Library

الشباب انتقموا منه بصب العرق في حلقه ، هو في الواقع زكي اخو وليد ، الذى تعرضه المسرحية في فصلها الاول شخصا لا يستنكف من اللذات ، ولا يعبأ في سبيل اقتناصها بانتقادات مجتمع القرية المحافظ له . وكان الاجدر والحالة هذه ان يفرح بصب العرق في حلقه ولا يضطر الشباب الى اجباره عليه .

بهذا تقريبا تتلخص ذكريات وليد عن قريته : قليلة كما ومستهلكة سوقية مفككة نوعا . ولا يمكن بالتالي ان تكون اساسا لحنين جارف يدعو الى التجوال ومواجهة الاهوال بغرض محاولة احيائها . الا ان ناحية مهمة يتحدث عنها وليد لدى عودته الاولى الى القرية واكتشافه ان اهلها هجروها ، قد تصلح لان تكون ذلك الدافع الى التجوال . تلك هي علاقة وليد بأخيه زكي . وهذا الاخير تعرضه المسرحية من ناحية طاغية مستبدا يستأثر بالسلطة وعناصر الثروة ويتخذ القرارات الخطيرة لوحده . لكن تلك القرارات التي يتخذها تكشف — من ناحية ثانية — عن شخصية حديثة واسعة الافق ، تستطيع ان تحدد ما هو ضروري حقا لمصلحة القرية : فهو يسعى الى شق طريق معبد اليها سوف يربطها بالعالم الخارجي ، ويفتح امامها افاق التطور ، وهو يوافق على التنازل للحكومة عن قطعة ارض جبلية لاقامة برج للبث الاذاعي عليها ، ولم يطالب مقابل ذلك بمنحه حق استخدام الراديو ، تلك الوسيلة الحديثة للاتصال . وهو ذو اهتمامات ثقافية . يشارك في تطوير الذاكرة الجماعية من خلال روايته للقصص ، وفوق ذلك حتى يصفه كعوش المولع به ، بان "ما في مثلها " عكس رواية وليد التي يسخر عليها كعوش اقبح النعوت .

مع اخيه زكي يطور وليد علاقة تضاؤل . فهو يتحدث عن عدم احترام زكي له واستخفافه به ، وعجز وليد عن فرض نفسه عليه لذلك فهو يغادر القرية سرا للدراسة ، املا في ان تزوده الدراسة بالادوات التي تحسن في وضعه . واغتراب وليد للدراسة ، او للحصول على الشهادة ، يكشف عن ارادة لمنازلة اخيه المختار . اما اختياره لهذا الحل وليس للعمل مع الناس بغرض فرض مشاركتهم في السلطة ، فتدل على ان هدفه هو الوصول الى السلطة . صحيح ان السعي الى السلطة لاجل السلطة فقط لا يكون الا دافعا مشوها لن ينتج الا حنينا مشوها ، لكنه دافع والسلام . فهل حقا يسعى وليد الى السلطة ؟.

ان الاحداث تقول عكس ذلك . فوليد على مدار المسرحية لا يبدو في غالب الاحيان ينجر وراء رفاقه . هم يبادرون وهو يهرول في اعقابهم ، هم يضغطون وهو يخضع لضغوطاتهم فهو يترك المحجر لان نجمة تورطت في اشكال مع رئيس العمال ، ويترك " مخيم اللاجئين في الشمال " لان كعوش لم يعد يطيق البقاء فيه ولان نجمة تلح عليه بالسفر بعد ان عثرت اخيرا على احد اهالي كفر شما . وهو لا ينجح في فرض التعامل مع امير النفط بالتالي هي احسن كما اراد ، حتى ان كريم يطلق النار على الامير تحت سمعه وبصره ، وهولا يحاول ابدا ممارسة سلطته كمختار — بالوراثة بعد مقتل زكي — على اهل كفر شما الذين يعثر عليهم في الولايات المتحدة ، بل انه يمتنع بعدّ كل هذه الاهوال — حتى عن مجر ان يقترح عليهم العودة معه الى القرية .

Digitized by Birzeit University Library

من ناحية ثانية لا يتمتع وليد بهيبة الرجل القوى الساعي الي السلطة، حتى ان كموش مجنون القرية يعامله معاملة العاجز الذى لا يحسن الا توريطهم ، في المأزق دون هدف واضح.بل ان كموش لا يحجم عن " بهدلته" و " مسح الارض به " مستعملا عبارات بذيئة مثل " يا ابو فص" و " يا فقاعة ضارطة " .. الخ .

اذن لم تكن لوليد حياة سعيدة خلاقة في كفر شما ، ولا يحمل عن اهلها سوى صور كاريكاتورية مضطربة ، وبالتالي لا يمكن ان يكون دافعه الى التجوال الحنين اليهم واليها والسلطة هي الاخرى ليست دافعة . لا بد للمشاهد اذن من ان يتوصل الى ان الدافع لا يكمن في شخصية وليد نفسها ، بل ربما في ما اراد ان يتوصل اليه من انجز العمل : المخرج والكاتبـــة .

شخصيـــة حيـــة ام ذريعـــة ؟ .

اذا استذكر المشاهد الاعمال السابقة التي قدمها الحكواتي ، يلاحظ ظاهرة تكررت مرتين على الاقل : في " محجوب محجوب" ، الشخصية الرئيسية، محجوب، هي شخصية سلبية، بمعنى غير مبادرة، تقوم المسرحية على رواية ما يحدث معها وليس ما تحدثه هي محجوب يكتفي برد الفعل على ما يأتي بـه الاخرون . والاخرون ليسوا شخصيات بل انماط تمثل مجاميع مختلفة : موزع المناشير ، رجال الامن الذين يطاردونه، تشيطوا النقابات المحلية ، تشيطوا الهستدروت ... الخ . محجوب ايضا هو شخصية نمطية تمثل " واحدا من هذا الشعب " . او بالاحرى المواطن البسيط الذى كل همه العيش بأمانة ، وكل ما تحدثه الشخصيات الاخرى يفسد عليه هذا الامان . وذلك يدفعه ، اذا لم تخني الذاكرة ، الى جولة في بلادالله . والامر كذلك في " جليلي يا علي" . فكل ما نعرفه عن ماضي علي انه ابن قرية عربية دفع به ظلم ابيدك وحرمانه من الميراث الى مغادرتها . لكن وصوله الى تل ابيب يعطي المسرحية فرصة تصوير المجتمع الاسرائيلي وكيف يعامل العرب فاذا نظرنا الى كفر شما ، وجدنا ان شخصية بدون ماضي وبدون دوافع حقيقية او حتى وهمية مثل شخصية وليد ، لا بد انها تؤدي وظيفة ذريعة لجولة اخرى ، هي في هذه المرة جولة في الشتات الفلسطيني .

الحكواتي ينحو في اعماله المسرحية نحو المسرح الملحمي .وهذا المسرح كثيرا ما يلجأ الى الرحلات ،لانها توفر له الفرصة لاستخدام العديد من ادواته . فاتساع الرقعة زمانا ومكانا يسمح بتعدد الشخصيات والاحداث، ويبرر استعمال تكنيك الرواية واستخدام عناصر فنية مختلفة مثل الغناء والحواديث . وقد ادخل بريخت تكنيك التغريب الى المسرح ، لان وجد حاجة لابعاد المشاهدين عن الانجراف بالتعاطف مع الشخصيات ، ودفعهم الى اعمال العقل اثناء عملية المشاهدة نفسها . ان الملحمة تحمل في ذاتها اصلا عناصر التغريب لان شخصياتها ترمز عادة الى مجموع وليس الى افراد ، عكس المسرح الدرامي الذى يتعامل في الاشكالات الخاصة والحميمة للافراد . كما ان كون شخصيات الملحمة تتنازعها قوى متناقضة ـ دعوني اشدد هنا : متناقضة وليس

Digitized by Birzeit University Library

ملكه ، اى يحكمها منطق متماسك وليس
خيالي ـ هو ايضا عنصر تغريب اضافي .
وعندما اضاف بريخت تكنيكات تغريب اخرى
الى المسرح الملحمي فقد اضاف تغريبا الى
التغريب . لكن بريخت كان شاعرا وفنانا معايشا
لما يكتب من داخله وعندما وضع نظريته في
التغريب افترض ان من سيستخدمها سيكون هو
ايضا شاعرا وفنانا ، وسيبدع شخصيات واحداثا
تبلك في المشاهد تعاطفا او نفورا سيأتي
التغريب لمنع طغيانهما على المشاهد.
فالتعاطف او النفور لن يحدثا الا اذا كانت
الشخصية حقيقية حية محتلة لمكان حقيقي
بكافة ابعادها ، اذ قد يلجأ المسرح الى
التركيز على هذا الجانب او ذاك من شخصياته
لكنه يحرص عندها ان تتحرك الشخصيات
في اطار منطق متماسك وان تأخذ مكانها في
النسيج المسرحي الذي يتشكل من فسيفساء
من الشخصيات تحتل حيزا كبيرا او صغيرا ،
وهو ما اذا كان المسرح يزعم انه يعالج
موضوعا ـ الحنين مثلا ـ ولا يكتفي بتقديم
مجموعة من الاسكتشات . والنسيج المسرحي
الجيد هو الذي يتطور الى فسيفساء متناسقة
تتطلع رويدا مع تقدم العمل في وجدان
المشاهد وعقله ،حتى الاكتمال .

في كفر شما تتم المشاهدة على مدى
الجولة من خارج ما يحدث ، ومن خارج
الشخصيات ايضا. لذلك تصعب متابعة خط
منطقي يحكم تصرفات الكثير من الشخصيات او
يبرر معنى ظهورها في هذا المكان او ذاك
من المسرحية . وتبدو المسرحية مجموعة من
الصور التقطها مراقب ـ سائح ـ لم يكن لديه
اي احتجاج لتجاوز الخطوط الخارجية لما يراه .
وكل الشخصيات متماسكة ما دامت مجرد صورة
قائمة في ذاتها ، اما اذا انتقلت الى الفعل
فانها تحفل بالتضاربات . اما الاحداث فلا
تأتي على الغالب الا لتؤدي وظيفة واسطة
تنقل السائح المراقب من مكان تمت
مشاهدته الى مكان آخر .

فالمحجر ـ المحطة الاولى في الجولة ـ
يتكون بشكل رئيسي من صورة العمال بعضهم
تحت العرائش وبعضهم تحت الشمس ، يؤدون
عملية دق الحجارة في ضجيج تعطيه ضربات
الطبل ايقاعا رتيبا . والحدث في المحجر هو
اللقاء بنجمة . وهذا يتم على حركتين :
الاول تعرفنا بنجمة على لسان كعوش فنعلم ان
زوج امها طردها ، فانصب اهتمامها في
تشردها في تحصيل ما يقيم اودها ، على
الاغلب عن طريق السرقة. ونعلم ان امنيتها
ان تصبح ممثلة ، وهي امنية فريدة في مثل
هذا السياق . اما الحركة الثانية ، فهو
دخولها في اشكال مع رئيس العمال . وهذا
الاشكال لا نراه بل نعلم به من روايتها هي .
والاشكال يكون الواسطة للانتقال الى المشهد
التالي : المخيم . قبل ذلك تستمع الى
احدى العشوائيات المسرحية : فكعوش
المجنون ، الذي لم يكن لحظة متحمسا
للجولة ، يأمل ان تحل نجمة في قلب وليد
محل سمية زوجته ، الامر الذي سينهي الدافع
الى الجولة ويسمح بالعودة الى كفر شما .
والمشكلة هنا في منح سمية هذه المكانة لدى
وليد ، علما بانه لدى مغادرته القرية في
غيابه الطويل للدراسة لم يخبرها بسفره ، بل
لم يوقظها لوداعها بحجة انه لا يريد ازعاجها
من نومها .. وايضا ، عندما يمزق كعوش
ونجمة شهادة البكالوريوس التي كانت ثمرة

Digitized by Birzeit University Library

اغتراب وليد الطويل، لا يبدو على هذا الاخير اى تأثر ولا اى تعليق علما بانه ينوه اكثر من مرة ان الشهادة هي التي ستعيد احترام الناس له. وهذه الشهادة نفسها، ثمرة التعليم الجامعي لسنوات طويلة، لا تؤهله النهاية لان يعرف اين تقع ماساشوستس، الولاية الامريكية.

في المخيم ـ اطول مشاهد المسرحية ـ تأخذ المراقبة الخارجية مداها. ويبدو المخيم عالما من الدمار لا تستمر فيه الحياة الا لان الموت لم يصلها بعد. لكن الذين يعيشون فيه اكتملت فيهم الشروط لاستقبال الموت: انعزلوا عن كل واقع، فقدوا كل اتصال فيما بينهم، وانقلبت مفاهيمهم رأسا على عقب. الدمار يبدو وكأنه حدث فجأة نتيجة لكارثة طبيعية مثلا، او هجوم نووي، وليس دمارا نابعا عن عملية تدرجت على امد طويل. والفرق بين الحالتين واضح: في الحالة الاولى يتصرف الناس تحت وقع الصدمة المفاجئة، كأنهم في حلم او كابوس سينقضي باستيقاظهم. لذلك يبقى الفرع داخليا، وينصب الاهتمام على الاقرب: النواة العائلية وتوفير الحاجات الملحة لها. اما الغرباء الذين يطرأون فهم جزء من الكابوس يفضل عدم احقاظهم ولا داعي لاظهار الريبة بهم. قليل من الحذر فقط مع المحافظة على قواعد اللياقة. اما في حالة الدمار التدريجي، نتيجة لعملية تم الدخول اليها بشكل واع، فهناك الاستنفار والتنظيم الجماعي للحياة، ووضع قواعد للتصرف مع الغرباء ... الخ.

والمراقب الخارجي المنقطع عن متابعة الاخبار لفترة طويلة، اذا وصل الى مثل هذا المكان المدمر، فان ما سينطبع في ذاكرته يكون صورا لا رابط بينها: رجل عجوز يجيب "بأي نعم" اوتوماتيكية على اي سؤال يوجه اليه، ويصطحب السائلين بشكل غريزي الى بيته جريا على عادات الضيافة. امرأتان وطفل الانقاض تطرزان قطعتي قماش بحركات ميكانيكية. اطفال يلعبون دون ان يحفلوا بانقلاب المفاهيم: "الحارة الفوقا تحت والحارة التحتا فوق". فاذا تكشف لهذا المراقب بعد ذلك ان المدار هو نتيجة قتال طويل الامد، فانه لا يسعى الى معرفة سبب القتال، ومن يقاتل من، خاصة اذا اكتشف ان خلفيات القتال معقدة. ويرى المقاتلين يأتون الى مقهى وسط الدمار في فترات الاستراحة بين المعارك، فيبدو له ان المعارك امر مستقل قائم بذاته لا فائدة من محاولة ادراك كنهه. وينسحب هذا الزهد بادراك الامور حتى على عالم اللاواقع الذي تلجأ اليه الشخصيات، فيقول كعوش عن فيلم يشاهده بالفيديو، انه لم يعد يعرف "من البطل ومين زعيم العصابه، ولمين اصفق". ويشغل وليد نفسه بامور ابعد ما تكون عما يجري حوله، ويشعر بالانزعاج الشديد لانه نسي اسم ذلك الرجل الذي ضرب زوجته لانها نشرت الغسيل بالمقلوب. وتنطلق نجمة في رحلات طويلة غامضة لغزو عالم الوهم، فهي تريد ان تصبح ممثلة. ويجد احد المقاتلين فرصته في روايات وليد المستهلكة عن قريته حتى ينقل ولاءه من زعيمه الذي يقوده في المعركة الى الراوي. ويتضح انه لا فرق كبير بين الراوي والقائد، فهذا الاخير ايضا لا يعرف وطنه يروي من خلال خارطة يضعها في جيبه،

Digitized by Birzeit University Library

الكاتب

وكل ما يمنيه من هذا الوطن ان يتحول الى مادة تخن عقائدى للمقاتلين ، وحتى هذه المادة مشوشة في رأس القائد ، فهو ضد المختار لانه " برجوازى حقير " ، لكنه ايضا ضد الشاب لانه يعتبر عبث صبهم للعرق في خلق المختار تمردا . اما مشهد الحب بين المقاتل كريم ونجمة ، وهو احد التكونات الدرامية النادرة في المسرحية ، فينتهي الى لا شيء بحيث لا مفر من اعتبار العاطفة المشبوبة التي ظهرت فيه تكنيكا غزليا كالذى يستعمله صيادو السائحات في باب الخليل .

ما يتبقى من المسرحية يتركب معظمه من الصور : صورة امير النفط التي تتطابق وصور سيدات الخمسين عن امراء النفط ، تلك الصور التي ما زالت شائعة في الغرب ، ومجموعة من الصور الكاريكاتورية للمهاجرين العرب في امريكا ، تظهر ان وجودهم يتركز الى المظاهر الخارجية لمجتمعين : مجتمعهم الاصلي والمجتمع المضيف . فهم يتكلمون العربية مخلوطة بكلمات امريكية ، ويتفاخرون بمظاهر الرفاهية الزائفة ، كالستائر الجديدة والتركوم والسوبرماركت ، ويحولون الولاء لمؤسساتهم الى طقوس تستخدم رموزها الفولكلورية : الحطة وطبق اقراص السبانخ .

ومع ذلك لا تخلو " كفر شما " من تجليات مسرحية ذات قيمة . بالعكس ، يكاد كل مشهد ان ينطوى على مثل هذه التجليات . لكن المشكلة انها ـ في الغالب تبرز فجأة وتنتهي فجأة كأنها لم تكن فيما يلي من الاحداث . حدثنا عن قصة الحب بين نجمة وكريم ، وشارك في الفصل الاول ذلك التكون الذى صورة بوصول الفجر الى القرية ومسرحيتهم التي يقلدها كعوش دون ان يدرك عنصرا اساسيا فيها : الخنجر الخاص بالمسرح ، فيتسبب ذلك في قتل زكي ، الشخصية الوحيدة المكتملة مسرحيا . ومصرع زكي هذا يبدو مجانيا لا يضيف الى الموضوع اى بعد ، اللهم الا التشديد على ضعف شخصية وليد من خلال مقارنات كعوش بين الاثنين . ولولم يقتل زكي ، لكان يفترض ان يكون هو الجدير بمكابدة الحنين الى القرية والخروج في طلب اهلها ، وتكون ساعتها ذنوبة الاستبدادية وصراعها في داخله مع كونه شخصية فاعلة حديثة ، مذخلا لجولة جدية في الماضي والحاضر . عبد ـ التاجر النابلس المنتظر في الصحراء ـ يلقي ايضا في خضم رواية طويلة لا تضيف شيئا ، بجملة تتحدث عن صراع بين الريح والرمل " الريح تسعى الى الحرية والرمل يطلب بالاستقرار " . وهذا مرتكز درامي حقيقي ، لكنه ايضا يقف عند هذا الحد ، لا قبل ولا بعد .

وفي المسرحية ايضا ذلك الاكتمال في استخدام المؤثرات : الاضاءة ، الصوت ، الموسيقى ، والضبط التام لحركة الممثلين بعد اعطائها انسيابا نادرا في مسرحنا . الموسيقى تستخدم تقنيا بشكل جيد لكنها ايضا لا تنجو من الخلط : قربان الربيع لسترافنسكي خلفية لمشهد الحب بين نجمة والمقاتل ، مقدمة " هذه ليلتي " اغنية ام كلثوم على مشاهد الدمار في المخيم ، ثم الحان الشيخ امام لاغاني المسرحية . وهي قصة تكشف في حد ذاتها " اللجوء الى الرموز " دون محاولة تخطي حدودها الخارجية . فقد خصصت اربعون ساعة فقط للقاء الشيخ وتعريفه بالحكواتي واطلاعه على المسرحية وتحفيظه

Digitized by Birzeit University Library

نص الاغاني ثم تلحينها من قبله . وهذا غير كاف لانضاج تفاعل حقيقي بين مسرح فلسطيني وفنان مصري تقدمي ، لكنه بالتأكيد كاف لاظهار اسم الشيخ على الافيش .

وبعد، فان للحكواتي ـ وللمخرج فرانسوا ابو سالم بالذات ـ موقعا في المسرح الفلسطيني لا يمكن تجاهله . عدة خطوات كانت تبدو احلاما انجزوها باصرارهم وتفانيهم في العمل وروح المغامرة التي ميزتهم :ادخلوا دفعة واحدة مفاهيم ما كان المسرح سيتطور اليها من تلقائه الا بعد زمن. تفرغوا للعمل المسرحي محتملين ما يفرضه ذلك على ايامهم وايام افراد عائلاتهم من ظروف وفي وقت كانت فيه مجرد فكرة التفرغ تعتبر ضربا من المستحيل . بنوابايديهم ـ حرفيا ـ المركز الاول والوحيد حتى الان للمسرح الفلسطيني في الوطن، وتغلبوا في سبيل ذلك على صعوبات كان اقلها جديرا بان يثبط الهمم. اوصلوا المسرح الفلسطيني الى الجمهور في الغرب وعودوه ان ينتظر مسرحية فلسطينية على الاقل كل سنة . ولم تعد اية دراسة للمسرح الفلسطيني في الداخل تستطيع تجاهلهم دون ان تدفع ثمن ذلك من جديتها

الذى اتم كل تلك الانجازات حقيق ان يتفرغ الان للانجاز الرئيسي والاكبر : المسرح بمفهومه الحقيقي . والمسرح مهما كان التكنيك الذى يستخدمه ـ هو قبل كل شيء معايشة وليس مراقبة . معايشة تتم من داخل الموضوع نفسه . تتحدث هنا عن قضية شعب . والقضية والفعل اليومي داخلها هي بحر متلاطم لكن مياهه تبقى صافية. وحقيق بمثل هذه المياه المتلاطمة الصافية ان تكون على اطرافها حفرا من المياه الاسنة الضحلة . وقد تكبر هذه الحفر وقد تصغر، ومن واجب المعايش ان يلتفت اليها بالتأكيد فيحاول سبر غورها . لكنه لن يفعل ذلك دون ان يخوض العباب الصافي . وكما قلنا فان حاضر الانسان لا يمكن ان يؤخذ مأخذ الهزل ، وان ينفيه الانسان خائضا في المياه الاسنة . فالقضية ليست قضية هذه الزعامة او تلك ، او هذه المرحلة او تلك ، القضية هي التي تفرز المراحل ، وتتالى المراحل لكن القضية تبقى .

مركز يافا للتوثيق والاعلام

Digitized by Birzeit University Library

فصل من رواية "أيام لا تنسى"
للأديب جمال بنورة

هذا فصل من رواية الاديب جمال بنورة " ايام لا تنسى" التي ستصدر قريبا عن منشورات الكاتب وهي رواية محكمة البناء تتكون من ثلاثة اجزاء يصور فيها الكاتب باسلوب فني متقدم احداث حرب حزيران عام ١٩٦٧ العدوانية، وجمال بنورة ليس جديدا على الادب فقد عرف لقراء العربية منذ الستينات ـ وصدرت له عدة مجموعات قصصية منها " العودة" و " حكاية جدي"و" الشيء المفقود" و " الموت الفلسطيني" ومسرحيتان هما " السجين، وكان الموت ونحن على ميعاد " وقد ترجم عدد من قصصه الى عدة لغات اجنبية .

المحرر الثقافي

صباح الاثنين ، الخامس من حزيران .

افقت على صياح مذعور ، وصوت ينادي :

- سمير .... ! سمير ... ١٠٠

نظرت حولي .. طالعتني علامات مثيرة للدهشة والفزع ، ترتسم على الوجوه ، صرخت ، وقد اسند بي ذعر مفاجئ :

- ماذا هنالك ..؟؟

وسمعت على الفور ازيز طائرات تحلق على ارتفاع منخفض . وجاء الرد من سميحة حاسما مثل مكين تقطع اللحم :

- قامت الحرب .. يا سمير ١٠٠

قفزت من الفراش كالملسوع ، وانا اتساءل :

Digitized by Birzeit University Library

– ماذا ...؟ الحرب .. ؟ متى ..؟ كيف .. ؟!

– استمع الى الراديو لتعرف كل شيء ..!

أسرعت الى الغرفة المجاورة . كان صوت ام كلثوم ينطلق على اشده مرددا " راجعين بقوة السلاح " واقشعر بدني وانا استمع الى كلمات الاغنية التي تفيض حماسا ، وتعلقا بالوطن . اخذت انقل الابرة الى جميع المحطات .. كانت كل الاخبار تشير الى ان الحرب قد اندلعت فعلا .. والان .. ما العمل ؟ هناك ما يجب ان افكر به ، وان اعمله ، ولكنني لا ادرى ما هو ؟! شعرت كأن الحرب فاجأتني ، كأنني لم اكن مصدقا انها ستقع .. احسست نفسي كالضائع .. لا بد ان عملا ما ينتظرنا .. هذا اليوم الذي تكلمنا عنه كثيرا .. هل استعددنا له ؟! وانقذتني سميحة من حيرتي قائلة :

– أول شيء .. عليك ان تذهب لاحضار ميسون من المستشفى . وصلنا خبر انهم اخلوا جميع المستشفيات احتياطا للطوارئ ..

ارتديت ثيابي على عجل ، وسميحة تساعدني في ذلك .. وتلقي على مسمعي بالانباء التي سمعتها من الراديو عن وضع الجبهات

– أحمد سعيد يقول ان مصر اسقطت اثنتين واربعين طائرة .

شعرت بالاعتزاز ، وبقرب تحقيق النصر .. ! ولكن شيئا ما استوقفني عند هذا الرقم .. اذا كانت مصر قد اسقطت هذا العدد من الطائرات .. فكم طائرة تكون قد هاجمتها ؟! وأى قوة طيران تملكها اسرائيل ؟! .

في دقائق كنت مستعدا للخروج . قالت سميحة :

– لقد اعددت لك الفطور ..!

– لا نفس لي ..!

– " اكسر السفرة " على الاقل . !

– لا استطيع ..!

كان ريقي جافا .. رغم ذلك لم اتمهل لشرب القهوة .. صببت في جوفي كأسا من الماء البارد ، وخرجت .

كان الناس يتراكضون في الشوارع .. وفي وسط البلد كانوا يتهافتون على ابواب الحوانيت التي شرع اصحابها باغلاقها ، وكان احد الناس يصرخ :

– اللهاكبر .. من يصدق انه لا يوجد سكر في البلد ؟!

وكان آخر يتصايح مع احد التجار :

– انتم معنا ام مع العدو ..؟!

– لا احد يجبرني على البيع !.

وكانت اخبار المعارك تنطلق من جميع الاذاعات ، وتتردد في الاجواء .. تسمعها وانت تسير في الشارع ، من جميع البيوت التي اغلقت على اصحابها ، او من اجهزة الترانزستور التي يحملها بعض اعضاء الدفاع المدني ، الذين كانوا يتجولون في الشوارع وهم يضعون شارة الدفاع المدني على اذرعهم . وسألني احدهم :

Digitized by Birzeit University Library

- الى اين ؟

شرحت له الامر على عجل . قال :

- عد بسرعة الى مركز الدفاع المدني في مدرسة الروم .. فأنت معنا ..

وكان فتحي قد اخبرني ان اسمي ادرج في قائمة الدفاع المدني .

قلت :- اعلم ..!

وأضفت متسائلا .-

- هل هنالك من جديد ؟

- ليس اكثر مما تذيعه الاخبار ..!

واستأنفت سيري مسرعا . بحثت عن سيارة ، فلم اجد . انتظرت طويلا .. كان بعض الاشخاص ينتظرون ايضا . جاءت سيارة تسابقنا اليها . رفض السائق ان يتزحزح من مكانه . قال :

- انا ذاهب الى البيت رأسا .. المواصلات توقفت . لا احد يروح ويجيء .

رجوناه طويلا .. حتى استجاب الى طلبنا . ما ان مشت السيارة بضع مئات من الامتار . حتى كان زامور الخطر يملأ الجو بزعيقه .. فملأ نفوسنا رهبة ، وتبعه دوى طائرةيصم الاذان ، توقفت السيارة ، ونزلنا منها بحثا عن مكان نحتمي به . نظرت الى السماء .. كانت طائرة تركض في الجو على ارتفاع منخفض ، ومن خلفها طائرة اخرى . قال البعض ان طائرة عراقية تطارد الطائرة الاسرائيليـــة .

ابتعدت الطائرتان . عدنا الى السيارة . قال السائق نادما :

- انا غلطت بمجيئي معكم ..!

أوصلنا الى الموقف عند باب الدير في بيت لحم . رجوته ان يوصلني الى المستشفى فرفض . مشيت اقطع الطريق بخطوات سريعة .. كانت الشوارع قد بدأت تخلو من المارة ، والمحلات قد اغلق معظمها ، او يستعد اصحابها للاغلاق ، والناس يهرولون .. وبعض رجال الامن يتوزعون هنا وهناك .. يدعون الناس لاخلاء الشوارع ، والاختباء في الملاجئ .. صاح بي احدهم :

- ماذا تفعل هنا ؟ هيا ..! سوف تضرب ..! جيشنا دخل المعركة ..!

قلت بنرفزة :- اضربوا ..! ماذا يمنعكم من ذلك ؟!

عاد يصرخ :

- هيا .. اخلوا الشوارع ..! الم تسمع ..!؟

على درج السوق عند المنارة قابلني فوزى .. سأل بلهفة :

- ماذا تفعل هنا ؟

أخبرته بسرعة انني ذاهب لاحضار اختي من المستشفى . ثم سألته :

- وأنـــت ؟

- سمعنا الاخبار . اغلقت النوفوتيه ، واريد العودة الى البيت .

هززت رأسي ، وانا اقول بلهجة اعتذار :

- علي ان اسرع ..!

ومضيت راكضا ، دون ان التفت اليه . عندما وصلت كانت تقف امام المستشفى سيارة اسعاف

Digitized by Birzeit University Library

الكاتب

، والى جانبها سيارة عسكرية ليس بهما احد . كان باب المستشفى الخارجي مفتوحا . دخلت ، فلم اجد احدا امامي ، ولا حتى بواب المستشفى . سرت في الممر الطويل . كانت غرف المرضى مشرعة الابواب ، وليس بها رائحة انسان . صعدت الى الطابق الثاني . هناك رأيت ممرضة تجلس الى مكتب صغير .. قادتني الى غرفة الاطفال .. وهي تقول :

ـ تأخرتم في المجيء !..

قلـــت :

ـ لم نعرف انكم اخليتم المستشفى الا صباح اليوم !.

ـ لم يبق في المستشفى سوى ابنتك وولد آخر !

كنت أريد ان اصحح خطأها ... ولكن لم اجد اهمية لذلك كما لم يكن لي رغبة في الحديث ، دخلت الغرفة . طالعتني ميسون بابتسامة فرح ملأ محياها ، وارتمت في حضني .

ـ خفت ان لا تأتوا !..

حملتها بين ذراعي ، وهي تسأل ، كما لو كانت تحس احساسا غامضا بان شيئا ما يجرى حولها .. فخلو المستشفى ، وجو الوحشة الذى يهيمن عليه ، قد عكس ذلك في احساسها :

ـ ستأخذني الى البيت ؟

أجبت فورا : ـ ايوه

وبدا لي ان حالتها الصحية قد تحسنت كثيرا .

كان الصبي الاخر يجلس على سرير مجاور . وقد لاحظت فور دخولي ان جوا من الصداقة والالفة يسود بينهما ، فكأنهما لا يباليان ، بما يجرى في العالم ، في غرفتهما تلك المنعزلة في المستشفى .

أخذ الصبي ينظر الينا مبهوتا ، ونحن نستعد لمغادرة الغرفة وكأنه لا يستوعب ان تفارقه ميسون ويبقى وحيدا في المستشفى .. تغير لونه فجأة ، وميسون تناوله جميع ما معها من قروش وحلوى وفاكهة ، ثم اخذ ينشج في بكاء حاد . ونزل عن السرير ، ولحق بنا وهو يصرخ :

ـ بدى اروح .. بدى امي !..

سألت " الممرضة " .

ـ هل استطيع ان ارى الطبيب ؟

ـ انه ليس هنا .. !

سألتها ثانية ان كانت البنت تحتاج الى علاج آخر

ناولتني روشيتة ، وهي تقول :

ـ اشتر هذا الدواء .. كتبه الطبيب لها

وشرحت لي طريقة استعماله . شكرتها ، واستدرت لاخرج كان الصبي قد سبقنا ، واخذ يهبط الدرج مسرعا . لحقت به الممرضة . امسكت بيده ، واخذت تراضيه دون فائدة . عدت اسألها مشيرا الى الصبي :

ـ لماذا لم يحضر اهله ؟

ـ لا ادرى ... ربما لم يصلهم خبر .. !

Digitized by Birzeit University Library

- هل هم بعيدون من هنا ؟
- نعم .. فهم من قضا الخليل .. واخشى ان لا يتمكنوا من المجيء ...
قلت في تردد .
- هل استطيع ان آخذه معي .. ؟
- لا استطيع .. على مسؤوليتي ...

خرجت وانا امسك بيد ميسون . التفتنا الى الوراء على صراخ الصبي ، والممرضة تحاول جاهدة ان تهدئه . تركناهما في المستشفى وحيدين ، وغادرنا مسرعين .

على قارعة الطريق ، انتظرنا — على غير طائل — ان تمر بنا سيارة . اسرعت في المشي ، وانا امسك بيد ميسون وأحثها على الاسراع . كان التعب باديا عليها ، ولا تستطيع مجاراتي في المشي حطتها بين ذراعي وسرت بسرعة اكبر وانا اسمع هدير الطائرات من جديد وهي تعربد في السماء كانت تغيب وتظهر . تحوم في السماء لتحديد الهدف الذي ستلقي عليه قذائفها . وسمعت اول طلقة مدفعية تصوب نحو الطائرات من منطقة " الراس" في بيت جالا . واشتد القصف بعد ذلك من كلا الجانبين .

في المدرسة عرجت على صيدلية الشعب لشراء الدواء . كانت معظم المحال قد اغلقت ، وظلت الشوارع تماما ، حتى من رجال الامن ، وكان صاحب الصيدلية بهم بالاغلاق ايضا . اصبحت تحس كأن العالم تخلى عنك .. وعليك وحدك ان تدبر امورك .

وصلت البيت بعد عناء . اقبلت على المذياع بلهفة لاسمع الاخبار.وصل عدد الطائرات التي اسقطت على الجبهة المصرية اثنتين وسبعين ١١ وصلت طلائع السوريين الى مرج ابن عامر ١١٠٠ الجيش العربي يحتل المكبر ١١٠٠

يا الهي ١٠٠ ان الحرب توشك ان تنتهي .. وبهذه السرعة ١٢٠٠ كم تستطيع اسرائيل لن تصمد ؟؟١١ .. لن تغيب شمس اليوم الا وتكون قد زالت من الوجود . ١١ وشعرت بشفقة انكرتها بيني وبين نفسي — على مصير اليهود المساكين ١١ . واخذت اتخيل دخولنا منتصرين الى يافا ، حيفا اللد .. الرملة .. الناصرة ... التي لم تكن نعرفها الا من خلال الصور التي كانت تزين جدران المدرسة وتحتها كتب بخط عريض : " لا بد من تدمير اسرائيـــل ١٩٠٠ " .

قالت سميحة بلهجة خائفة :
- اخوك سليم في المعركة الان ١٠٠
قلت مفتعلا الحماس :
- لا داعي للخوف .. ستنتهي الحرب في وقت قريب .. ربما هذا اليوم وسيعود سليم الى البيت خلال ايام قليلة ..
قالت بعدم تصديق .
- هذا الكلام .. لا يكفي لطمأنتي ١٠٠
قلت : — هو ليس وحده في المعركة على كل حال ١٠٠
قالت : — بالي لا يهدأ من التفكير به ١٠٠

Digitized by Birzeit University Library

فكرت .. انهم الان يواجهون الموت .. وماذا نعمل نحن ؟ لماذا يموتون هم ، ونحيا نحن اننا لانعمل شيئا !! ما دورنا في المعركة ؟ كنت احس بخوف حقيقي على سليم رغم ما اتظاهر به امام سميحة .. النصر لا يأتي بدون تضحيات .. وسليم ؟ ربما كان احد الضحايا !.. كنت افكر في ذلك ، وفي نفس الوقت احاول طمأنة سميحة وابي الذى كان يظل صامتا طول الوقت .. لا يتحدث بشيء ... وكأنما يحتفظ بأحزانه ومخاوفه لنفسه ... بينما كنت احس بما يعتمل في صدره .. وسألت نفسي معزيا : " هل اريد نصرا .. دون ان اخسر شيئا .. ؟؟ " وكأنني كنت اتوقع ما اخشاه . وافكر بانانية .." على ان لا يكون سليم !.."

وانتبهت على سؤال سميحة :

— .. كيف نستطيع ان نطمئن عليه ؟

قلت مهونا الامر :

— لا تدعي القلق يستولي عليك .. انه رجل .. ويعرف كيف يحافظ على نفسه ...

وأضفت بعد قليل :

— ماذا نستطيع نحن له ...؟ لا شك انه يريدنا في هذه اللحظة الا نخاف عليه !..

كنت اريد ان استزيد من الاخبار .. فكرت بالخروج . افصحت عن رغبتي في ذلك . قالت سميحة متذكرة :

— جاء فتحي للسؤال عنك .. اخبرته اين ذهبت . قال انه سيعود ثانية !.

قلت : — سأجده حتما في مركز الدفاع المدني .

قبل ان اخرج .. كان فتحي يطرق الباب ...

استقبلته بلهفة .. انه الانسان الذى احتاج لمحادثته في هذا الوقت ..فهو بدون شك الاكثر معرفة ببواطن الامور ، وهو بحديثه يبعد عنك الخوف ويمنحك الثقة في المستقبل بادرته قائلا :

— كنت سأذهب اليك.. لو لم تأت !..

اول ما جلس، قال في رجاء ، موجها حديثه لسميحة :

— هل لنا بفنجان قهوة .. نبل ريقنا ..؟

قلت مؤيدا كلامه :

— انا ايضا ريقي جاف .. منذ الصباح لاموء ونقلي سوى الدخان ..

عقب قائلا :

— ومن له نفس ليأكل ؟

ذهبت سميحة لاعداد القهوة، بينما جلس فتحي واجما متفكرا .. نظرت اليه طويلا لا ادرى من اين ابدأ . اخيرا قلت .

— ما رأيك في هذه الحرب ؟

قال متحيرا :

— ليس من السهل اعطاء رأى .. قبل ان تتضح الامور اكثر !..

شعرت بخيبة . لم اتوقع ان يظهر عجزا عن اعطاء رأى . في هذه المسألة .

أضفت متسائلا :

Digitized by Birzeit University Library

- الا تعتقد ان اسرائيل هي التي بدأت الحرب ؟
- لا احد يعرف تماما .. فكل طرف يتهم الاخر . وان كنت اميل للاعتقاد بأن اسرائيل هي البادئة .

ثم اضاف بعد قليل .

- لا يهم من بدأها .. المهم انها قامت .. وستأكل حطبا كثيرا . نخزني قلبي على سليم .. ولكنني لم اظهر مشاعري امامه . قلت :
- انا اخالفك الرأي !.
- في ماذا ؟ .
- اذا كانت اسرائيل البادئة ، فمن المؤكد انها واثقة من نفسها . او مطمئنة لمساندة امريكا لها .. وهذا ما يخيف !!.

قال وهو يهز رأسه في توكيد :

- هذا صحيح !!.

خيمت علينا سحابة من الصمت . كان فتحي يبدو كأنه لا يجد ما يقوله .. الى ان سألت :

- ما هي اخبار البلد ؟ ماذا يقول الناس ؟
- الناس يميلون للاعتقاد بأن مصر هي التي شنت الحرب على اسرائيل .. ولكن هجوم الطيران الاسرائيلي على مصر .. جعل الناس في بلبلة .. لماذا لم يكن العكس ؟! وهم لا يعرفون من يصدقون الان !.
- والمعنويات ؟
- عالية بلا شك .. وهناك بعض الناس يراقبون معركة المكبر بالمناظير عن سطوح المنازل .

ثم اضاف :

- ولكن اكثر ما يغيظني ان التجار بدأوا يستغلون الناس .
- ما هو موقف المسؤولين ؟
- لا سائل ولا مسؤول في البلد ... !

دخلت سميحة في تلك اللحظة . سألت :

- ماذا تتحدثان ؟

اجاب فتحي :

- هل هناك غير سيرة الحرب ؟

سألته ، وهي تصب القهوة :

- اتعتقد انها لصالحنا ؟!.
- لنأمل ذلك ؟ ... فقط لو يزودونا بالسلاح ...

قلت :

- ربما لا نحتاج السلاح .. اذا كانت اخبار المعارك صحيحة .. فسوف تنتهي الحرب قبل نهاية هذا اليوم .. والا ستتدخل امريكا ... ما رأيك ؟!.
- بالتأكيد .. امريكا لن تتخلى عن اسرائيل ..

Digitized by Birzeit University Library

الكاتب

ثم ملتفتا الى سميحة وهو يتناول منها فنجان القهوة ويخصها بنظرة متودة :

ـ تسلم يداك ..!

قالت وهي تبادله النظر ، وقد بدا عليها شعور بالارتياح لوجوده بيننا .

ـ ويـــداك !.

وتناهى الى اسماعنا اصوات طلقات المدفعية والرشاشات . زالت الابتسامة عن وجه سميحة وهي تقول :

ـ الضرب ليس بعيدا عنـا !..

قال فتحي :ـ

المعركة تدور في جبل المكبر !.. الم تعلمي بعد ؟.

قالت بخوف :

ـ ليس مستبعدا ان يكون سليم هناك !

فتحي ـ هناك الاف مثله .. وجميعهم لهم اهل يقلقون عليهم .. الا يمنحك هذا بعض العزاء !.

ويبدو ان فتحي استطاع ان يدخل بعض الطمأنينة الى نفسها ... فقد عادت الابتسامة الى وجهها ثانية . سرني ذلك ، فقد كنت حريصا على توفير السعادة لها مثلما كانت تحرص على سعادتي . لو كنت استمعت لنصيحتها ، ربما تغير مجرى حياتي ، فقد كانت على علم بعلاقتي مع ناهدة .. وكانت تريد ان يتم زواجي بها قبل ان اسافر .. كأنما قلبها كان يحدثها بما يمكن ان يحصل .. ولكنني لم اكن مهيئا للزواج ، كما انني لم استسغ فكرة ان اتزوج قبلها . وقد صارحتها بذلك فقالت :

ـ لقد انتهيت من التفكير في هذا الموضوع .

وقد حملني استعدادها للتضحية في سبيلنا على الحزن من اجلها . وجلعني ذلك احس بالمسؤولية تجاهها .. لا بد ان اكافئها على محبتها لنا .. وكنت لا اعمل شيئا .. اعتقد انها لا ترضى عنه ...

عندما ابدى فتحي رغبة في الذهاب ، تضايقت من ذلك .

وحاولت استبقاءه لبعض الوقت .. كان يبدو مترددا ، وقد شعرت انه يوليها اهتماما خاصا .. ولم تكن هي اقل اهتماما به .

وقد اعتبرت ذلك نوعا من الاستلطاف بينهما ، ولم يبتعد تفكيري الى اكثر من ذلك .. فلم اكن افكر بسميحة كأنثى تتعرض لانظار الرجال . فقد كانت من عادتها ان تجالس اصدقائي ، وتتحدث معهم . وكانت لها شخصيتها المميزة التي تستطيع بها التأثير على الاخرين واكتساب احترامهم .. وكان اهتمامها بأصدقائي نابعا من محبتها لي ، واما فتحي فكانت تعامله معاملة خاصة كأنه واحد منا .

بعد قليل عاد فتحي يقول ، وقد تغلب لديه الشعور بالمسؤولية :

ـ لا بد من الذهاب . يجب ان نكون في مراكزنا الان .. ربما يحتاجون الينا !..

مشت سميحة معانحتى الباب ، وعندما التفت اليها مودعا . قالت كأنما تدعوه ثانية لزيارتها :

ـ لا تتأخرا كثيـــرا !...

Digitized by Birzeit University Library

الكوفية البيضاء

د. ابراهيم العلم

في دكان صغيرة شبه مظلمة، يقعد ابو خميس كل صباح يتأمل المارة وهو يستمع الى الاخبار، ولا بد من ان يجذب انتباهك بكوفيته التي يندر مثلها في مدينة عكا ، وبما احتوته الدكان .

على ان ابرز ما يطالع المرء حين يطل على مدخلها ، معالم القدم ، فما ان يلج الى الداخل حتى يصافح انفه رائحة خاصة تنبعث من الرفوف القديمة والنوافذ الخشبية العتيقة، اذ تمتزج برطوبة المكان ويتخللها عبق البحر .

والدكان الى ذلك جزء من لوحة باهتة الالوان تضم شارع عكا الضيق المسقوف كمغارة تحتي جانباها فكأنه يوشك ان يعانق الجوانيت القائمة فيه .

وأبو خميس الى كونه بائع شراب مثلوج ، يحتفظ بكتب قديمة تطالعك في مهابة وهي تستقر على الرفوف بعضها فوق بعض ، على غرار المعبود في عرض الكتب .

فسألته بعد فترة صمت رحت خلالها اقلب عناوينها .

— وهل هذه الكتب للبيع ؟ .

نظر اليّ في دهشة واستهجان ثم صوب عينيه نحوها قليلا ، كما يفعل الاب حين يسأل عن ابنه الواقف بجواره .

— هذه الكتب ليست للبيع !.

قال ذلك في لهجة حازمة ثم اردف :

— الا انها غيرمحجوبة عمن يريدالاطلاع على امر يتصل بتاريخ فلسطين ومدنها .

فلم اكن اعلم حين عرجت على حانوته لشراء كوب من الشراب المثلوج انني سألتقي برجل يتجسد فيه ماض مشرق . كانت لهجته تشي بانه ينتمي الى الريف ، وانه طارئ على هذه المدينة ، وقد رجح هذا الظن صورة له كانت موضوعة على احد الرفوف في اطار بني صغير وتشير الى انه كان منخرطا في صفوف الثوار سنة ١٩٣٦ وكانت الحطة التي يرتديها في الصورة ذات لون ابيض كالحطة التي يسربل بها رأسه اليوم . وقال هو يرمق الصورة

— ليس مهما ان يشير اليّ الجيران باسم الفلاح، ففي الحطة ماض، ولكنهم يجهلون ان هذه الحطةتشير ايضا الى

Digitized by Birzeit University Library

انني مازلت فلاحا ثائرا .

ثم صمت قليلا، وطفق يتأمل صورته قبل ان يستدرك بالقول :

ـ لعلك لا تعلم ان الكوفية كانت زى الثوار ولن اخلعها ما دامت بلادنا في ايديهم .

ثم تركني وخطا بضع خطوات الى الامام ، ليبيع كوبا من الشراب لاحد المارة . فتفرست في اطار الصورة في اعجاب ، كان مصنوعا من خشب الزيتون ، وقد بدا لا معا بالرغم من السنين الطوال التي انقضت على صنعه .

وقال وهو يرجع النظر الى صورته :

ـ حقا لست من ابناء عكا ؟.

اذ كان سجينا حين غادر الانجليز فلسطين سنة ١٩٤٨ .

ـ نعم اقمت في السجن عشر سنوات بالتمام " فقد انيطت به مهمة الحصول على السلاح من معسكرات الانجليز " ثم اردف :

ـ فلم نتمكن انا وزميلي من الوصول الى مخزن السلاح ، فجعلنا الحارسين هدفنا . اذ رأيناهما يحملان بندقيتين جديدتين وكان الكعب الخشبي في كل منهما يلتمع بلون "جوزى " جميل .. فاقتربنا منهما متظاهرين ببيع شراب السوس ، فطعن رفيقي احدهما في خاصرته ، وما ان التفت الاخر صوبه ، حتى عاجلته بطعنة اخرى . وبعد خمس دقائق كانت البندقيتان في ايدينا .. كيف حدث ذلك ؟ انا نفسي لا اعرف ، ولكن العزيمة كانت رائدنا ، وكان السلاح هدفنا فحققناه .. ان السرعة يا صديقي امر حاسم في مثل هذه المواقف ، هكذا علمنا الشيخ عز الدين القسام حين كان يدربنا في جبال حيفا ، فانا تلميذ القسام ، انا البقية الباقية من جيله ، هل تعرف القسام ؟.

ـ قرأت سيرة حياته ؟!.

ـ القراءة وحدها لا تكفي يا صديقي .

ـ اعرف هذا الا انه أغنى عنها للاقتداء به .

فقد كان ابو خميس تلميذا في المدرسة الابتدائية الوحيدة في القرية ، وكان ابوه آذنا فاعتنى به معلمو المدرسة الثلاثة عناية خاصة ولا سيما ان اباه كان يوفر لهم خبز الطابون الطازج مرتين في الاسبوع .

وذات يوم لفت نظره منشور سري وزع في المدرسة يندد بالاقطاعيين الذين يبيعون اراضيهم للعدو .

وحين ارتحل الى الناصرة للعمل في شركة التبغ ، علم الكثير عن مؤامرة العدو للاستيلاء على الارض ، فقد كان احد الزملاء يمده ببعض المنشورات ، ويحدثه عن ثورة لا بد من قيامها ، ولم يكن آنذاك يتجاوز التاسعة عشرة من عمره ، وحين سأل زميله عن اسباب انقطاعه عن العمل اجابه في اقتضاب " ستعرف حين يحين الوقت " .

ـ لا بد من ان اعرف الان اذا كان من الضروري ان اعرف .

ـ اذن تعال بعد الظهر الى المقهى الذي اعتدنا الجلوس فيه .

وما كان اشد سروري عندما علمت بامر القسام ودعوته .. اجل القسام هو الطريق اذن ، ولا طريق سواه ، فلامض اليه لاستمع الى درسه ، الامر الذي مكنني من ان اشترك في الثورة حين قامت ، فقد كنت مهيئا للقتال .

ثم استأذن قليلا ليبيع شرابا لبعض الزبائن ؟ حدثت الى الرجل العجوز معجبا ، فبدا لي عندئذ اشبه بعملاق بالرغم من جسمه الضئيل ، اذ كانت السنوات الخمس والستون قد قرضت الكثير من عافيته ، فكان الفرق

Digitized by Birzeit University Library

تاما بين صورته في ذلك الاطار وبين جسده اليوم

- حملنا البندقيتين الى القرية فاستقبلنا رفاقنا باعجاب ودهشة وربما غبطنا بعضهم لانا نرنا بسلاح كانوا يتحرقون الى حملة . اما اني نظفت تنعتني امام قريباتها بالبطل . الا انها لا تلبث ان تستدرك :

- ولكنني لا اراه اكثر مما تريته واذا حضر الى البيت لم اعرف كيف دخل !.

وحين ابلغت ابنة عمي ان حبي لها يجب ان يتكلل بالزواج ، رقصت البهجة في وجهها بيد انها ما عتمت ان حزنت بعدما طلبت منها ان ترجئ هذا الامر حتى تنتهي الثورة وتحقق النصر . ثم هتفت في حماسة وقد استعادت ثوريتها .

- سأنتظرك فانت مجاهد شجاع ، ولا ارغب في ان تشمت بي البنات لو تزوجت سواك فقد حسدنها حين رأين اهل القرية يفخرون بي ويشيدون بشجاعتي .

ثم زفر في حرقة وبصق :

- تفو .. ماذا يفيد الخونة حين يتعاملون مع الاعداء .. لقد كنت انا وبعض الرفاق ضحية وشاية قام بها احدهم ، اذ افلحوا في ان يزرعوا الجواسيس في قرانا ! فاقتادتنا الدورية الى مركز الشرطة مخفورين بالسلاسل وكأنهم يمسكون بصيد ثمين .

واكتست عيناه بالغضب وهو يسترجع صورة اعتقاله .

- ايام طويلة قضيتها داخل الزنزانة ، كنت خلالها اترجح بين الموت والحياة قبل ان يحكم علي بالسجن المؤبد . الاانني قضيت عشر سنوات وحسب اذ رحل الانجليز فأخليت السجون .

وما عتم ان ابتسم مزهوا وقال في صوت حاد :

- دخلت السجن بعد طلاء ابوابه وقضبانه باللون الاصفر ، وقد راقبت خلال تلك السنوات العشر كيف اخذ الحديد يصدأ ويهترئ ، على حين كنا معشر السجناء نزداد صلابة وعنفوانا . اجل يا صاحبي تآكل الحديد امانحن فخرجنا اقوياء ، وشرعنا نلتمس السلاح في الحرب الجديدة دفاعا عن بلادنا ، الا انني جرحت في كتفي وحملت الى المستشفى ، وما اشرفت على البرء حتى كانت عكا تسقط في ايديهم .

ثم اطلق زفرة حارة وأردف :

- كأنما كتب عليّ ان اظل سجينا في هذه المدينة ، عشر سنوات في سجن اوسع داخلها ، عملت خلالها صياد سمك ، وحمالا في الميناء وبائع خضار جائلا ، وها انا اليوم ابيع الشراب وعزائي الوحيد انني ما زلت املأ رئتي كل صباح بهواء بلادي ، وحين يداخلني الالم امضي الى الشاطئ ، فانعم النظر في مياه البحر الزرقاء . وربما تراءى لي نابليون على ظهر سفينته الحربية وهو يستدير بظهره مدحورا بعد ان عجز عن اقتحامها فأتنفس الصعداء .

Digitized by Birzeit University Library

الصديق الحق

وضاح السعد

جاء الثعلب يوما وهدم بيت الدجاجة الرقطاء اثناء غياب زوجها الديك الهرم واكل بعضا من صيصانها الصغيرة .

جلست الدجاجة الرقطاء امام بيتها المهدوم تبكي وتندب حالها مرت بقربها الدجاجة البيضاء . قالت الدجاجة البيضاء ـ لم تحسن بناء بيتها فاستحقت الجزاء . وتابعت سيرها دون اكتراث . وبعد قليل جاءت الدجاجة الرمادية وقفت امام البيت وقالت ـ مسكينة، ايتها الدجاجة الرقطاء . الشتاء على الابواب . فكيف ستتقين شر البرد ؟ ومضت في سبيلها .

نظرت الدجاجة الرقطاء الى السماء وقالت في نفسها بالفعل الشتاء على الابواب : كانت حائرة لا تدري ما العمل، شاهدت من بعيد الدجاجة السمراء والديك الاحمر يحملان خشبا ومسامير يتقدمان من بيتها المهدوم . وحال وصولهما لم يسألاها شيئا فقد عرفا ما حل بها من مصيبة وباشرا ببناء بيت جديد للدجاجة الرقطاء التي شكرت لهما فعلتهما هذه وقالت والدمعة في عينيها لقد عرفت الصديق الحق .

الكنز

==========

يحكى ان فلاحا له ولد وحيد وقطعة ارض صغيرة كان يزرعها زيتونا وتفاحا ، قمحا وشعيرا وخضارا . احب الفلاح ارضه حبا جما، والارض بدورها احبت الفلاح وكانت في كل عام تكافئه على حبه هذا باعطائه محصولا وافرا عمل الولد مع ابيه في الارض وكانوا سعداء فرحين . وفي سنة من السنين شح المطر وعطشت الارض فلم تستطع مكافأة الفلاح كما اعتادت كل عام .

دب الخوف من المستقبل المجهول في نفس الابن الوحيد . حاول الفلاح تهدئته وتطمينه وقال : لم الخوف يا بني ان لدينا من القمح والزيت والزيتون ما يسد حاجتنا لعدة سنوات وما علينا الا ان ننتظر رحمة السماء ونواصل عملنا في الارض .

Digitized by Birzeit University Library

قال الابن لقد مللت من العمل في الارض التي لا تغني ولا تسمن من جوع . سأذهب للبحث عن الكنز في بلاد ما وراء النهر . غضب الاب من كلام ابنه وقال : ان تركت الارض يابني فسوف تلعنك .

لكن الولد لم يسمع كلام ابيه وفي الصباح قبل بزوغ الشمس اخذ الزاد والزوادة وتوجه الغربي للبحث عن الكنز . وبعد عده ايام من السير الحثيث نفذ ما لديه من طعام وشراب واشتد الحر وكاد ان يهلك من شدة العطش . الى ان رأسه على صخرة في بطن الجبل واغمض عينيه ليطرد شيئا من التعب والاعياء الذي اشتد به . وبينما كان كذلك سمع خريرا ماء من جدول قريب . في البداية كذب نفسه فمن اين الماء في هذه الجبال الجرداء . احسن السمع ، فاذا صوت الماء اكثر وضوحا . جمع ما تبقى من قوة واندفع ينطلق بمنة وبسرة ويلهث بصوت مسموع وقد مد لسانه من فمه ككلب اخذ بالعطش مأخذه . وبعد فترة وجيزة استطاع تحديد مصدر الصوت فتوجه نحوه وما هي الا خطوات قليلة حتى رأى ماء صافيا يتدفق من النبع ، شعر بانه اقوى من ذي قبل . فحث الخطى ورمى بنفسه على حافة النبع فانعكست صورة وجهه الشاحب على صفحة الماء اغمض عينيه وغب غبا كبيرا من الماء وكاد ان يقول في نفسه الحمدلله لولا الطعم المالح الذي عاد اليه بعد ان عاود التنفس . حاول ان يخرج الماء المالح من احشائه الا ان سربان الملح في عروقه كان اسرع فينهض لا يدري ما العمل . انتظر . حاول ان يصيح بأعلى صوته لعل احدا ياتي لمساعدته ، لكنه لم يستطع فقد تجمد واصبح على هيئة تمثال ملحي . وبقي على هذه الحال سنين طويلة لا احد يدري عن مصيره شيئا . بكى الفلاح بمرارة على هذه الحال سنين طويلة لا احد يدري عن مصيره شيئا . بكى الفلاح بمرارة على قدر ابنه الوحيد الذي هجر الارض . وتنقل في كل الجهات يسأل الناس عن ولده لكن احد لم يخبره شيئا وفي النهاية وبعد ان ملمن التجوال صعد الى قمة الجبل العالي واخذ يصيح باعلى صوته يا طيور طائرة في الجبال العالية .. اخبروني اين ابني . وبينما كان ينادي وبعيدا المناداة حط امامه على غصن شجرة بلوط قديمة طائر السنونو الجميل الذي وصل لتوه من بلاد الشمال هربا من برد الشتاء نظر اليه الفلاح وسارعه بالسؤال متوسلا هل تعرف شيئا عن ابني ايها الطائر الجميل ؟ هز السنونو رأسه بالايجاب وقال لقد رأيت ابنك في الوادي قرب نبع الماء المالح على هيئة تمثال ملحي .

بكى الفلاح من هول المصيبة التي حلت بولده ، لكن طائر السنونو تابع حديثه وقال لا تبك ايها الفلاح فما عليك الا ان تحضر ماء عذبا وتتبعني الى مكان التمثال .

عمل الفلاح ما طلب منه وتوجه مع طائر السنونو الى الوادي . وبعد ايام من السير والطيران وصلا الى مكان التمثال الملحي . في البداية احتار ولن يعرف ماذا سيعمل . وقف مبهورا . وقال في نفسه لقد ضعت وضاعت ارضي فلن يحرثها احد من بعدي . وكاد اليأس ان يستولي عليه الا ان طائر السنونو اشار اليه بسكب الماء العذب على رأس التمثال ليذيب الملح . فعل الفلاح بنصيحة الطائر وما هي الا لحظات حتى دبت الحركة في التمثال الذي فتح عينيه ليرى والده امامه فارتمى في احضانه والدمعة في عينيه وما انفك يردد سامحني يا ابي لقد

Digitized by Birzeit University Library

اخطأت . فرد عليه الفلاح بامكاني ان اسامحك يا بني لكن عليك ان تطلب السماح من الارض التي هجرتها .

رفع الفلاح رأسه الى السماء ليشكر طائر السنونو الجميل الا انه لم يجده فقد ارتفع الى الفضاء يضرب الهواء بجناحيه ويطير بسرعة فقال الفلاح رافقتك السلامة ، ربما هناك اناس آخرون بحاجة اليك رافقتك السلامة .

عاد الفلاح بصحبة ابنه الى الارض فرحا . ومن يومها بدأ الولد يحفر الارض وبقي يحفر ويحفر حتى تدفق الماء من جوفها عذبا صافيا فصاح الولد من شد الفرحة لقد وجدت الكنز ... لقد وجدت الكنـز ..

Digitized by Birzeit University Library

بيت الراحة

باسم النبريص

قال يوسف الخطي لنفسه حالما استيقظ من النوم انه تعبان .

فكر يوسف الخطي قليلا في اوضاعه ثم تجرع جرعة من الماء وقال انه تعبان وكحيان وبيكل زفت كمان .. ثم غطس تحت اللحاف .

ثم يوسف الخطي رائحته المكتومة فاستطابها ، وسمح لامعائه ان ترسل المزيد ، فالوقت وقت اربعينية وشتاء هذا العام مثل كلب مسور ، ثم من ذا الذي سيعنفه على هذه العادة السيئة ؟ .

ان عياله حردانة عند اهلها منذ شهر ، وهو ان كان غير سعيد تماما لتقاعسه عن ارجاعها ـ مثلما هو الان متقاعس عن الذهاب الى بيت الراحة ـ الا ان قلبه لا يخلو والحق يقال من الشعور بالرضى الخفي جراء ذلك .

صحيح انه يحتاس في مسألة الاكل والشرب والذي منه ، ولكن صحيح ايضا انها وفرت عليه اكلها ومصاريفها ـ وما اكثرهما ـ .

انها بنت حلال هذه الحرمة على اية حال ، فيوسف الخطي في هذه الايام خالي شغل ، ومنذ متى كان يوسف الخطي صاحب شغل ؟ .

ان بهدلته اليومية ومرمطته في موقف ابو رجب لاتسمى شغلا على اي نحو . فهو من ذلك الصنف الذي يفضل العودة الى البيت دون عمل ، على ان يعمل بأجر منقوص .

وهو رجل صاحب كرامة ـ وان كان زملاؤه العمال يعتبرونها تياسة راس ، ولقد اقسم منذ مطلع شبابه الا يسمح لاحد باستغفاله واستعباطه والضحك على ذقنه ، بل انه يخشى الى حد الوسوسة ان يتحول ذات يوم الى العوبة في ايدي " الكبلانين " .

ولقد جرت عليه هذه الخشية متاعب وهموم يقول عنها يوسف الخطي انها مثل " " نعم الكريم لا تعد ولا تحصى " ، وهو لن يذهب بعيدا ، ففي الشهر الفائت فقط ، حدث ان اخذه احد اليهود الشكناز من موقف ابو رجب ، ويوسف الخطي ليس مكلوبا على الشغل حتى يتشعبط السيارة مثل عمال الموقف دون اتفاق . لقد اتفق مع الشكنازي على اربعين شيكلا كل شيكل ينطح اخاه يقول له سلم على الذي بعدك . ولقد وافق الشكنازي ذو الرائحة الزنخة على ذلك ، وعمل يوسف

Digitized by Birzeit University Library

الخطي سحابة ذلك اليوم بهمته ونشاطه المعهودين ، فرفع الف حجر بلوك مجوز من الارض الى الكوما الرابعة ، وحين جاءت الساعة الثالثة رفض ان يرفع بلوكا واحدا واصر على اخذ اجرته والعودة الى المخيم. ورغم ان الشكنازى رجاه بل اغراه بان يعطيه عشرين شيكلا آخر مقابل رفع المائة بلوك الباقية ، الا ان يوسف الخطي ركب رأسه وجعل اذنيه ، من الدبش والباطون . وحين رأى الشكنازى ان يوسف الخطي عمل له " بنشر" ، اعطاه ثلاثين شاقلا فقط ، وادعى ان ذلك هو ما اتفقا عليه بالضبط .وهنا مرت دقائق قليلة شعر فيها يوسف الخطي بشيء من البلاهة والحيرة وعدم الفهم ، ودائما ما تحدث معه مثل هذه الاشياء في مثل هذه المواقف ـ ثم انقض على الشكنازى ، وكانت نهاية لقصة في سجن " ابو كبير" كالمعتاد .

ان مثل هذه القصص عاديةجدا بل هي من مستلزمات الشحططة على المواقف في عرف يوسف الخطي . وهو يعتبرها شيئا طبيعيا في حياته ، تماما مثلما هي الشمس تشرق من الشرق ، ومثلما هم انذاك حكام العرب .

على ان شيئا من الاسى والمرارة يترسب في اعماق يوسف الخطي عقب كل حادثة من هذا النوع ، فهو في الاخير يكون قد خسر اجرة يومه واجرة تعطيل تلك الايام التي يمضيها في " ابو كبير" .

ولقد كان باستطاعته ان يغير طريقة حياته هذه ، وان يعمل مع احد الكبلانين الدائمين او يعمل في شركة ويستقر مثل غالبية الناس ، ولكنه لا يستسيغ الاستقرار ولا يصبر على انتظار آخر الشهر حتى يقبض ، ثم ان السبب الجوهري في عدم انتظام يوسف الخطي في اية شغلة اسبوعا واحدا هو حبه لتغيير الوجوه ، فتغيير الوجوه رحمة ، فما بالك اذا كانت هذه الوجوه هي وجوه حايم ودوف وايتسك وياكوب ... وكلهم قارئون على شيخ واحد ... ، وكلها وجوه عفشة ماسخة حاقدة لا تضحك للرغيف السخن ؟.

ان يوسف الخطي يشعر انه ليس مقصرا في حق نفسه ولا في حق زوجته كما يقال ، فهو يعمل الذى عليه وزيادة ، بل يخلف عليه ان انه يتقبل العمل عندهم من الاصل ، فلولا ان " الامر منه" هوالذى رماه على" المر" ، ما وقف يوما على اى موقف ، ولتنخسف الارض على من فيها ، ولكنه الزمن الوسخ والعرب النائمة وحرامية الصمود هي التي احوجته لهيك شحططة .. وما باليد حيلة يا ابن الاوادم ....

هكذا فكر يوسف الخطي في نفسه قبل ان يقوم ويهرع الى بيت الراحة .

Digitized by Birzeit University Library

وقت سماع المذياع

شعر : روبرت روجديستفنسكي
ترجمة : مالك قطينة

هذى الارض .....
بالدن العطشى ، عطش الصحراء ،
بالمطر، تفتته قطرات الماء ،
بمحيطات ، وبحيرات .. تجثو بصفاء ،
الحمم الثلجية تتصاعد نحو سماها ،
هذى الارض .....
كوحي الفجر الزاهي
يتورد خداها ،
هذى الارض ....
مرصعة بنداها
تحضن زخات الامطار ،
بخطوط الثلج الملتفة ،
وبأشكال الماء المختلفة ،
انهارا .. وجداول .. وبحار ،
وبحار الماء الجاثم فوق مواقدها
بجلال ... وتنامي x ،
بالون الغامر في بيتسوندا وميامي x ،
وبجرعة خمر ، في حلق الراعي ،
هذه الارض ..
ببطء فستول ، وتهدر انغاره x ،
وهي لحد اللا خوف ، لحد اللا منطق ، جاقة ،
ومعرضة ان تشعلها اى شرارة !!

حين يأتي الرعد ....

ما اغدق الحضن باللطف علينا والدلال
لكننا حين تجيئنا الرعود بالنذير
نواجه المصير
نجذبه من عنقه
وجها لوجه نطرح السؤال
نقول :
" دوت الطلقات في عمق الغلا
وبيتنا الحبيب بالمصائب ابتلى

x بيتسوندا : مصيف في الاتحاد السوفييتي .
ميامي : مصيف في الولايات المتحدة الامريكية .
x فستول : نهر في بولندا تقع عليه وارسو .
أنغاره : نهر جبار في سيبيريا .

Digitized by Birzeit University Library

هل وجب العراك ؟!
هل وجب الصمود والهلاك ؟!"
يجيبنا المصير عابسا . " بلى " !!
نقول :
" لا بأس ،
فنحن للمضى جاهزون كلنا ،
فقل لنا اولا ...
زوجاتنا ،
هل سوف يصحن ارامل ؟!"
يجيبنا المصير مطرقا : " بلى " !!
نسأله :
" هل سوف تغدو الراية الحمراء
فوق الارض دوما في علا ؟
أطفالنا ،
هل يسعدون بعدنا ؟ "
يجيبنا المصير باسما : " بلى " !!!
عندئذ تحصتي ....

قيثارة غارسيا لوركا

..... والوتر الاول
قوس طنطق من قلب العتمة
ومكان الاسهم ، في الجعبة ، كلمة
او ، ان ارغب ، زهر

والوتر الثاني نهر
ما ان المسه ،
ما ان تلمسه بعض الشيء يداى
يضحك ملء الشدق صباى
وهناك الوتر الثالث ـ افعى رقطاء !
لا داعي للخوف ، رفاقي ،
فليخشاها الاعداء !!
والوتر الرابع يحيا في كبد سمائي
يشبه فجرا وفرح
هو قوس قزح ..
يسبح فوقي ، ويظلل ارض شقائي

ومكان الوتر الخامس دالية
هيا اسرع ، نادى الصحب
لا تبدأ من دون الخمرة انغام او حب
ولقد كان لدى كذلك وتر آخر ،
لكن ، ذى حال الدنيا ،
قطعته رصاصة غادر !!

Digitized by Birzeit University Library

أغنية للدار

جميل مكحل

أيا دارا لها عدنا
مغنيك الذى جفت قصائده
بظل بثرفة الجنة
الا يا دار ان عدنا كما كنا
سنطيك بماء الورد
بعد الورد بالحنا

سأول زمرة الهدام
ما برحت
تدمر تنبش الدارا
وأولاد لك انتصبوا
وما قتلوا
ولا اسماؤهم قتلت
الا ياه دار ما فعلت بك الايام
ما هذا الذى صارا
سنبني الردم احجارا
وبعد اليوم لن نرضى
هذا الهدام ان زارا
مغنيك انتشى واسترجع اللحن
المهاجر والربيع وحث اوتارا

ليصنع من طويل الهجر اغنية
ليطليك بماء الورد
بعد الورد بالحنا

صغيرك يطرد العتمة
لتحتضنيه
لا تدعيه في حلمه
تداعب قلبه النغمة
سرى التحنان بالازهار
ام اوهام من همه
مغنيك الذى جفت قصائده
بعيدك صام عن فنه
وان عدنا كما كنا
سيطليك بماء الورد
بعد الورد بالحنا

بقدر حرارة الايام.
الثم كل جدرانك
فكم بعدت لدى الاعداء
ان تلتم الوانك

Digitized by Birzeit University Library

الا يـا داران عدنـا كمـا كنـا
وقـد كبـر الصغيـر ونـال عرفانـك
سيحمي كـل اركانـك
وبطليـك بمـاء الـورد
بعـد الـورد بالحنـا
تطـل بطرفهـا الجـاره
لتذكرنـا
لتذكـر سالـف القصـة
تفاءل سـوط مولاهـا
لتستقصـي مهاجعنـا
فتسكـن قلبهـا الغصـة
الا يـا داران عدنـا كمـا كنـا
يعـود الفـل والياسميـن
فـوق تمائـم الجـاره

ومـن الـوان بيـارة
ستطليـك بمـاء الـورد
بعـد الـورد بالحنـا
أيـا دارا توافذهـا
تطـل علـى ربيـع السفح والقمـ
وبعض من نوافـذهـا
تعـج بها هبـوب الروث والخمـ
تغلقهـا ....
بصخـر جـاء مـن انحـاء رام الل
وزيـت القـدس والخلـة
سنغلقهـا
ويحضـر طفـل شاتيـلا
ليطليهـا بمـاء الـورد
بعـد الـورد بالحنـا

Digitized by Birzeit University Library

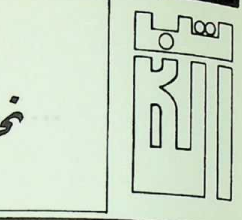

نحو الشمس

عبد الحليم حسن - رفح

اذا لم تخترق عظامك برودة الشتاء ...
لن تستطيع ان تغني اغنية الشمس ...
وان لم يلون دمك عصا الجلاد ...
فليس لك تاريخ ...
ولن يكون لك عرس ...
قد تكون عصفورا ...
صخرة شاعر ...
او ذكرى من ذكريات الامس ..
قد تكون قلبي ...
او بغضة سافات بين نفسي ونفسي ..
او رجم الاهات التي انتزعوها من جرحي ...
لكنك لن تكون حفنة امنيات ..
تطلق في زمن اليأس ..
أمسك .. غدك الان ..
يمكن ان تصعد مع الفجر حين يطول زمن الذبح ..
او تقوم على عظام صدرك مواويل تشمخ في فضاء قلبك الصرح..
وهذا زمن يلزم فيه ان تفهم فصول الدرس ..
فالفقر رحيل ..
والدمع رحيل ..

Digitized by Birzeit University Library

ولقاء عيناكما يطاردهما امن السلطة، رحيل ..

أنت منجم هذا الكون ..

ونسبى وحيد ... لمليون اله ...

وثمرة وحيدة ... لمليون غرس ..

تقف على طرف الكون البعيد ...

تلقى بأحزانك اليومية الفردية التي تثقل كاهلك .....

تبدأ طريق أخرى نحو الشمس ...

Digitized by Birzeit University Library

اتحاد الكتاب الفلسطينيين
في الضفة الغربية وقطاع غزة

المهرجان الوطني الثالث
للادب الفلسطيني في الارض المحتلة
١٣ – ١٥ آب ١٩٨٧
– في قاعة مركز النزهة الحكواتي –

" الادب الفلسطيني "
عشرون عاما تحت الاحتلال

" دعوة "

Digitized by Birzeit University Library

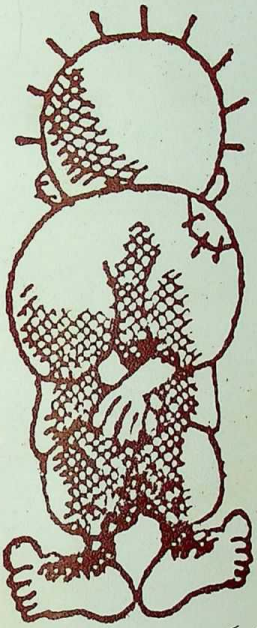

ناجي العلي

أنت في القلب.. وجراحك جراح جيلنا

88

الكاتب
للثقافة الانسانية والتقدم

Editor
Asa'd Al-Asa'd
P.O.Box 20489
Jerusalem
Tel.856931

AL KATEB
For human culture
and progress

Digitized by Birzeit University Library